

الطبعة
5

الإلحاد
[في مواجهة نفسه]

حقيقة الإلحاد
على ألسنة فلاسفته ورموزه

تأليف
د. سامي عامري

الإلحاد في مواجهة نفسه

حقيقة الإلحاد على ألسنة فلاسفته ورموزه


بسم الله الرحمن الرحيم

الإلحاد في مواجهة نفسه

حقيقة الإلحاد على ألسنة فلاسفته ورموزه

تأليف

د. سامي عامري



الإلحاد في مواجهة نفسه

تأليف : د. سامي عامري

رواسخ 2021

166 ص ؛ 23.5 سم.

الترقيم الدولي: 978-9921-9729-3-1

1442 هـ - 2021 م



الكويـت - شـرق - شـارع أحمـد الجابـر - بـرج الجـاز

هاتـف: 0096522408686 - 0096522408787



- مركز غير ربحي مختص في معالجة القضايا الفكرية المعاصرة وفق أسس عقلية وعلمية منهجية.
- يسعى لإيجاد خطاب علمي مؤصل من خلال تأليف وترجمة الكتب والبحوث التأصيلية والحوارية.
- يُعنى بإقامة الدورات والندوات، وإنتاج المواد المرئية النوعية.
- يستهدف بخطابه المهتمين بالمعرفة من مختلف شرائح المجتمع.

الإهداء

إلى الذين يعيشون إيمانهم بالإسلام، أُنسًا بالرحمن، وفرحةً في القلب بهذا الخير.. لا يرون الانتماء إلى هذا الدين، انتماءً جغرافيًا، أو حِفظًا لكلماتٍ واستحضارًا لمحفوظاتٍ...

إلى الأحياء بالإسلام، أُهدي هذا الكتاب..

الفهرس

الفهرس

في البدء، كان السُّؤالُ

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (يونس/ 32)

«إنّ أعظم قضيّة في زماننا ليست هي قضيّة الشيوعية في مقابل الفرديّة، ولا أوروبا في مقابل أمريكا، ولا حتّى الشرق في مواجهة الغرب، وإنّما أعظم قضيّة هي إن كان بإمكان الإنسان أن يحيا دون الله»[1].

المؤرخ والفيلسوف الأمريكي

ويل ديورنت

---

(1) Cited in: Ravi Zacharias, The Real Face of Atheism (MI: Baker Books, 2004), p.19

بسم الله وحده.. والصّلاة والسّلام على من لا نبيّ بعده..

لمّا بدأ عقلي يسأل -منذ عقود- في أمر الإيمان والكفر، كان السؤال الذي يهزّ روحي؛ حتّى تضطرب لشدّته النبضات، هو: إذا كان الإيمان بالله والرسالة الخاتمة من النسيج الحق لبنية الوجود الكبرى؛ فلماذا يسير كثير من الناس عندنا في غير طريقهما؟ أليس الأولى بصاحب كلّ رؤية كونيّة أن يتّجه إلى حيث يُطلب منه المسير، رضًا بالمصير؟

لا أتحدّث هنا عن الهفوات والعثرات في طريق السير على صراط الرؤية الكونية المعقودة في القلب؛ فإنّ الإنسان قد يعجز عن الوفاء لتصوّره الكوني بواجب الطاعة الكاملة؛ فيزلّ أو يكلّ؛ حتّى تبدر منه السقطة والسقطتان، والكبوة والكبوتان.. ليس ذاك مطلبي من السؤال القديم. لقد كان عقلي يسأل بنهمة شرسة تأكل من سكينة الغفلة التي كانت تسكنني: إذا كان الطريق إلى الشرق؛ فلماذا لا نسير إلى الشرق؟ وإذا كان الطريق إلى الغرب؛ فلماذا لا نستدبر الشرق؟ لماذا يتغافل كثير من الناس عن المعالم الكبرى للطريق الذي تصنعه العقائد التي يُعلنون أنها باسطة جناحيها على أفئدتهم؟

لقد كانت نفسي تهفو إلى شيء واحد، لعلي ألخّصه في كلمة واحدة: «التناسق» «Consistency». كان مطلبي أن تسير الرِّجلان معًا إلى المطلب الذي ترنو إليه العينان، وأن ترنو العين إلى حيث يرصد العقل طريق النجاة، أن يكون العقل والقلب في وحدة واحدة لا تنفصم، وعناق لا يكلّ؛ فلا مشاكسة بين هدايات العقل وأحلام الروح، ولا تنافر بين نهايات الفِكر وسعي الجوارح. كان سؤالي: لماذا لا ننحت مسارات دبيبنا على الأرض بعقل يفي لما نعتقد بالطاعة؟

ذاك السؤال، سؤال التناغم بين الفكرة والحركة، أصله يقين المرء أنّه صادق في جزمه أنّه قد أصاب معرفة العالم كما هو، وأدرك المآل الذي ينتظره بعد أن يتوقّف خفقان القلب وتنقطع التروية الدموية عن الدماغ، ويوارى في القبر؛ جثّة هامدة لا

تُحرّك ولا تتحرّك. إنّ سؤال المبدأ والغاية: من أين جئنا وإلى أين نسير؟ هو أصل كلّ شيء؛ لأنّه جواب: لماذا نحن هنا؟

وإنّه لمن الخطأ أن نظنّ أنّ أعظم الضلال هو ذلك الذي يعيشه الذين أخطؤوا الصواب في طلبهم جواب المبدأ والغاية؛ فعاشوا حياتهم على انحراف لأنّهم زاغوا عن جواب السؤال الأوّل؛ فإنّ لهؤلاء «فضيلة»؛ وهي أنّهم عاشوا كما يجب أن يكون لو كان جوابهم عن السؤال صائبًا؛ فإنّهم وإن كانوا مخطئين في باب التصوّر، إلّا أنّهم كانوا متناسقين في باب العمل؛ فقد وفّوا لنظرتهم الكونيّة حقها في بابَي التصديق والفعل.

إنّ أعظم الضلال هو أن يتبنّى المرء جوابًا فاسدًا لسؤال المبدأ والغاية، ثم يرفض بعد ذلك -بصورة كليّة- الوفاء لجوابه حقّه في باب العمل؛ فهو بذلك ضال عن الحق، وخائن لنظرته الكونيّة. وشرّ من ذلك أن يعلم هذا المشتت في بابَي التصديق والعمل تناقضاته؛ ثم لا يراجع نفسه، ولا يبكّتها. وشرٌّ من الأوّل والثاني من يعلم من نفسه تناقضها؛ ثم يستمرّ في الفخر بحاله، والدعوة لرؤيته الكونيّة التي خانها رغم أنّها رصيده الوجودي الوحيد... إنّه يخادع نفسه، ويُخادع الناس.

ترى، هل لهذا المتخاذل عن الوفاء لرؤيته المبدئية الأولى -المنحرفة عن الحق-، وجود؟

فصاحة الإلحاد

قبل يومين من إرسال الكتاب الذي بين يديك إلى الناشر لإعداده للطبع، قرأتُ المراجعة النقديّة[1] التي أعدّها الفيلسوف جيمس أندرسون لكتاب: «دليل الملحد إلى الواقع» الذي ألّفه الفيلسوف الأمريكي الملحد ألكسندر روزنبرج[2] ليُخبر

(1) Review

(2) ألكسندر روزنبرج Alexander Rosenberg (1946): أستاذ فلسفة أمريكي معروف. يدرّس في «Duke University» له اهتمامٌ خاصٌّ بفلسفة العلوم وفلسفة الاقتصاد.

الملاحدة عن حقيقة الإلحاد تصوّرًا وفعلًا، بعد أن هال روزنبرج خذلانهم لعقيدتهم. وقد راقني ما جاء في ختام المراجعة؛ لأنّ صاحبها عبّر بها عن جوهر ما ستقرأه الآن في صفحات كتابنا، بعبارة صادقة وإن كانت قد تبدو ساخرة؛ إذ كتب: «في المرّة القادمة التي تصادفُ فيها نسخةً من كتاب: «دليل الملحد» في متجر لبيع الكتب، فَكِّرْ في نقله إلى قسم «الدفاع عن الإيمان[1]»»[2]؛ إذ إنّ روزنبرج -الملحد الوفي لدهريته- قد قدّم أعظم خدمة للدفاع عن عقيدة الإيمان بالله؛ ببيان حقيقة الإلحاد على لسان ملحد دهري؛ فهو طوال كتابه لم يُجاوز موضوع إعلام الملحد -لا المؤمن- بحقيقة المعتقد الإلحادي، ليلتزم رؤيته، وليعمل وفق توجيهاته..

إنّ حسن بيان حقيقة الإلحاد كما هو، كاف لتقدّم للملحد مدخلًا عقليًا ونفسيًا لإقامة قراءة نقدية لمعتقده. ولكن يبقى الإشكال، كلّ الإشكال، في قدرة الملحدين على فهم إلحادهم؛ فإنّ عامتهم في عجز عن معرفة مذهبهم.

وأشهدُ أني في رحلة النَّظَرِ في العقائد الكبرى في تاريخ البشرية، لم أَلْقَ مَشَقَّةً في الإبانة عن حقيقةِ عقيدةٍ أو تصوّرٍ كونيٍّ مثلما لِقِيْتُه في الإفصاح عن حقيقة الإلحادِ؛ لا لما على هذه العقيدةِ من غَبَشٍ، وإنّما لأنّ جمهورَ الملاحدة يَقْنَعُون بالعناوين والشّعارات الكِرازية[3]، ولا يهتمُّون بحقيقةِ الصُّورة الكونيّةِ الكبرى التي يصنعها الإلحاد. ولذلك تجد نفسَكَ تَعْجَبُ من أن يكون «التّنويرُ الإلحاديُّ» مُظلِمًا يَسْرِي فيه الملحد ليلًا دون أن يرى معالمه.

إنّ مناقشة التصوّر الإلحاديّ، لا بدّ أن تبدأ بمعرفة أعماق هذه الرؤية، ولا تكتفي بالسَّطحِ؛ فإنّ من اكتفى بالسّطح لم يعرفْ شيئًا. وذاك يقتضي -ضرورةً- الحَذَرَ من

(1) العبارة الأصلية للمراجِع تتحدث عن الدفاع عن النصرانية. والقصد هو الدفاع عن الإيمان بالله؛ فإنّ كتاب روزنبرج كان في الحديث عن الإيمان بالله لا الإيمان بالمسيح أو الثالوث.

(2) James Anderson, 'a book review of The Atheist's Guide to Reality: Enjoying Life Without Illusions by Alex Rosenberg', in Christian Research Journal, volume 36, number 03 (2013)

(3) كِرازيّة= دعائية.

السُّقوط في فَخِّ العناوين التجميليّةِ التي يريد الملاحدة اختصارَ الإلحاد بها، كما يقتضي أيضًا عدمَ الاستسلام لشعاراتِ الإدانة المجانيّة للرؤية الكونيّة الإلحاديّة؛ فإنّ مخالفتك لفكرةٍ ما يجب أَلَّا تكون قائدَك لتشويهها؛ فمعرفةُ الشيء -حقّ المعرفة- تكون بحُسْنِ تَمَثُّله كما هو، دون رَمْيِهِ بِشَيْنٍ أو رَفْعِهِ بزَيْنٍ.

إشكالٌ في مُبتدأ النَّظَرِ

هل نحتاجُ أن نُرْسِلَ الحِبْرَ مِدْرارًا لنُعرّف الإلحاد، في حديثِنا عن الإلحاد؟ أَلَيسَ الدُّخولُ في هذا الباب من الجَدَلِ تَكَلُّفًا في تعريف الـمُعرَّف؟!

لا أظنُّ أنّ مُطَّلِعًا على أدبيّات رموز الإلحاد، وجَدَل الإلحادِ الشعبويّ، يسأل السؤالَيْنِ السابقين؛ لأنّ أصل الإشكالِ مع عامّة الملاحدة هو في تصوّر الإلحاد، لا في أَدِلَّتِهِ؛ فإنّه لو تَصَوَّرَ الملاحدةُ حقيقةَ إلحادِهم كما هي دون تَعَسُّفٍ أو بَتْرٍ أو تجميلٍ؛ لما بقي على الإلحادِ إلا قليل منهم، إنْ بَقِيَ منهم أحدٌ!

ولعلّه يَسْهُلُ عليك أن تُدركَ جَهْلَ عامّة الملاحدة بإلحادِهم، من السُّؤال الأوّل المطروح عليهم؛ فإنّك لو سألتَ عامّة الملاحدة عن مفهومِ الإلحاد الذين يَدِينُون به؛ فستلقى الإجابةَ القاطعةَ الواضحة التي تُقرّر بجزمٍ أنّ الإلحاد هو: «الإيمان (الاعتقاد) أنّه لا يوجد إلهٌ». فهو إذن عِلْمٌ بِعَدَمِ وُجودِ اللهِ. وهؤلاءِ يَدَّعُون أنّهم قد امتلَكُوا حقيقةً وَعَتْهَا أذهانُهم؛ وهي أنّ الوجودَ مادّةٌ، وأَلَّا إلهَ.

ثم إنّك عندما تُولّي وَجْهَكَ كتاباتِ أئمّة الإلحاد وأَعْظمهم لجاجةً في مُخاصمةِ المؤلّهة[1]؛ فستجد أنّهم يَعْتَبِرُون التعريف السّابق تصويرًا مُشَوَّهًا لمذهبهم بقصد إِحْراجِهِم؛ وأنّهمْ في الحقيقةِ يُنكِرون أنّهم يؤمنون أنّه لا يوجد إله؛ لأنّه -كما

(1) المؤلّهة Theists: المؤمنون بإله متصرّف في الكون عند الخلق وبعده، يُخاطب عباده بالوحي. وأهمّهم: المسلمون والنصارى واليهود.

يقولون- ليس بإمكانِ أحدٍ أن يجزم بدعوى كونيّة عَدَمِيَّةٍ[1]. ولذلك يُقرّر هؤلاء أنّهم «لا يؤمنون باللهِ» لا أنّهم «يؤمنون أَلّا إلهَ». فما في قلوبهم هو غيابُ الإيمانِ باللهِ لا القَطْع أنّهم يعلمون ألّا إله؛ فهم ملاحدةٌ لأنّهم لم يَقْتَنِعُوا بأدلّةِ الإيمان، لا لأَنَّهم يملكون أدلَّةً قاطعةً أَلّا إلهَ.

وإذا أدركْتَ خطأ عامّة الملاحدةِ في أَبْسطِ تعريفٍ للإلحادِ، سَهُلَ عليك أن تُدْرِكَ سهولةَ التَّعَثُّرِ في بقيّةِ الطّريق. وإذا جَهِلَ المرءُ عنوانَ ما يعتقِدُه، مع إبدائِهِ الفَخْرَ بما لا يعرف، كان جَهْلُه بالتّفاصيل أَعْظَم.

ولم يبرأ كثيرٌ من المقدَّمِين من الملاحدةِ من الخطأ في معرفة الرؤية الكونيّة الإلحاديّة؛ فشاركوا بذلك الملاحدة الشّعبويّين سوء الفهم والتصوّر لمعتقدهم؛ إذ إنّهم يُكثرون من القول إنّ إلحادهم ليس اعتقادًا/ إيمانًا، وإنّما هو مجرّد فَقْدٍ للإيمان بإلهٍ أو آلهةٍ، أو بعبارتهم الإنجليزية: «Atheism is not a belief. Atheism is merely the lack of a belief in God or gods» [الإلحاد ليس إيمانًا. الإلحاد هو مجرّد غياب الإيمانِ باللهِ أو بالآلهة]. وبهذا يتجاهلون أنّ العقيدةَ والتّصوّرَ الكونيّ قد يَنْبَجِسانِ من كلمةٍ واحدة؛ فإنّ التصوّرَ الكونيَّ، قد يبدأ من فكرةٍ تتداعى عنها الرُّؤى التزامًا بالفكرة الأُولى؛ كالقول إنّ الكونَ وَهْمٌ، أو القول إنّ الإنسانَ من جِنْسِ أجدادِهِ البهائمِ... فهي مُقدّماتٌ تَتْبَعُها - ضرورةً - مجموعةٌ من التصوّرات والمواقفِ التي لا يستطيع أحدٌ أن يبرأ منها إلّا أن يُكذّب المقدّماتِ أو أن يرضى بالتّناقض. وما دام الملحد الماديّ لا يكون ملحدًا إلّا بالقول بمبادئ الإلحاد الأساسيّةِ، وعلى رأسها أَلّا إلهَ، وأنّ الحياة أَثرٌ عن حركة الذرّات؛ فيلزمه أنْ يَقْبَلَ ما ينتج من أفكارٍ ضروريّةٍ عن مبادئه الأُولى، أو أن يقول إنّه لا يأخذُ المبدأ الإلحاديّ الأَوَّلَ مأْخَذَ الجدِّ؛ إذ يرضى أن يُعارِضَهُ بما يَرُوقُ لِذَوْقِهِ أو يَسْتَمْلِحه.

---

(1) Negation of a universal statement
وقد كرَّرَ ذلك كراوس وداوكنز وغيرهما من الملاحدة في محاضراتهم ومناظراتهم.

والناظر في كتابات الأنثروبولوجيين[1] والأركيولوجيين[2] يعلم جيدًا أنّهم كثيرًا ما يعتمدون في إعادة بناء تصوّرهم لدين طائفةٍ ما مندثرةٍ، على بعض الآثارِ التي ترتبط لُزومًا باعتقاداتٍ معيّنةٍ وشعائرَ طقوسيّةٍ مخصوصةٍ (كالأصنام، والمعابد، والتّمائم...)؛ فإنّ التصوُّرَ الكونيّ يترُكُ آثارَهُ في الأشياء الصّغيرة وأدوات الحياة اليوميّة. والقولُ إنّه لا يوجد إلهٌ، والحياة مادّةٌ، أكبرُ من آنيةٍ فخّاريّةٍ عليها صُورةُ رَجُل يَسْجُدُ لِصَنَمٍ في مَعْبدٍ ما؛ إنّها مَقُولةٌ عَقَديّةٌ كُبرى تَتَفَجَّرُ منها دلالاتٌ عَقَدِيّةٌ وقِيميّةٌ وسُلوكيّةٌ كثيرةٌ لا سبيل للانفكاكِ عنها.

إنّ الملحدَ -مثل غيرِه- ينطَلِقُ من إطارٍ مفاهيميٍّ خاصٍّ conceptual framework. وهذا الإطار هو الذي تَنْجُمُ عنه بقيّةُ الأفكار في تداعٍ عَفْوِيٍّ؛ لأنّها آثارٌ ضروريّةٌ للمقدّمات التصوّريّةِ الأُولى. والإطار المفاهيميُّ هو مجموع التصوّراتِ الأُولى والكُبْرى التي تُمَكِّنُنَا من رؤيةِ العالَمِ من زاويةٍ ما خاصّةٍ. فَلِلْماديِّيْنَ، والمثاليِّين، والغنوصيّين، والعقلانيّين، والتجريبيّين، والنّقديّين... أُطُرٌ مفاهيميّة أُولى بها يتميّزون عن غيرهم، وعنها تتولّد مقولاتهم الفرعيّة في كلّ بابٍ. وهذه المقولات المفاهيميّةُ الأُولى تتعلَّقُ بالقولِ في وجود الله وصفاته، والميتافيزيقا (الحقيقة النّهائية للواقع)، والإبستيمولوجيا (المعرفة)، والأخلاق، وطبيعة الإنسان[3].

وقد أدركَ أبرزُ أعلامِ الإلحاد أنّ للإلحاد لوازمَ لا انفكاكَ عنها؛ فأقاموا مشروعَهُم الفلسفيَّ التأسيسيّ في بدايتِه على استخراجِ هذه اللَّوازمِ، ثم بناء رؤيتهم الفلسفيّة الخاصّة. وهذا ظاهرٌ بصورةٍ واضحة في كتاباتِ شوبنهاور[4] ونيتشه[5] مثلًا. وقد مدح

---

(1) الأنثروبولوجيا Anthropology: علم يعتني بدراسة الإنسان، سلوكه ومجتمعاته في الماضي والحاضر.

(2) الأركيولوجيا Archaeology: علم يعتني بدراسة نشاط الإنسان في التاريخ؛ بالاعتماد على الآثار المادية المحفوظة.

(3) Ronald H. Nash, *Life's Ultimate Questions*: *An Introduction to Philosophy* (Zondervan Academic, 2013), p.41

(4) آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer (1788-1860): فيلسوف عدمي ألمانيّ. عُرف بنزعته التشاؤميّة. أعلى من جانب الإرادة التي تصنع وعي الإنسان.

(5) فردريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900): فيلسوف ألمانيّ وعالم لغة. كانت كتاباته محطّة فارقة في تاريخ الفلسفة. كان له اهتمام خاص بالمباحث الوجوديّة والأخلاقية والنفسيّة. من أهم مؤلفاته: «هكذا تحدّث زرادشت».

سارتر[1] المشروع الفلسفيّ الثوريّ لنيتشه؛ لأنّ نيتشه أقامَ أُسُسَهُ على استخراج النتائج الآلية لما لا بُدَّ أن يَنْجُمَ عن القول بالإلحاد[2]. ولذلك حرص سارتر -في زعمه- على أنْ يستخرجَ من الإلحاد ما يُشكّل رؤيةً كونيّةً أَمِيْنةً للمبدأ الإلحاديّ الطبيعانيّ الأَوّلِ؛ فقال -مثلًا- في أَحَدِ أَهَمِّ كُتبه: «يعتقد الوجوديُّ أنه من المُحْرِجِ جِدًّا أنّ الله غيرُ موجودٍ؛ إذ إنّه تختفي مع اختفاءِ الإلهِ أَيُّ إمكانيةٍ لإيجادِ قِيَمٍ في سماءٍ واضحةٍ»[3]. فالوجوديُّ الملحدُ لا بدّ أن ينتهيَ إلى إنكارِ قيم الخيرِ والشرِّ في عالمٍ بلا إلهٍ.

إنّ الإلحاد الذي نحن بصدد مناقشته، هو الذي عليه عامّة الملاحدة اليوم، وهو مذهب الميتافيزيقانية الطبيعانية metaphysical naturalism الذي مُلَخَّصُه أنّ الكون الماديّ[4] هو كُلُّ الحقيقةِ، ولا شيء بعد ذلك؛ فلا يوجدُ شيءٌ فوقَ طبيعيٍّ كالإلهِ والملائكةِ والجانّ[5]. والمادّةُ أَزَلِيَّةٌ، أو وُجِدَتْ بلا سَبَبٍ؛ فلا شيءَ في كلا الحالَيْنِ سابقٌ لوجود الزّمنِ؛ سواءٌ كان السَّبْقُ زَمَنِيًا أو بالذَّاتِ. وقد تطوَّرَتْ هذه المادّةُ عَبْرَ مراحلَ مختلفة، منذُ وجودِها، من طور إلى آخرَ، بِسُلطانِ العشوائيّةِ العمياءِ. فلا قُدرةَ ولا حِكْمةَ تُسَيِّرُ الكونَ الماديَّ من خارجِه.

وقد أدَّت المقولةُ الإلحاديّة الرافضةُ للإيمان بإلهٍ إلى نُشوءِ مقولاتٍ في جميعِ مناحي الحقيقةِ طَبَعَتْ مُجْمَلَ الفِكْرِ الغربيّ بمعالمَ لم يَعْرِفْها من قبل:

في باب الحقيقة: النسبية المعرفية Epistemological relativism.

---

(1) جون بول سارتر Jean-Paul Sartre (1905-1980): فيلسوفٌ وروائيٌّ فرنسيٌّ. الرمزُ الأَوَّلُ للوجوديّة الملحدةِ في القرنِ العشرين. أَكَّدَ في فسلفته صناعةَ الإنسانِ نفسَهُ في وجود بلا معنى. كان له حضورٌ سياسيٌّ تَقَلَّبَ فيه بين أكثر من موقف. مُنح جائزة نوبل للآداب لكنّه رفض استلامها. من أهمّ مؤلفاته: «الوجود والعدم».

(2) Sartre, *Situation I* (Paris, Gallimard, 1947), 166

(3) Satre, *L'Existentialisme est un Humanisme* (Paris, Nagel, 1947), pp.35-36

(4) نستعمل في هذا الكتاب -للتبسيط- «المادية الصرفة» كمرادف «للطبيعانية». وإن كان السائد التمييز بينهما. ومعناهما هنا أنّ الوجود كلّه أصله الذرّات.

(5) في الإسلام ، جاء الخبر أنّ الله سبحانه قد خلق الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار. وهما مع ذلك -باتفاق بيننا والملاحدة الماديين- خارج مفهوم الماديّة الذي نناقشه معهم هنا.

في باب الفكر: النسبية الفلسفية Philosophical relativism.

في باب المعنى: النسبية الدلالية Semantical relativism.

في باب الأخلاق: النسبية الأخلاقية Moral relativism.

في باب الغاية: النسبية الغائية Teleological relativism.

وكلُّ ما سبقَ نتائجُ مُلازِمةٌ لفقدانِ الإنسانِ البُوصلةَ الهادية بعد هَيْمَنةِ التصوّر الإلحاديِّ على البحثِ المعرفيّ؛ فلم يبقَ من العقل والأملِ شيءٌ؛ فإنّه إذا كانت البداية بلا حِكْمةٍ ولا قَلْبٍ، كانت النهايةُ بلا حِكْمةٍ ولا فَرَحٍ. وهو ما عَبَّرَ عنه الفيلسوفُ الملحد برتراند راسل[1] بقوله: «الإنسانُ نِتاجُ أسبابٍ ليست لها بصيرةٌ بالنّهاية التي تسعى إليها؛ فأَصْلُهُ، ونماؤُه، وآمالُه ومخاوفه، وحبُّه ومعتقداتُه، كلُّ ذلك ليس إلّا نِتاجًا للتّواطؤِ العَرَضِيّ للذَّرّاتِ ... وقد قُدِّر له الفَنَاءُ بِفَنَاءِ النِّظامِ الشَّمسيِّ، ولا بُدَّ ضرورةً أن يُدْفَنَ المعبدُ الكامل لإنجازاتِ الإنسانِ تحت حُطامِ الكَوْنِ الخَرِبِ»[2].

إنّ الإلحاد الماديّ في حقيقته، هو ذاك الإقرارُ الخَفِيُّ الهامِسُ أنّ وجودَنا الحيَّ مدينٌ للعشوائيّة كُليّةً. ولكنْ لا يرضى الملحد -عامّةً- بمصارحةِ نفسه بهذه الحقيقةِ، ويسعى -بِوَعْيٍ أو بلا وعي- إلى أن يحلّ المعضلةَ الإلحاديّة بأن يعيش مُنْكِرًا للهِ، مع فتح رَوْزَنةٍ في سَقْفِ وَعْيِه لِتُشْرِقَ عليه معاني الوجود التي لا حياة لها إلّا في ظلّ الإيمان بوجود إلهٍ. إنّنا لسنا إزاء تفاؤلٍ إلحادي رغم الواقع الجَدِبِ، **وإنّما نحن أمام تفاؤلٍ يتعامى قسرًا عن أنّ النهاية مُجْدِبةٌ. هو تفاؤلٌ رغم النّهاية المفزِعةِ.** وقد أَلِفَ الإنسانُ الملحدُ التعايشَ مع الاعتقاداتِ المتناقضةِ، المتنافيةِ؛ فما عاد يُبْصِرُ أنّه يسيرُ في الضَّبابِ بلا هُدًى.

---

(1) برتراند راسل Bertrand Russell (1872-1970): فيلسوفٌ وعالم منطقٍ ورياضيات بريطانيّ. أحدُ أعلامِ الفلسفة التحليليّة. حاصل على جائزة نوبل للآداب.

(2) Bertrand Russell, *Mysticism and Logic* (Cited in: Mary Poplin, *Is Reality Secular?,* Downers Grove, IL: InterVarsity, 2014 , p. 45)

إنّ الإلحاد رحلةٌ تقودُ المريدين إلى جزيرةِ الأوهام؛ حيث الأشياءُ ونقائِضُها في تعايُشٍ سِلْميٍّ، والطّريقُ يقودُ إلى منتهاهُ ومُبْتَدَئِه في الحِيْنِ نفسِه؛ لأنّه لا طريقَ هناك في الحقيقةِ؛ وإنّما أشباهُ المعاني تتحرَّكُ حولكَ دون أن تتحرَّكَ أَنْتَ.. إنّها أوهامٌ تَصْنَعُها الرّغبةُ في تجاوزِ مبدأ الإلحادِ الماديّ الأوّلِ، وهو أنّ مادّةً حيّةً (=الإنسان) صَنَعَتْها العشوائيّةُ بِصُدفةٍ سعيدةٍ -وربما صدفة لعينةٍ!-، قَدَرُها أَنْ تحيا لِتَمُوتَ، وأن تَمُوتَ لأَجْلِ لا شَيْءٍ.

الملحد.. ذلك الكائِنُ العَنْقَائِيُّ

قديمًا قِيل[1]:

لمّا رأيتُ بني الزّمانِ وما بهم *** خِلٌّ وَفِيٌّ لِلشَّدائدِ أَصْطَفِي

أَيْقَنْتُ أنَّ المستحيلَ ثلاثةٌ: *** الغُولُ والعَنْقاءُ والخِلُّ الوَفِي

ولنا نحن أن نقول إنّ الخِلّ الوفيَّ بضاعةٌ نادرة، لكنّ بعض أفرادها يتنفّسُ فوق الأرض، وأمّا الذين لا بقيّة لبصمات أرجُلِهم على الأرض من أثرِ الدّبيب عليها؛ فهم الملاحدة الذين يعيشون إلحادَهم بِصِدْقٍ، فمِن إلحادهم تَصْدُر أفكارُهم وأفعالُهم ومشاعرهم. إنّ الملحدَ الحقيقيّ، كائنٌ لم يكن، ولن يكون، ما كان الإنسان الذي نعرفه هو الإنسان؛ حتّى قيل إنه إذا أُريدَ أن يكون للملاحدةِ يومُ عِيدٍ؛ فليكن الأَوَّلَ من أبريل؛ الموافق لِكِذْبة أبريل!

إنّ الملحد -الخارج عن الإسلام- يظنّ أنّه بعد خروجه من الإيمان بإلهٍ إلى الإلحاد، ليس مُطالَبًا إلّا بأنْ ينزِعَ من منظومته السابقة الإيمانَ بخالقٍ، والإيمان بالجنة والنار والملائكة، وبعض الأحكام الفقهية في الحلال والحرام؛ ليكون ملحدًا خالصًا، لا شائبة من الإيمان في قلبه وقوله. والحقّ إِنّ التغيير يجب أن

(1) القائل هو الشاعر صفيّ الدين الحلي (توفي 752هـ/ 1339م). ديوان صفيّ الدين الحِلّيّ (دار صادر، بيروت)، ص669.

يكون في الأُسس والجذور التي تَصُوغ الرؤيةَ الكونيّةَ، إنّه تحوّلٌ من زاويةٍ ما للنّظرِ إلى الوجود كلّه إلى زاويةٍ أُخرى تقابلها من الجهة الأُخرى، وتُنافِرُهَا كُلَّ الـمُنَافرة؛ بما يُؤدّي إلى تغيير الرؤية كليّةً؛ إذ إنّ الإلحادَ ينشز صاحبه كائنًا جديدًا، من لحم وعظم جديدَيْنِ.

إنّ الملحد الأمينَ في رؤيته، والمستمسكَ بها بِصِدْقٍ ووَجَلٍ حتّى لا يُلابِسَهَا شيءٌ من إيمانِ المؤمنين بالله، لا سبيل له غير سبيل العَدَمِيَّةِ؛ فإنّه إذا كان المرءُ لا يعترفُ لموجودٍ بوجودٍ غير المادّة، وأَعْراضِها؛ لَزِمَهُ أَلّا يعترف لناظِرِيها بالصَّواب إلّا في رؤيتهما للمادّة وأعراضها، وألّا يتجاوز في فَهْمِه لهذا الوجود غير ذلك؛ فالعَدَمِيّةُ الوجوديّة existential nihilism قَدَرُ كُلِّ ملحدٍ طبيعانيٍّ. والقول بالعدميّةِ الوجودية مآلُهُ نهاية كلّ معنًى وقيمةٍ، وخرابُ كلّ شيء في الذِّهن والواقعِ؛ فلا يبقى من الوجود غيرُ صُوَرِه.

وقد أَدْرَكَ نيتشه مآلَ العالم بعد نهاية الإيمان باللهِ، واختصار الوجود في المادّةِ. وهو ما جعله يَتَنَبَّأُ أنّه في القرنَيْنِ التَّالِيَيْنِ (العشرين والواحد والعشرين)، ستسودُ العدميّةُ في أوروبا، ويتمكّنُ الخرابُ من ثقافتها[1]. ولذلك يُعَدُّ نيتشه اليومَ أَوَّلَ فلاسفةِ ما بعد الحداثة التي تُنْكِرُ الحقيقةَ وتراها سرابًا لا يُنال، ولا ترى حياةَ الإنسانِ سوى شرارةً تُوشِكُ بعد وَمِيْضِها أَنْ تنطفئ؛ ليبقى الظَّلام هو الحاكم، ولِيَسُودَ الفراغ الشاحب.

وإنّك لَتجَدُ هذه السَّوْداويّةَ الواضحة في قول داوكنز[2] -نبيّ الإلحاد الجديد-: «الكونُ الذي نُبْصِرُهُ، يَحْمِلُ بكلِّ دِقّةٍ الخصائصَ التي ينبغي لنا أن نَتَوَقَّعَها إذا كان في جَوْهَرِه بلا تصميمٍ، ولا غايةٍ، ولا شرٍّ، لا شيء غير عَدَمِ اكتراثٍ قاسٍ»[3].

(1) Friedrich Nietzsche, *The Will to Power,* Tr. Anthony M. Ludovici (New York: Courier Dover Publications, 2019), p.vii

(2) ريتشارد داوكنز (1941) Richard Dawkins: عالم سلوك الحيوانات بريطانيّ. رأسُ تيّارِ «الإلحاد الجديد». ساهَمَتْ مؤلَّفاتُه في تشكيل أُصولِ هذا التيّار، خاصَّةً كتابه «وَهْمُ الإله».

(3) Richard Dawkins, *River out of Eden* (New York: Basic Books, 2008), p. 133

ورغم وضوح كلام نيتشه الفيلسوف الصارخ بموت الإله والمعنى، وداوكنز الملحد الحماسيّ الصارخ بانعدام القيمة، إلا أنّك تجد مع ذلك في كتاباتهم حديثًا عن المعنى الحيّ، والقيم الإيجابيّة، وهم يناضلون تحت لافتاتِ إنصافِ الإنسان والشُّعوب والحقيقة؛ وذلك لِعَجْزِ فلاسفةِ العدميّة وأنصارها عن إقامةِ فلسفةٍ مُتّصلةٍ بالواقع تُعدم المعنى والقيمة.

ونحن هنا بين أن نُصدّق أئمّةَ الإلحاد في نُصرتهم للعدميّةِ؛ فينتهي كلُّ إمكانٍ للكلام، والجِدال، وطلب الحقيقة في أرض المعنى والفضيلة في سماء القيمة، أو أن نُصدّق إيمانهم بالمعنى والقيمة، وعندها نُنْكِرُ عليهم إلحادهم؛ فهم لا يعرفون ما يلزم عن إلحادهم، أو لا يجرؤون على التزام لوازم الإلحاد؛ لأنّ الإلحاد لا يمكن أن يُعاش unlivable!

وإذا وُجد فيلسوف ملحد جريء في بَوْحِه بالعدميّة ومحاولة –مجرّد محاولة– التزامها بكليّتها، تناوَشَتْهُ أيدي بقيّة الملحدين بلا رحمة؛ لأنّه كشفَ المخبوءَ، وصرَّحَ بما حَقُّه أن يكون مكتومًا. وهو ما كان –مثلًا– لمّا نشرَ روزنبرج كتابه «دليل الملحد إلى الواقع، الاستمتاع بالحياة دون أوهام»؛ فقد اتُّهم أنّه يُقدّم أجوبةً سهلةً بِقَلَمِ مَنْ لا يُبالي بموقفِ الناس منه[1]؛ وكأنّ التعقيد شرطُ الصَّواب، ضرورةً، أو أنّ على الكاتب أن يأْبَهَ لإنكار المنكر إن كان مقتنعًا بمذهبه. ما فعله روزنبرج هو أنّه –ببساطة– سار مع الإلحاد الماديّ إلى نهايته الطبيعيّة، ولم يأبه –عامةً[2]– بإنكار النتائج المفزِعة لمذهبِه، وعلى رأسها ألّا معنى لشيءٍ، ولا قيمة لشيء..

إنّ مطلبَ معرفةِ الإلحاد بكليّته، وعلى حقيقتِه، بفكّ الأَخْتَام والأغلال عن الكلام؛ مَطْلَبٌ عاجِلٌ؛ حتّى يفيق الملحد من سَكْرَتِهِ. ولسنا نبغي بذلك –بصورة مباشرة–

(1) See Richard Geldard, Rosenberg's Guide to Reality, *Huffpost* 01/05/2012
< https://www.huffpost.com/entry/rosenbergs-guide-to-reali_b_1181571 >

(2) روزنبرج نفسُهُ وقع في تناقضاتٍ واضحة بقوله بالعدميّة وتأليفه –رغم ذلك– كتابه الذي يدعو إلى حقائق في الفكر والقيم يُنتصر لها بحماسة!

نقض الإلحاد؛ فذاك أمرٌ تناولْنَاهُ في الكتب الأُخرى من سلسلة «الإلحاد في الميزان»، وإنّما نحن هنا لنسعى إلى معرفة الإلحاد كما هو، بلا تجميل، ولا إبهام في التصوير..

وإذا كان الفيلسوف والفيزيائيّ الأمريكيّ الملحد فيكتور ستنجر[1] قد ألّف كتابه المعروف «الإله، الفرضيّة الفاشلة»[2]، فنحن نَعِدُ القارئ -في المقابل- أن يكتشف معنا أنّ الإلحاد ليس فرضيّةً فاشلة، وإنما هو فرضيّةٌ مستحيلة.. إنّ الإلحاد لا يقوى أن يرفع نفسه إلى سرير العرض للجَسِّ والاختبار، فهو ليس قابلاً لأن يُمتحن؛ لأنّه ينتحر عند العَرْضِ وقبل الحساب، إنّه يذوب على أطراف الأصابع، ويتبدّد إلى سراب من دخان رقيق عند الدنوّ منه.

.. ولكنّك تبالغ!

قد يقرأ ملحد أو مسلم هذا الكتاب، ويجزع لِقَتَامةِ صورة الإلحاد فيه؛ فيقول بعفويّةٍ صادقةٍ: كلُّ ما ذَكَرْتَهُ في كتابك هذا جدلٌ نظريٌّ؛ فإنّي لم أرَ في حياتي ملحدًا يعيش وفق هذه العقائد والأفكار التي تذكرها.. أَلَا ترى معي أنه يوجد في الغرب ملاحدةٌ يجوبون البلاد لإنقاذ المعوزين والمنكوبين حين الزلازل والفيضانات؟ هل تنكر حرص علماء الطبيعة الملاحدة على نفع البشريّة؟ إنّ كلّ ما تقوله في صفحات هذا الكتاب لا سبيل لإلزام الملاحدة به لأنّهم لا يعتقدون كلّه!

وجوابي هو أنّ الملاحدة الذين تذكرهم في اعتراضك، فيهم طيبة وخير **لا لأنّهم ملاحدة، وإنّما هم كذلك بالرغم أنّهم ملاحدة**.. إنّه لا سبيل لك أن تَرُدَّ أَيَّ نزعةٍ خيّرة فيهم إلى إلحادهم؛ لأنّ إلحادهم لا يعترف بالخير والشر.. هم يخونون إلحادهم لأنّهم يسرقون من رصيد الفطرة الأولى الخيّرة والثقافة الدينية السائدة في بيئتهم،

(1) فكتور ستنجر (Victor Stenger(1935-2014: فيزيائيٌّ وفيلسوفٌ أمريكيّ. من أعلام تيّار الإلحاد الجديد. شديد العدوانية ضدَّ الاعتقاد الدّينيّ، وتتميّز كتاباته بتكثيف الاعتراضات على حساب تناسقها.

(2) Victor J. Stenger, *God*: *The Failed Hypothesis* (Prometheus Books, 2008)

ليكون ذلك حافزًا لفعلهم، وإن لم يعترفوا ظاهرًا بذلك، أو لم يكتشفوا تناقضهم في ذلك. هم يدورون في فَلَكِ حقائق الأديان لا يغادرونها إلا قليلًا، وكثيرٌ من الخلاف معهم -في الأمور العملية- في التفصيل لا الأُصول..

إنّني مثلك، أُنْكِرُ أَنْ يوجد ملحد يلتزم بكلّ ما في الكتاب، بل وأَستخِفُّ بالمثل الإنجليزي القائل: «لا يوجد ملاحدة في الخنادق» «There are no atheists in foxholes»[1]؛ لأنّه لا يوجد ملاحدة -على الحقيقة الكاملةِ - أصلًا؛ فالإلحاد تصوُّرٌ لا يمكن أن يعيشَهُ الإنسان؛ لأنّه لا يمكن أن يُصدّقه.. إنّ لحظة الوعي الصادقة بالإلحاد في صدر الملحد، والتي تقترن بالرغبة في أن يعيش الملحدُ طِبْقَ تصوُّره ويهتدي بمعالمه، لا بدّ أن تقترن بضغطة زِرّ المسدَّسِ في اتّجاه الرأس، أو أن يرميَ الملحد نفسه من شاهقٍ.. لا فِرار!

إنّ هذا الكتاب الذي بين يديك يسعى إلى مصارحة الملحدين حقيقةَ معتقدِهم الذي يخونونه.. إنّه يُحفِّزُهم أن يعيشوا لحظة الصِّدق مع أنفسهم، لا لدفعهم إلى الانتحار، وإنّما لمواجهة الحقيقة، ولمفارقة لحظات الخَدَر التي يعيشونها تحت شعارات «التنوير» و«الاستنارة». إنّه لمن القبيح بالمرء أن يجمع دعوى «الاستنارة» مع رذيلة الجبن..

والمؤلّف على وعي أنّ قبول الحق ليس رهين قوّة الحجّة ووضوحها، وإنّما هو رهين طلب وفاء المرء للحقيقة وشوقه إليها، ولذلك فإنّ محاولة شرح الحقيقة لمن لا يحبّها، ليست سوى بذل لمادةٍ جديدةٍ له ليسيء تفسيرها -بعبارة الكاتب الأسكتلندي جورج مادكونالد-[2].

---

(1) أي إنّه حين الشدائد لا تملك نفسٌ أن تُنكر وجود إله تلتجئ إليه؛ استجارة وتحنُّنًا.

(2) George MacDonald, *The Curate's Awakening* (Minneapolis: Bethany House, 1985), p.161

.. ولكن، أنا حرّ!

ما هي المعارضة التقليدية للملحد الشعبيّ عندما يقرأ هذا الكتاب؟

عامّةً، سيقول الملحد: الإلحاد ليس دينًا، وليس فيه كتاب مقدَّس، ولا أنبياء؛ فكلّ ما في هذا الكتاب أفكار يتبنّاها المؤلف أو الملاحدة الذين يعضّد بهم موقفه من لوازم الإلحاد.. أنا حرّ؛ بإمكاني أن أؤمن بما أشاء دون التزام بما في الكتاب من دعاوى!

تلك هي معارضة الملحد الشعبويّ الذي يكرّر شعارات الإلحاد دون أن يدركَ مآلاتها.. ونحن في هذا الكتاب لا ننازع في أنّ الملحد بإمكانه أن يتبنّى أفكارًا تخالف ما في الكتاب، أو أن يرفض -شخصيًّا- لوازم الإلحاد.. لسنا نجادِلُه في قدرته على أن يتبنّى ما شاء من رؤى وأفكار.. نحن نجادله في شيء آخر، وهو عَجْزُه عن أن يحملَ رؤية كونية متناسقة إن رفض اللوازم المذكورة في الكتاب..

إنّ الملحد بإمكانه أن يرفضَ لوازم الإلحاد، لأنني أعتقد أنه قادر ذهنيًّا أن يتبنّى ما شاء من أفكار، وليست القضية في قدرة الدماغ على الإيمان بأيّ شتاتٍ من الأفكار شاء؛ فالدّماغ قادر أن يُؤْمِنَ أنّ صاحبَهُ إنسانٌ أو بَجَعَةٌ أو نَوْرَسٌ أو نُدْفَة ثَلْجٍ.. لكنّه سَيَقَعُ في التّناقض البيّن إِنْ بقيَ على اعتقادِهِ المخالِف للواقعِ.

إنّنا في هذا الكتاب نناقش لوازم الإلحاد التي ستبقى تطارد أهلها كلّما فكّروا في أن يكونوا ملحدين صادقين في إلحادهم[1]. موضّحين وجه التلازم عندما يقتضي

(1) اللَّوازم، جمع لازِم، وهو الْخَارِجُ عَن الشَّيْء الْمُمْتَنِع انْفِكاكُه عَنهُ؛ أي ما لا يجوز أن يفارقه (عبد النّبي بن عبد الرّسول الأحمد نكري، دستوّر العلماء، جامع العلوم في اصطلاَحات الفنون، تعريب: حسن هاني فحص، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م، 112/ 3).

الأمر ذلك؛ فإنّ للأفكار لوازم ظاهرة وخفيّة[1]. ولا يلزم للإقرار بها أن ترِد صريحة في كتاب مقدّس أو على ألسنة معصومين؛ وإنّما يكفي أن يكون اللّازم غير قابل للانفكاكِ عن ملزومه الإلحاديّ عقلًا.

ونحن نؤيّد لزوم هذه الأفكار للإلحاد بأن ننقل أقوال داوكنز وهاريس[2] وروزنبرج ومايكل روس[3] وقبلهم نيتشه وشوبنهاور... وغيرهم من أعلام الإلحاد الذين يُقِرُّون أنّ الإلحاد مقترِنٌ ضرورةً بمواقفَ واضحةٍ من الكون والإنسانِ والحياة.. ووَجْهُ إيرادها في هذا الكتاب لا لمحض ورودها في كتابات ملاحدةٍ مشهورين، وإنّما لأنّ هؤلاء قدَّمُوا الرَّابط المنطقيَّ بين الإلحاد وما ألزم به هذا الكتابُ الملحدَ من لوازم. إنّنا نقول مع روزنبرج -مثلًا- إنّ الداروينيّة «حِمضٌ كونيّ يذيب كلّ الحجج المتاحة التي يستند إليها الناس للإيمان بالقيم التي يعتزّون بها»[4]، فالداروينية تقتضي العدميّة القِيميّة، ونوافقه تأكيده أنّ هناك من الملاحدة من يخاف من الداروينيّة بسبب لوازمها؛ فيضطر إلى التعامي عن هذه اللوازم.

---

(1) اللازم قد يكون غير بيّن أو بيّن

- اللازم غير البيّن: ما يحتاج فيه اللُّزوم إلى دليلٍ لِيُدركَ العقل لزوم اللازم للملزوم. ومثاله إثبات أنّ كَوْنَنَا مخلوقٌ بعد عَدَمٍ؛ فإنّ هذا الأمر يحتاجُ دليلًا من العقل أو العلم
- اللازم البيّن: وهو على صنفين، لازم بيّن بالمعنى الأخصّ ولازم بيّن بالمعنى الأعمّ:
- اللازم البيّن بالمعنى الأخصّ: هو الذي يكفي أن تتصّور فيه الملزوم حتّى تتصّور لازمه؛ مثل لزومِ البُنُوَّة للأُبُوَّة؛ فإنّك إذا تصوّرتَ الأُبُوَّة؛ عَلِمْتَ أنّه يلزم منها وجود بنوّة
- ولازِم بيّن بالمعنى الأعمّ: وهو ما تحتاج فيه إلى تصوّر الشيء وتصوّر لازِمِهِ، والنسبة بينهما؛ أي أَنَّ الذِّهن يحتاج في الجزم باللُّزوم بين الشيء ولازمه إلى استحضارهما معًا. مثل قابلية الإنسان للتعلّم والكتابة؛ فإنّ تصوّرنا للإنسان وَحْده لا يكفي ليقع في ذهننا ضرورةً أمر قابليّتِهِ للتعلُّم، ولكن إذا تصوّرنا الإنسان وتصوّرنا القابلية للتعلّم، جَزَمْنَا بالتَّلازم بينهما. (انظر القرافيّ، العقد المنظوم في الخصوص والعموم، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، 2001، ص 86-85).

(2) سام هاريس Sam Harris (1967): عالم أعصابٍ أمريكيّ. له اهتمام خاصٌّ بعلاقة علم الأعصاب بالوعي والأَخْلاق. نال شعبيَّةً كبيرةً بعد نشره كتابه: «نهاية الإيمان».

(3) مايكل روس Michael Ruse (1940): فيلسوفُ علومِ (بيولوجيا) بارزٌ. له عنايةٌ خاصّةٌ بالعلاقة بين الإيمان والعلم، وجدل الخلق والتطوّر.

(4) Tamler Sommers and Alex Rosenberg, ‘Darwin’s nihilistic idea: evolution and the meaninglessness of life’, *Biology and Philosophy* 18: 653–668, 2003, p.654.

ومن شاء أن يتفلَّتَ من لوازم الإلحاد؛ فعليه أن يثبتَ فساد التلازم بين أصول الإلحاد، ومقدّماته من جِهةٍ، وما ينسبه إليه رؤوس الإلحاد من جهة أُخرى؛ فذاك هو الطريق الوحيد المعقول للبراءة من هذه اللوازم. وقد سعى هذا الكتاب لقطع الطريق على الفارِّ من هذه الحقيقة؛ ببيانه كلّ مرّة وجه لزوم تبني مقولات هؤلاء الملاحدة.

والكتاب بذلك قائم على:

1. شرح حقيقة الإلحاد.
2. بيان ما يلزم عن حقيقة الإلحاد.
3. ذكر اعترافات أئمة الإلحاد بهذه اللوازم.

لقد أردنا لهذا الكتاب أن يكون مرآةً يرى فيها الملحد بشاعة ما يدعو إليه بعيدًا عن شعارات التجميل التي يَصْبِغُها الملاحدة على عقيدتهم.. وإذا كان الإلحاد يرفع شعار: مواجهة الحقيقة -بشجاعة- مهما كانت؛ للخروج من وصاية «الخُرافة» التي هَيْمَنَتْ على الوعي البشري، فإنّنا نحن في المقابل ندعو الملحد أن يتحلّى بالشجاعة؛ لمواجهة حقيقة الإلحاد كما هي.

هذه رسالتي انتصافًا للحقيقة، وبراءةً من الوَهْم...

ربِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي!

ربِّ اغفر لي حظّ النفس من هذا الكتاب!

الإنسان.. ذلك الحيوان

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ ﴾ (الأعراف/ 179)

«تتناقـضُ النظريّـة التطوريّة مع فِكرة أنّ سُـكّان هـذا الكوكب من الممكن تقسيمهم إلى بَشَرٍ وحيوانات»[1].

عالم النَّفْسِ الملحد

ستيف ستيوارت ويليامز

(1) Steve Stewart-Williams, *Darwin, God and the Meaning of Life* (Cambridge: Cambridge University Press, 2010), p.161

الإسلام والإنسان

ما الإنسان في القرآن؟

إنّه ذلك الكائن المصطفى الذي اختاره الربّ -سبحانه- لتكون الأرضُ مُسَخَّرةً له، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء/ 70)، وسخّر له سبحانه السماء أيضًا. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴿٢٠﴾﴾ (سورة لقمان/ 20)، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (سورة الأنعام/ 97).

إنّه المخلوق الذي خلق الله له الأرض والسماء لِتُذَلِّلَ طريقَهُ إلى الإيمان بما فيهما من آياتٍ على البديعِ العظيم: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ (سورة الجاثية/ 3-5).

هو العبد الذي أَسْجَدَ له ربُّه الملائكةَ تكريمًا له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ (سورة الأعراف/ 11).

هو الذي جعله الربّ على صورةٍ سويّةٍ مستقيمةٍ في أَصْلِ النَّشأة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (التِّين / 4).

هو الذي رَزَقَهُ بارِئُهُ فضيلةَ اللِّسان المعبّر عن مقاصده: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ (الرّحمن/ 1-4).

هو الذي عظَّمَ الرَّبُّ دَمَهُ، فعظّم حياته، وحرّم قَتْلَهُ بغير حقٍّ، قال تعالى: ﴿مِنْ

أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (سورة المائدة/ 32).

إنّه الكائِنُ الذي أَوْرَثَهُ ربُّه من النّعم ما لا سبيل لِعَدِّهِ، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴿١٨﴾﴾ (النَّحْل/ 18).

هو الذي وَعَدَهُ ربُّه الجنّة؛ جزاءَ إحسانِهِ في اختبار الدُّنيا، قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل/ 97).

الإنسان في الإسلام، فَرْدٌ بين الكائنات، جعله الله فوق كلّ المخلوقات على الأرض، وكَرَّمَهُ بما لم يُكرّم به مخلوقًا. قال ابن القيم في حديثه عن الإنسان (المؤمن): «فالدنيا قَرْيَة، وَالْمُؤمن رئيسها، وَالْكل مَشْغُول بِهِ، ساع فِي مَصَالِحه. وَالْكل قد أُقيم فِي خدمته وحوائجه. فالملائكة الَّذين هم حَملَة عرش الرَّحْمَن وَمن حوله يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ. وَالْمَلَائِكَة الموكلون بِهِ، يَحْفَظُونَهُ. والموكّلون بالقطر والنبات يسعون فِي رزقه، ويعملون فِيهِ. والأفلاك سُخّرت منقادة، دَائِرَة بِمَا فِيهِ مَصَالِحه. وَالشَّمْس وَالْقَمَر والنجوم مسخّرات، جاريات بِحِسَاب أزمنته وأوقاته، وَإِصْلَاح رواتب أقواته. والعالم الجويّ مسخّر لَهُ برياحه، وهوائه، وسحابه، وطيره، وَمَا أُودع فِيهِ. والعالم السفلي كُلّه مسخّر لَهُ، مَخْلُوق لمصالحه؛ أرضه، وجباله، وبحاره، وأنهاره، وأشجاره، وثماره، ونباته، وحيوانه، وكلّ مَا فِيه»[1].

فهل الإنسان في الرؤية الكونيّة الإلحاديّة منعّم ذاك النعيم؟ أم هو فوق ذلك أم دون ذلك؟

(1) ابن القيم، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.)، 263/ 1.

ثورة الإلحاد لردّ الإنسان إلى البهيميّة

ما إلحاد القرنين العشرين والواحد والعشرين؟

إنّه ذاك الصُّراخ الصَّاحب والحَفْد السَّريع لإثبات أنّ الإنسان بهيمةٌ من البهائم لا تَفْضُلُ النعاج والسِّباع بشيء، وإن تميَّزَتْ عنها جِينيًا، كتميّز القِطَطِ عن الضَّفادع، والكِلاب عن القنافد، والقرود عن الثَّعالب. وليس في ذلك التمايز فاضلٌ ومفضولٌ، ولا حَسَنٌ ومقبوحٌ؛ لأنّ هذا الاختلافَ، كَمِّيٌّ، لا تَعَلُّقَ له بالفضائل القِيميّة؛ فهو لا يرفع الخير فوق الشرِّ، ولا يَسْتَحْسِنُ الحقَّ دون الباطل. وقد ألغى الإلحادُ -بذلك- الفارق بين الوحشيّة والأخلاق المدنيّة، والعقل والجنون..

لقد ترك الملاحدة للداروينيّة صياغةَ صورةِ حقيقةِ الإنسان وصناعةِ مراحلِ تاريخِهِ؛ وهو أمرٌ يَظْهَرُ بوضوح في جميع أدبيّاتهم عند مناقشة قضايا نظريّةِ المعرفةِ، والقيم، ومعنى الحياة. والفكاك عن ذلك -إلحاديًا- مُحالٌ؛ لأنّ رفض الداروينيّة، أو أيّ صورة أخرى من صور التطوّر العشوائي للكائنات الحيّة؛ حُجّة للتدخُّل فوق الطبيعيّ (=الإلهيّ) في هذا العالم، وذاك ما يرفضه الملاحدة قاطبة؛ فإنّ العِلْم قد أثبت أنّ مستوى تعقيد الكائنات الحيّة بالِغٌ جدًّا، لا يمكن تفسيره بالنُّشوء العفويّ اللَّحظيِّ؛ ولذلك يَفِرُّ الملاحدةُ إلى الخَلْقِ العشوائي التَّدَرُّجِيّ البطيءِ جِدًّا من البسيطِ إلى المعقّدِ.

لقد أَسْقَطَ الإلحادُ الإنسانَ المؤمنَ بالداروينيّةِ من عِزِّ التّكريم الإلهيّ إلى دَرَكِ الحيوانيّة بعد أن سَلَبَهُ فضيلتَيْنِ، أُولاهما: أنّ الكون مسخّرٌ له؛ وقد خُلِق الحيوان والنّبات لأجله، وله أن يأخذ منهما لتحقيق بقائِه ما شاء ضمن حدودٍ تضبطها الشّرائع السَّماوية، وثانيهما: أنّه مخلوق بزينة العقل؛ فهو بعقله يرتقي فوق جميع الحيوانات ليكون الكائن الأرضيّ الوحيد المخلوق لينحت طريقَهُ في الحياة عن إرادةٍ حُرَّةٍ ووَعْيٍ، لا عن غريزةٍ جبريّةٍ قاهرةٍ..

لقد أضحى الإنسان -في الرؤية الإلحاديّة- جزءًا من الطبيعة، لا يَفْضُل غيرَهُ بشيء؛ فكلُّ الأحياء على الأرض أَثَرٌ لأخطاءِ النَّسْخِ في الشّريط الصّبغيّ داخل الخلية، فلا تَمَايُزَ، ولا تَفَاضُلَ، ولا قيمة ترفع وتخفض... **كلُّ العالم الماديِّ الحيّ طفيليٌّ على الأرض**، لم يُسْتَدْعَ وجودُه، وإنّما تسلّل عن طريق الحركة العمياء للتَّناسخ الحيويّ. إنّ الطبيعة التي تحيط به لم تُخلَقْ له -كما هو مُعْتَقَدُ المؤمنين بالقرآن-، وإنّما تطوَّرَ الإنسانُ ليوافق بناء الطبيعة. وإن كان لأحدهما فَضْلٌ؛ فليكُنْ هو فضلُ الطّبيعة التي أَنْشَأَتْهُ، وأَخْضَعَتْهُ لها ضمن سُنّة الانتخاب الطبيعيّ.

والعجب أنّ من الكُتّاب الملاحدة من ينتصر للمقام الخاصّ للإنسان في المملكة الحيوانيّة؛ من باب حقّ الإنسان أن يُكرّم بعضُه بعضًا؛ اتّباعًا لغريزة تكافُلِ القَطِيع[1]، مع اعترافه أن ليس للإنسان مقامٌ خاصٌّ في الحقيقة، وإنّما هو سلطانُ القوّة.. وهو قولٌ ينتهي إلى تسويغ العنصريّة بين البشر أنفسِهم؛ لأنَّ البِيْضَ أو الآريّين بإمكانهم أن يُقيموا أخلاقًا عنصريّة بناءً على تميّزهم العِرقيّ أو اللَّونيّ، ضمن ثقافة القَطِيعِ... والحُكْمُ نفسُه يُقال في مَنْ يُسوّغ من الملاحدة الاستعلاءَ فوق الحيوانات لقدرة الإنسان على تدجينها أو الفَتْكِ بها. إنّ كلّ حُكْمٍ يُقال -من الملاحدة الدَّراونة- في الحيوان المستهلك، يُقال مثلُه في الإنسان المستضعَف.

وليس للملحد أن يرفع الإنسان فوق الحيوان؛ بدعوى أنّ الإنسان آخِرُ صورة للتطوّر الحيواني؛ وأنّه بذلك أرقى ممن هو أدنى منه تطوّرًا؛ إذ إنّ هذا الملحد -بهذه الدعوى- لم يفهم معنى «التطوّر» عند البيولوجيّين؛ إذ التطوّر لا يعني التمييز بين الكائنات باعتبار أنّ بعضها أَفْضَلُ قيمة من بعض، أو أرقى من بعض؛ فليس هناك سُلَّمٌ للتفاضل بين الأحياء؛ فالإنسان والخنزير والفأر والسّوس في القيمة سواء، ولا فرق بينهم سوى سَعَةِ حوضهم الجِينيّ، وهو فارق كميّ لا كيفيَّ؛ فالمادّة بذاتها لا ترفع ولا تخفض، ولا تمدح ولا تشين؛ فلا فضيلة لصخرة أمام حجارة صغيرة، أو

(1) R. Nozick, 'About mammals and people,' *New York Times Book Review,* 1983. 11. p. 29

لبحر أمام جدول صغير.. ألا ترى أنّ الفأر المسّمى Red viscacha rat له جينوم يبلغ ضعف جينوم البشر، وأنّ جينوم سمكة marbled lungfish ضعف الجينوم البشري أربعين مرّة.. فهل الفأر أو السمك أعلى من الإنسان قدرًا؟! إنّنا -جينوميًّا- لا نَفْضُل أحدًا من الكائنات؛ لأنّ الكمَّ لا يصنع كرامةً خاصّة وقيمةً متميّزة.

إنّ التطوّر في حقيقته متعلّقٌ بقدرة الكائن الحيّ على التكيُّف مع البيئة، فالحيوان قوي البنيّة، وشديد الذكاء قد ينقرض بسبب تغيّرٍ في المناخ لا يتأهّل معه إلى أن يقاوم البرد بسبب أنّه بلا صُوفٍ، أو لأنّ الكائنات التي يغتذي بها قد انقرضت. وسنّ البشريّة اليوم لا يقارن البتة بالعمر الذي عاشته الديناصورات، والذي امتد أكثر من مئة وخمسين مليون سنة..؛ فهل لو انقرضنا بعد مليون سنة سنكون بذلك أَهْوَنُ قيمةً من الديناصورات أو النَّمْلِ الذي عاش منذ أكثر من مئةٍ وعشرين مليون سنة؟!

وقد دفعت الحقيقة السابقة بعض أنصار الإلحاد إلى مخاتلة أنفسهم بالقول إنّ الكائن الأكثرَ إحساسًا بالألم ووَعْيًا به، يستحقُّ حظًّا من التقدير أكبر؛ فَزَعَمَ داوكنز -مثلًا- أنّ طبيعةَ أنّ الإنسان يتألّم بصورةٍ أعظمَ من بقيّةِ الكائنات تُعطِيه حُرْمةً ليست لبقيّة الأحياء[1]، ويا للصُّدفةِ (!)؛ فإنّ الكائنَ الأكثر إحساسًا بالألم ووَعْيًا به هو الإنسان (الذي ينتمي إلى جنسِهِ هؤلاء الكُتّاب الملاحدة)..

في الحقيقة، تلك محاولة يائسة لاستنقاذِ الجنسِ البَشَرِيّ على لسان أحد أفراده؛ إذ إنّه في عالم بهيميٍّ بصورةٍ كليّة؛ لا إلهَ فيه، ولا عَدْلَ؛ لا معنى لاستنكار إيلام أَحدٍ.. فَلِمَ على الذِّئْبِ أن يحرص على سلامَتِكَ إن علم أنّك تسعى للفَتْكِ به حفاظًا على غَنَمِكَ من «غَدَراتِه»؟!

وما الألم في عالم الملاحدة؟ إنّه رسالة ماديّة تُرْسِلُها الأعصابُ إلى الدّماغِ لتتحوّلَ إلى إحساسٍ مُزعِجٍ لصاحبِه.. فهل للرّسالة العصبيّةِ الكهربيّةِ قيمةٌ -غير وَصْفِها الماديّ- في عالم المادّة الصِّرفة؟!

(1) Richard Dawkins, *The God Delusion* (New York: Houghton Mifflin Harcourt, 2008), p.340

كما أنّ هذه الدَّعوى الإلحاديّة تجعل كُلَّ قَتْلٍ «رحيم!» مُباحًا؛ فتخديرُكَ ضحيَّتَكَ من البشر لِقَتْلِها، أمرٌ مُباحٌ، وأن تقتل مريضًا بالجذام فَقَدَ إحساسَهُ بالألم أو بَعْضَهُ، مُباحٌ، وأنْ تُباغِتَ خَصْمَكَ برصاصةٍ في الرَّأسِ تُزْهِقُ رُوحَهُ في لحظةٍ، مُباحٌ!

ثمّ، هل يقبلُ الملحد أنْ تُبيْدَنَا الفيروساتُ (أو غيرها) إنْ اكتَشَفْنا لاحقًا أنّها أَعْظَمُ منّا إحساسًا بالوَجَع؟! أَمْ تراه سينكِصُ على عَقِبَيْهِ، ويَتَشَبَّثُ بشرعيّةِ استعمالِ المبيدات للتخلُّصِ من خَصْمِه!؟

إنّ الملحدَ عندما يَسْلُبُ الإنسانَ الاصطفاء الإلهيّ، وما يَتْبَعُ ذلك من تسخيرِ عالَم الأحياء له؛ لن يجد حجّة قيميّة لمعارضة قول عالم النّفس الملحد ستيف ويليامز إنّه توجد حُجَجٌ أخلاقيّة كثيرة[1] للقول إنّنا أدنى أنواع الحياة قيمةً؛ وأهمّها أنّ المجازر التي ارتكبها الإنسان في حقّ الإنسان لا نظير لها بين الحيوانات، بالإضافة إلى المقتلة العظيمة التي يرتكبها الإنسان في حقّ الحيوانات كلّ يوم؛ فالحضارة الإنسانية قد قامت على عَرَقِ أبناء أعمامنا الحيوانات ودموعِهِم.

وينقل لنا ويليامز قول إسحاق سنجر[2] -الحائز على جائزة نوبل للآداب- في إحدى قصصه القصيرة: «لقد أقنعوا أنفسهم بأنّ الإنسان - أَسْوَأُ المتعدّين على كلّ الأنواع الحيّة- تاج الخلق. جميع المخلوقات الأخرى خُلِقَتْ فقط لتزويدِه بالطّعام، والجِلْد، وليتِمّ تعذيبُها، وإبادتها. بالنسبة لهذه المخلوقات، كُلُّ البشر نازيُّون»[3].

ويتساءلُ ويليامز، قائلًا: إنّنا نُدِيْنُ أولئك الذين يرتكبون المجازر في تاريخ البشر أنّهم من الأشرار المجرمين؛ فلمَ لا يُخضِعُ الملحدُ الإنسانَ إلى المعيار نفسِه عندما يقتُلُ الإنسانُ إخوَتَهُ الحيواناتِ من خِرْفانٍ وبَقَرٍ ودَجاجٍ...؟!

(1) وإن كان يقول إنّ الأخلاق في نهاية المطاف مجرّدُ اختيارٍ لا أساسَ واقعيّ له في عالمٍ بلا إلهٍ. فلا حجّة أخلاقية لأحد في نهاية المطاف.

(2) إسحاق سنجر Isaac Singer(1902-1991): روائيّ يهوديّ بولنديّ. حصل على جائزة نوبل.

(3) I. B. Singer, *The Séance and Other Stories* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1968), p. 270

ويُؤكِّدُ التُّهمةَ والإدانَة لإخوانه الملاحدة المستسلمين للإلحاد والداروينيّة، بقوله: «في حُكْمِنا على تاريخ البشريّة، نحن نُدين هؤلاء الأفراد الذين يشاركون في الإبادة الجماعيّة. ولكن إذا استخدمنا المعيار نفسه للحكم على القيمة النّسبية للأنواع داخل مملكة الحيوان، يجب علينا أن نستنتج أنّنا -في هذا السّياق- أدنى من جميع الحيوانات الأُخرى»(1).

> عندما يفقد الملحدُ التكريمَ القرآنيَّ الذي يمنحُه فضيلةَ تسخيرِ الأرضِ وما عليها له؛ تصبح علاقته بأبناء عمومته الحيوانات جرائمَ إبادةٍ تتضاءَلُ أمامَها جرائِمُ الصّليبيّين والصّهاينة والنازيّين جميعًا.
> = حياة الإنسان الملحد؛ جريمةٌ أخلاقيّة.

لقد تغيّر كلّ شيء مع انهيار السُلّم الهَرميّ للكائنات لِتَسْتَوِيَ الدَّوابُّ في القيمة والقَدْر. وقد عبّر البيولوجيُّ الداروينيّ جوليان هكسلي(2) عن انحدارِ مفهوم الإنسان مع صعود الفَهْمِ الداروينيّ، بقوله: «لقد تَقَلَّصَتْ الفجوة بين الإنسان والحيوان، لا من خلال المبالَغة في إصباغ الصّفات الإنسانية على الحيوانات، وإنّما عن طريق تقليصِ الصّفات الإنسانيّة للبَشَرِ»(3). لم يَبْقَ الإنسانُ بعد الداروينيّة كما كان، وإنْ بَقِيَت الحيوانات على حالها الأَوَّلِ.. لقد خَسَفَ الإلحادُ بالإنسان الأَرضَ؛ فاسْتَوَت الكائناتُ الحيّة قَدْرًا.

وكان داروين مُدْرِكًا للمأساة، مبكِّرًا؛ فقال في الفصل الخاصّ بالمقارنة بين

(1) Steve Stewart-Williams, *Darwin God and the Meaning of Life*, p.184

(2) جوليان هكسلي Julian Huxley (1887-1975): بيولوجي تطوّري وفيلسوف بريطاني. أَثَّرَتْ كتاباتُه بصورة واسعةٍ في دراسات البيولوجيا في أيّامِه.

(3) Julian Huxley, *Man in the Modern World* (New York: New American Library, 1944), p.8

القُوى العقليّة للإنسان والحيوانات الدُّنيا في كتابه «أَصْلُ الإنسان»: «غَرَضِي في هذا الفصل هو توضيح أَنَّهُ لا يوجد فرقٌ جوهريٌّ بين الإنسان والثّدْيِيَّاتِ العُليا في مَلَكاتهم العقليّة»[1]. وهو ما عَبَّرَ عنه أرنست هيكل[2] بقوله: «لا توجد بين الرُّوحِ الحيوانيّةِ الأكثر تطوّرًا وروح الإنسان الأقلّ تطوّرًا سوى اختلافاتٍ كميّةٍ صغيرةٍ، ولكن لا يوجد أيّ اختلافٍ نوعيٍّ»[3].

للأَسَفِ، فشلَ الإنسانُ الملحدُ في أن يكون وفيًّا للفكرة المركزيّة في رؤيته الأخلاقيّة، وهي أنّه والحيوان سواءٌ، قيمةً وقَدْرًا.. ولو أنّه التزمَ التَّساوي مع أخيهِ -أو ابن عمّه - البهيمة؛ فستتغيّر نَظْرَتُه القديمة إلى كلّ شيءٍ، وسيُنْظَرُ إلى التخصُّصات الأكاديميّة مثل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا باعتبارها من فروع علم الحيوان، وسيُنْظَرُ إلى الأَطِبَّاء على أنهم بياطرة، وسيتِمُّ النَّظَرُ إلى حقوقِ الإنسان على أنها فرعٌ عن حقوق الحيوان؛ وسيُنْظَرُ إلى التَّنْشِئَةِ الاجتماعيَّةِ للأطفال كمثالٍ على تدجين الحيوانات...[4]

وعندما يُرَدّ الإنسان إلى مرتبةٍ دونٍ، مع الظِّباءِ والضِّباعِ والضَّفادعِ؛ يُصبحُ الانتصار لحقّه في الحياة، وتجريم إذايَتِهِ، وتحريم مَسِّهِ بسوءٍ، وإنكارِ طَمْسِ حُقوقِه؛ بلا سندٍ، ولا حُجّةٍ؛ لأنّنا سنُرَدّ إلى الغابة حيث يرتَعُ الجميع كما يشاؤُون.. وما القَتْلُ والنَّهْشُ غير طَلَبٍ طبيعيٍّ للحياة، وإن تناثَرَتِ الأَشْلاءُ مُزَعًا وثَعَبَتِ الدِّماءُ مدرارًا.

ويظهر الموقف الإلحادي من الإنسان حين يفقد تميّزه، ويُسلب كرامته -بصورة متكرّرة على وسائل الإعلام- عند الحديث عن إجهاضِ الأَجِنَّةِ، وقَتْلِ المعوّقين

(1) Charles Darwin, *The Descent of Man* (London: J. Murray, 1891), 1/99

(2) أرنست هيكل Ernst Haeckel (1834-1919): عالم حيواناتٍ وفيلسوفٌ ألمانيٌّ معروف. من أهم المدافعين المبكّرين عن الداروينية في ألمانيا.

(3) Cited in: Richard Weikart, *From Darwin to Hitler, Evolutionary Ethics, Eugenics, and Racism in Germany* (New York: Palgrave Macmillan, 2006), p.90

(4) Steve Stewart-Williams, *Darwin God and the Meaning of Life*, p.155

ذِهْنيًا. فقد نشرَ -مثلًا- الفيلسوفُ الأستراليُّ الملحد بيتر سنجر[1] سنة 1983 مقالًا تحت عنوان: «قُدْسِيَّة الحياةِ أَمْ نوعيَّة الحياة؟»، وفيه أَكَّد أنه لا يوجد حَرَجٌ أخلاقيٌّ في التخلّص من الأطفال الرُّضَّعِ الذين يعانون من التخلُّف العقليِّ أو مُشكلات النُّموِّ الأُخرى مثل متلازمة داون. وناقشَ في مقالتِه قُدْسيّة الحياة البشرية، مُنتصِرًا لدعوى أنّ حياة بعض الحيوانات أكثرُ قيمةً من حياة الأطفالِ المتخلِّفين عقليًا.

ومما قاله: «إذا قارنَّا -على سبيل المثال- طِفْلاً بشريًا به عيبٌ شديدٌ مع حيوانٍ غيرِ إنسانيٍّ أو كَلْبٍ أو خنزير؛ سنجد غالبًا أنّ الكائن غير الإنسانيّ لديه قدرات متفوّقة -ظاهرة أو كامنة- في باب العقل أو الوعي أو التّواصل أو أيّ شيء آخر يمكن اعتباره مهمًا»[2]. وهو بذلك يستخرج خلاصة الداروينية حين تُصبغ بصبغة إلحاديّة؛ حيث تنتهي كرامة الحياة الإنسانية إلى أن تصير محض وَهْم.

وذاك يظهر أيضًا في قول ستيف ويليامز إنّه من الناحية الإنسانيّة، الأفضل أن يكون الطّفل الذي يُعاني مرض Anencephaly (أي: عدم وجودِ جزءٍ كبير من الدّماغ) محلّ التجارب العلميّة من أن يكون قردًا ذكيًا أو فأرًا سليمًا محلّ هذه التجارب؛ لأنّ هذا الطفل (وليس الحديث هنا عن الأجنّة) لا يشعر بالألم..[3]

وهي الدّعوى عينها التي أعلنها الفيلسوف الأمريكيّ الملحد جيمس ريتشالز في كتابه «خُلِق من حيوانات: اللوازم الأخلاقية للداروينية»[4].. وعنوان الكتاب كاف في بيان استحضار المؤلّف للوازم الداروينية عند حديثه عن قيمة الإنسان. فقد كتب قائلًا: «بعض البشر غير المحظوظين -ربما لأنهم عانوا من تلف في الدّماغ - ليسوا كائنات عاقلة. ماذا نقول عنهم؟ الاستنتاج الطبيعيّ، وفقًا للعقيدة التي ندرسها، هو

(1) بيتر سنجر Peter Singer (1946): فيلسوف أخلاق أسترالي شهير. درّس أخلاقيات البيولوجيا في جامعة برنستون.

(2) Peter Singer, ‘Sanctity of Life or Quality of Life?’, *Pediatrics* July 1983, 72 (1) 128-129

(3) Steve Stewart-Williams, Darwin, *God and the Meaning of Life*, p.276

(4) James Rachels, *Created from Animals: The Moral Implications of Darwinism*, Oxford; New York: Oxford University Press, 1990

أنهم مجرّد حيوانات. وربما ينبغي علينا أن نستنتج أنه من الممكن استخدامهم كما تُستخدم الحيوانات غير البشرية - ربما -كمواد معمليّة أو كغذاء»[1].

إنّ ما كتبه الفيلسوف الأستراليّ الملحد بيتر سنجر، وعالم النفس الملحد ويليامز، والفيلسوف الملحد ريتشالز، حقيقة لا يملك ملحد أن يفرّ منها؛ فما الإنسان سوى خَلَفٌ متأخّر مُنْتَسَلٌ من حيوانات صارعَتْ لأجل البقاء ومقاوَمَة عوامل الانقراض والفناء؛ فقد كان الإنسان سمكة، وانتهى إلى أن يكون من جنس القِرَدة الجنوبية Australopithecus قبل أن يتطّور إلى جنس «الإنسان العاقل»؛ فما الفرق بين جَنِيْنِ السمكة وسمكة وليدة؟! وما الفرق بين سمكة سليمة وأخرى عليلة؟! ولماذا علينا أن نُميّز بين أجنّة البشر في الأرحام والرُّضَّع المواليد، أو بين الأَصِحّاء ومن أَنْهَكَتْهُم العِلل؛ فأَقْعَدَتهم عن التفكير أو العمل؟!

وإنّي وإن كنتُ أُكْبِرُ في سنجر -وشيعَتِه- جُرْأَتَهُ على محاولة السير مع الداروينية الإلحادية[2] إلى حيث تقوده، بردّ الإنسان إلى البهيميّة الصِّرفة، وسَلْبِه فضيلةَ الكرامة التي أسبغها عليه الإسلام، وإنكاره أن يكون الإنسان أفضل من البهيمة في عبارته الإنكارية: «لماذا يجب أن نعتقد أنّ مجرد انتماء كائن ما إلى الجنس البشري، يمنح الإنسان العاقل بعض القيم الفريدة التي لا حصر لها تقريبًا؟»، إلّا أنّني أَتَّهِمُهُ بالجُبْنِ الذي مَنَعَهُ من أن يسير إلى آخر الطريق؛ فإنّ آخر طريقِ الداروينية الإلحادية أن يكون الإنسان السّليم والعليل سواء، بلا قيمة، ولا كرامة.. وأنّ حياة البعوضة كحياة الإنسان، لا يتفاضلان بشيء، والفرق الوحيد هو قدرتنا على قتل البعوض لأننا أقوى.

يدعو سنجر في مقالاته أن يُسمح للآباء أن يختاروا قتل أولادهم أو استحياءهم -إن كانوا معوّقين- على مدى الأسبوع الأول أو الشهر الأوّل بعد الميلاد. وهو بذلك

---

(1) James Rachels, *Created from Animals*, p.186.

(2) الداروينية نظرية في أصل الأنواع بعد ظهور الحياة، ولا علاقة لها بإنكار وجود الله، ولذلك لم يلحد داروين ولا كثير من أنصار الداروينية. ومع ذلك فالإيمان بالداروينية ضروريّ حتّى يكون المرء ملحدًا؛ لأنّه إن لم يؤمن بالتفسير العشوائي لظاهرة الحياة المعقدة وظيفيًا، لَزِمَهُ الإيمان بمعجزة الخلق.

يتركنا في حيرة من أمر «تَضْيِيْقِهِ» فُسْحة الزّمن التي يُباح فيها قَتْلُ الذريّة؛ إذ إنّنا -على الفهم الإلحادي الدارويني- لا نجد فارقًا جوهريًا بين قتل رضيع له من السنّ شهرٌ، وقتل وليدٍ له من السنّ سنة أو سنتان أو ثلاث... هو في آخر الأَمْرِ قَتْلٌ لوليد..!

حقُّ البقاء يجب أن يُردَّ إذن -في عالم القوّة لا عالم القيمة؛ إذ لا قيمة في الحياة لشيء- إلى مَلَكات تحقيق البقاء، فالكائن البشريّ الذي يُشكّل عِبئًا على والِدَيْهِ؛ «يستحقُّ» الموت؛ ليترك مكانه -في عالَمٍ موارِدُهُ محدودة- لكائنٍ آخرَ أكثر فائدة، ولو كان قردًا أو بغلًا يمتار الناس عليه.

والإنسان إذا شاخ، وصارت حياتُه كَلًّا على غيره، أو بلا قدرة على استطعام لذاذات الحياة؛ فلا معنى لحياته؛ لأنّ الإنسان بهيمة تكتسب الحياة عندَهُ قيمتَها باعتصار الـمُتَعِ وجمع الرّضاب؛ وقتلُه حينها تَطَهُّرٌ للأرض من طفيليّ، وإراحةٌ لهذه البهيمة من حياة بلا مُتَع. إنّه قتلٌ رحيمٌ؛ لأنّه يُخْمِدُ أنفاسًا حيوانيّة لا معنى لوجودها إذا لم تجنِ سعادة آنيّة عاجلة تملأ البطن أو تروي العروق.

يقول داوكنز -المتشبّث بحرارة بوجوب التخلّص من العجَزَة المسنّين المتألّمين-: «لو كان حيوانُك الأليف يتألّم مُحتضرًا، فَسَيَتِمُّ اتِّهامُكَ بقسوة القلب، إذا لم تأخذه إلى البيطريّ ليعطيه مخدّرًا عامًّا لا يستقيظ بعده أبدًا. لكن عندما يمارس طبيبُكَ العمليّة الرحيمة نفسها عليك وأنت تعاني آلام الموت، فهو يخاطر بذلك بأن يصبح ملاحقًا بتهمة القتل. عندما سأشرفُ على الموت، فإنّي أرغبُ أن تُطفأ حياتي تحت المخدّر العام، تمامًا كما لو كانت زائدةً دوديّة ملتهِبة. لكنْ مَنْ ذا الذي له مثل هذا الحظّ؟ إنّ حظّي العاثر جعلني عضوًا في جنس «الإنسان»[1].

ذاك هو الإنسان المتطوّر عن «القردة الجنوبيّة»، والذي ينتهي حاله إلى أن يكون وَرمًا في هذه الحياة يحتاج استئصالًا. وقد وضّح نك كمب في كتابه «التسريح الرحيم:

(1) Dawkins, *The God Delusion*, p.400

تاريخ حركة القتل الرحيم في بريطانيا»[1]، ودوبجن[2] في كتابه «النهاية الرحيمة: حركة القتل الرحيم في أمريكا المعاصرة»، الدور المركزي للداروينيّة في تأسيس تيّار القتل الرحيم ودعمه أيديولوجيًا. فكتب دوبجن قائلًا: «نقطة التحوّل الأكثر محوريّة في التاريخ المبكر لحركة القتل الرّحيم هي دخول الداروينية أمريكا»[3].

> «حقيقة أن يكون المرء بَشَرًا، بمعنى انتمائه إلى فصيلة الإنسان العاقل، لا علاقة لها بتخطئة قَتْلِه؛ وإنّما خصائص مثل العقلانية والاستقلالية، والوعي الذاتي، هي التي تُحْدِثُ فرقًا. الرُّضَّعُ يفتقرون إلى تلك الخصائص؛ ولذلك لا تجوز مساواة قَتْلِهم بقتل البشر العاديّين، أو أيّ كائناتٍ واعيةٍ أُخرى»[4]. بيتر سنجر.

الأمر في الحقيقة أكبر من قتلِ من يَطْلُبُ قَتْلَهُ ليرتاح من الأمراض؛ فإنّ إلغاء قيمة فرادة الإنسان ترفع التثريب عن الإنسان أن يقتل إنسانًا آخرًا ليحقّق بقاءه هو، كما أنّه لا تثريب على قرد أن يقتل قردًا، أو أن يلتهمَ ضبعٌ ضبعًا آخر.. عندما ينتهي مفهوم التفاضل بين الكائنات، وتَرُدُّنا الداروينيّة إلى أصلنا الأوّل الغابي، وترفع عنّا أثواب التجمُّل بدعوى التميّز؛ سنضطرُّ عندها أن ننغمِسَ في لغة الغابِ -إن أردنا أن نعيش بروح العفويّة؛ حيث لا سلطان إلّا للأنياب المتشبّثة بالبقاء على حساب الأشلاء والدّماء-.

وقد كان داروين مُدرِكًا لذلك؛ وهو ما دفعه إلى أن يتنبّأ أنّه في المستقبل غير البعيد، سيعمل العِرْقُ البشريّ المتحضّر على إبادة الأعراق الهمجيّة. وخصَّ الأمر

(1) *Merciful Release*: *The History of the British Euthanasia Movement* (Manchester: Manchester Univ. Press, 2002)

(2) أيان دوبجن Ian Dowbiggin (1952): أستاذ التاريخ في جامعة University of Prince Edward Island

(3) Ian Dowbiggin, *A Merciful End: The Euthanasia Movement in Modern America* (Oxford: Oxford University Press, 2003), p.8

(4) Peter Singer, Practical Ethics (Cambridge: Cambridge University Press, 1993), p.182

بإبادة الأعراقِ القوقازيّةِ للأتراكِ[1] الجوعى[2].

ودخل هذا النَّفَسُ البهيميُّ الغابيُّ عالم الأكاديميا، وإنْ حاول الاستمرار في التخفّي والتستّر؛ فَرَقًا من استفزاز فطرة النّاس. ومن ذلك ما قَصَّهُ لنا (فورست ميمز III) – رئيس قسم العلوم البيئية في أكاديمية تكساس للعلوم؛ إذ أخبرنا في مقالة له[3] أنّه في الاجتماع 109 لأكاديمية تكساس للعلوم المنعقد في جامعة لمار، ألقى عالم البيئة التطوّريّ الدكتور إريك ر. بيانكا –الذي كرَّمَتْهُ جامعة تكساس سنة 2006 تكريمًا خاصًّا لجهوده العلميّة– محاضرةً حَضَرَها 400 شخص، وقد بدأ محاضرته بتحذير السَّامعين أنّ محاضرته قد تكون صادمةً لهم.

خلاصة المحاضرة تأكيد الدكتور بيانكا أنّ الإنسان لا يَفْضُلُ البكتيريا في شيء، وأنّ الإنسان لا يستحِقُّ أيَّ مقامٍ خاصٍّ في عالم الأحياء. ثم انتقل بعد ذلك في محاضرته لبيان أنّه من الناحية البيئية، نحن نحتاج إلى إبادة 90 ٪ من البشر؛ لأنّ موارد الأرض لا تكفي إلّا 10 ٪ منهم، واقترح لإنجاح المجزرة نشر فيروس إيبولا في الجوِّ؛ فهو قاتلٌ ويُؤدِّي مهمّته في أيام قلائل!

وقد أثار مقالُ ميمز لَغَطًا، واتُّهم أنّه قد حرَّفَ مضمون محاضرة بيانكا، وكأنّ ما قيل في المحاضرة مُنْكرٌ من القول ضمن الفهم الإلحاديّ. وبعيدًا عن أنّ هناك من الدكاترة الحاضرين من أَيَّدَ ما نَشَرَهُ ميمز، ودفع عنه تهمةَ تحريف مضمون المحاضرة[4]، يبدو أَمْرُ مقارنةِ إبادةِ عامّةِ البشرِ لأجل الحفاظ على الموارد الطبيعية بإبادةِ عامّةِ البكتيريا إذا شكَّلَتْ تهديدًا لفساد هذه الموارد؛ موفّقًا؛ إذ لا فرق بينهما؛

(1) الأتراك=المسلمون في العرف اللُّغويّ للقرن التاسع عشر!

(2) Charles Darwin, Letter to William Graham, 3 July 1881
< https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-13230.xml>

(3) See Forrest M. Mims III, Meeting Doctor Doom
< http://ac.matra.free.fr/FB/DocDoom.htm >

(4) William Dembski, Mims Gets Pianka Right According to Kenneth Summy, *Uncommon Descent*
< https://uncommondescent.com/intelligent-design/mims-gets-pianka-right-according-to-kenneth-summy/>

فنحن هنا أمام إبادة جماعة من الأحياء لأجل قلّةٍ منهم، والاختلاف الجينيُّ بينهما ليس أصلًا لأيّ أفضليّةٍ، وما تسلّط البشر على البكتيريا إلّا لأنّهم أقوى منها، وكذلك لا يتسلّط ٪10 من البشر لإبادة البقية إلّا بعد أن يكونوا قد ضمنوا لأنفسهم أنّهم أقوى، وفي حصانةٍ من الانتقام.. هي لغةُ الغابِ وحدَها تتكلَّمُ بهذرمةٍ وصلَفٍ، وتَحْكُمُ بعنجهيّةٍ لا تعرف الوَجَلَ..!

ومن لوازم القولِ بحَيْوَنَةِ الإنسان، النَّظَرُ إلى الإنسان أنّه كَمٌّ من اللَّحْم والعَظْم والأعصاب، وأنّ مواهِبَهُ كلَّها أصلُها كَمِّيٌّ؛ فإذا عَدَّلْتَ في بعض بِنْيَتِهِ؛ حسَّنْتَ نَسْلَهُ، وارتقَيْتَ به في باب التكيُّفِ مع الطبيعة.. وهي الدّعوى التي تحمَّسَ لها النازيُّون، ودافع عنها داوكنز في تغريدةٍ أصدرها قريبًا، ذكَرَ فيها أنّه بعيدًا عن الجانب القيميّ لمسألة علم تحسين النَّسْل (Eugenics)، فإنّه بالإمكان تطبيق علم تحسين النسل على الإنسان.. وقد أثارتْ عليه هذه التغريدة الناسَ في الغرب؛ لارتباطها بالنّظرة العنصريّة للبشر، وما تنتهي إليه من تحقيرِ أُممٍ ورفْعِ أُخرى، وإلغاء مفهوم الطبيعة الإنسانيّة الخاصّة التي يكتسبها الإنسان بفكرِهِ وعاطفتِهِ وخُلُقِه..



Richard Dawkins @Richard... · 26m

It’s one thing to deplore eugenics on ideological, political, moral grounds. It’s quite another to conclude that it wouldn’t work in practice. Of course it would. It works for cows, horses, pigs, dogs & roses. Why on earth wouldn’t it work for humans? Facts ignore ideology.

159 84 527

إنّ ضحايا قداسةِ معياريّة الطبيعة وقانون الانتخاب الطبيعيّ، كُلُّ ضعيفٌ في عالم غرباله يُسقِطُ العَجَزَةَ ومَنْ لا زَبْرَ له. ومن هؤلاء الضّعاف، المرأةُ؛ إذ يكشِفُ لنا تَتَبُّعُ الداروينيّة في موقفها من المرأة، أنّ المرأة بهيمةٌ أدنى من الرّجل البهيمة؛ فقد كتب داروين سنة 1838 -قبل زواجِه بسنة- إنَّ المرأة «شيءٌ يُحَبُّ ويُلْعَبُ معه- وهو أفضل من كَلْبٍ على كلِّ حالٍ»[1]. ولذلك كتب جون ديورنت أَنَّ المرأة -عند داروين- أقلُّ بكثيرٍ من مَرْتَبَةِ الرَّجُلِ، خاصة عند الحديث عن الصّراع من أجل البقاء؛ إذْ وَضَعَها داروينُ والأطفالَ المتخلِّفين في درجةٍ واحدة؛ لِضَعْفِ مَلَكَةِ الحَدْسِ والبداهة، وطابع التّقليد الذي يُمثّل الكائنات الدُّنيا[2].

تلك هي الحقيقة.. عندما يصير الإنسان فردًا من أفراد المملكة الحيوانية؛ يُحرَمُ كُلَّ ميزةٍ وفضيلةٍ.. فلا حُرْمة خاصّة للدَّمِ، ولا يُرفَعُ شأنُه فوق أيِّ شيءٍ حيٍّ، كَبُرَ أَمْ صَغُرَ.. وفي غربالِ الانتخاب الطبيعي، يسقط المريض والفقير والطّفل والمرأة، ولا يبقى غيرُ نابِ القوّةِ الأَزْرقِ.

> «المشروع الفكري الغربي [...] ليس كافرًا بالإله وحسب، وإنّما هو كافر بالإنسان أيضًا؛ إذ يعلن موت الإله، ثم موت الإنسان ككائن متميّز عن الطبيعة، وينزع القداسة عن كلّ شيء، ويُنكر المعنى. [...] أصبح الإنسان مركز الكون بسبب تميّزه وتفرّده ووجوده كثغرة في النظام الطبيعي، ووجود الله هو ضمان ألّا تُسدّ هذه الثغرة، وألّا تُصفّى ثنائية الإنسان والطبيعة»[3]. عبد الوهاب المسيري.

(1) "object to be beloved & played with.— —better than a dog anyhow."
<https://www.darwinproject.ac.uk/tags/about-darwin/family-life/darwin-marriage#>

(2) John R. Durant, 'The Ascent of Nature in Darwin's Descent of Man' in *The Darwinian Heritag*e, ed. David Kohn (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985), p. 295

(3) عبد الوهاب المسيري، فقه التحيّز، ضمن: عبد الوهاب المسيري، تحرير، إشكالية التحيز (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1417هـ/ 1996م)، ص 75، 96.

الداروينية الاجتماعية ولغة الغاب؟!

استقرَّ عامّةُ الفلاسفة واللاهوتيّين على مدى تاريخ الفكرِ على إثبات كرامةٍ خاصّةٍ ترفعُ الإنسان فوق مستوى الهوامّ، وتُكسِبُه حصانةً عامّة من الأذى، وتمنَحُه حقوقًا طبيعيّة كثيرة لا يُؤتاها الحيوان... غير أنّ الإنسان فقَد تلك الفضيلة مع ظهور أدبيّات دافيد هيوم[1] وجرمي بنثام[2] ونيتشه[3] ومفكّري ما بعد الحداثة، كفوكو[4] وريتشارد رورتي[5]. وكانت الداروينيّة أبرز من أَسْقَطَ من الإنسان تميّزه، بلسان العلم والتاريخ الطبيعيّ.

ومن العجب أنّ الإنسان الملحد «الـمُحَيْوَن» غافِلٌ عن «حيوانيّته»؛ فهو يَسْلُكُ في الأرضِ حاملًا في صدره قناعات الإسلام أو النصرانية أو اليهودية أنّه كائن له مقامٌ خاصٌّ فوق هوامّ الأرض.. وهذا لا يطابق حال من صَدَقَ في الإيمان بموقف الإلحاد والداروينيّة من الإنسان وقيمتِه!

وقد نعى عالم النفس الملحد ويليامز على جماهير الملاحدة وخواصّهم خيانَتَهم لأصلهم الحيوانيّ، ووقوعَهم في فخّ عقيدة التميّز عن بقيّة الحيوانات؛ فقال: «يقتل النّاس الحيواناتِ غير البشريّة من أجل الغذاء ولجلودها، وأحيانًا للمتعة فقط. نحن نستعبد الحيوانات ونجبرها على العمل من أجلنا. نُجري تجاربنا عليها، ونسوّغ معاناتها من أجل مصلحتنا؛ لأن معظمنا يريد أن يكون قادرًا على اعتبار نفسه

---

(1) دافيد هيوم David Hume (1711-1776): فيلسوف تجريبي ومؤرخ إسكتلندي شهير. اشتهر بنزعته الشكوكية.

(2) جرمي بنثام Jeremy Bentham (1748-1832): فيلسوف وداعية إصلاح إنجليزي مشهور. يُعدُّ مؤسس المدرسة الحديثة النفعية.

(3) فردريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900): فيلسوف ألمانيّ وعالم لغة. كانت كتاباته محطّة فارقة في تاريخ الفلسفة. يعدّه عددٌ من مؤرخي الفلسفة رائد فلسفة ما بعد الحداثة. كان له اهتمام خاص بالمباحث الوجوديّة والأخلاقية والنفسيّة. من أهم مؤلفاته: «هكذا تحدّث زرادشت».

(4) ميشال فوكو Michel Foucault(1926-1984): فيلسوف ومؤرخ أفكار فرنسي. من أعلام فلسفة ما بعد الحداثة. تدور فلسفته على أنّ القوة هي التي تصنع الفكرة.

(5) ريتشارد رورتي Richard Rorty (1931-2007): فيلسوف أمريكي. من أبرز أعلام البراغماتية الحديثة.

شخصًا صالحًا (وربما الأهمّ من ذلك، لأننا نريد للآخرين أن ينظروا إلينا كأشخاص صالحين). وربّما كنّا متحمّسين لرؤية غير البشر بطريقة تجعل هذه الأنشطة أخلاقيًا غير مشكلةٍ. سبيل القيام بذلك هو اعتبار الحيوانات الأخرى مختلفة تمامًا عنا»[1].

وقد نشأت «الداروينية الاجتماعيّة» «Social Darwinism» منذ القرن التاسع عشر لتحقيق الوفاء أخلاقيًا للحقيقة الحيوانيّة للإنسان. وهي تقرّر أنّ على المجتمع أن يخضعَ لمبادئ الداروينيّة، دون حَرَجٍ من اللّوازم الأخلاقية لذلك، والبادية في العنصريّة والإمبرياليّة والحروب... فالمجتمع لا بُدَّ أن تَحْكُمَ علاقاتِه قبضةُ الانتخاب الطبيعيّ، ولا حَقَّ لمن لا يُحسن أن يتكيّف مع المجتمع ماديًا أن يُشارِكَ النَّاس مواردهم الطبيعيّة.

تقوم الداروينيّة الاجتماعيّةُ على أنّ صراع القوّة، والخضوعَ للطبيعة ذات النَّابِ، الطَّريقُ الأوحدُ للتقدّم؛ فالإنسان جزءٌ من الطبيعة، وقوانينُها لا بُدَّ أن تَحْكُمَ كلَّ شيء طبيعيٍّ. والانتخابُ الطبيعيّ ضامنٌ أَلَّا يبقى غيرُ مَنْ يَصْلُحُ للحياة، ويملِكُ القدرةَ على التطوّر. وكُلُّ تَدَخُّلٍ خارجيٍّ حادث لمنع هذا الصراع أو تحريك المجتمع، لا بدّ أن ينتهيَ إلى سَحْقِ التقدُّمِ وتعزيزِ الانتكاسة. وذاك في ذاته حُجّةٌ أخلاقيّة لا بدّ أن تَمْنَعَ الأفرادَ والمؤسساتِ والدّولةَ من التدخُّلِ لوقف الحركة «الطبيعية» للمجتمع.

يقول الفيلسوف هربرت سبنسر[2] -أشهر أعلام الداروينيّة الاجتماعية-: «مساعدةُ السَّيِّئِيْنَ في أن يتكاثروا، هي عمليًا أمرٌ يضمن وجود أعداءٍ كُثُرٍ لِحَفَدَتنا. لا شَكَّ أنّ الإيثار الفرديّ كان جيّدًا جدًا، لكن الصَّدقة المنظّمة كانت لا تُحْتَمَلُ»، مُؤكّدًا أنّ الضَّرَرَ الذي يُصيب أفرادًا من الشَّعب، عمليّةٌ إيجابيّة ليتطهَّرَ المجتمعُ بصورة آليّةٍ من أَرْجاسِه[3].

(1) Steve Stewart-Williams, Darwin, *God and the Meaning of Life*, p.111

(2) هربرت سبنسر Herbert Spencer (1820-1903): فيلسوف وبيولوجي وعالم اجتماع إنجليزي شهير.

(3) Spencer, *The study of sociology* (London: Williams and Norgate, 1874), p. 345

دافع هربرت سبنسر عن الداروينية الاجتماعية باعتبارها سُنّةَ عَمَلِ الوجودِ الحيِّ؛ فإذا كانت الحياةُ تتحرّكُ منذ قرابة أربعة بلايين سنة طبق سُنّةِ بقاء الأكثرِ تكيُّفًا مع البيئة -والذي هو في الأغلب الأقوى-؛ فلمَ علينا أن نتجاوز ذلك في القرون الأخيرة؟! لماذا علينا أن نقطع سُنّة عمل الكون في وجودٍ ماديٍّ لا أخلاقيٍّ بقوانين أخلاقيّة؟!

البقاء للأقوى المتكيّفِ مع البيئة لا يسمَحُ للضّعيفِ أن يعيشَ ليكون عالةً على الطّبيعة؛ ولذلك فإقصاؤُهُ من الوجود، يخدم الطبيعة؛ لأنّه يَسِيرُ مع سُنّةِ عَمَلِها منذ البدء. والإنسانُ مُنْتَجٌ بيئيٌّ بكلّ ما فيه: الحمضُ النووي، والخليّة، والنسيج، والدّماغ، والأخلاق، ولا شيء آخر ينبو عن ذلك.

وقد تَلَقَّفَ النازيُّون فلسفةَ الداروينية الأخلاقيّة؛ وفاءً للفلسفة الماديّة، رغم أنّ النازية لم ترفع شعار الإلحاد عنوانًا لها؛ فكانت أوفى للإلحاد من عامّة الملاحدة. وفي ذلك يقول المؤرخ هيكمان عن هتلر: «كان شديد الإيمان بالتطوُّر وداعيًا إليه... وأشار كتابُه «كفاحي» بوضوحٍ إلى عدد من الأفكار التطوّرية، خاصة تلك التي تؤكد على الصّراع وبقاء الأصلح وإبادة الضّعاف لصناعة مجتمع أفضل»[1].

وقد اجتهد الخطاب النازيُّ في بيان خطورةِ المؤسسات التي تعتني بالضّعاف والعُجَّزِ باعتبارها تسيرُ ضِدَّ حركة الطبيعة، وضد حركة التاريخ وتطوّر الإنسان وتَرَقِّيْهِ ورفاهِهِ. لم تُنْتِج الداروينيّة في حدّ ذاتها إجرام النازية، ولكنْ لم تكنْ لدى النازيّين -دون الداروينيّة- الأُسس العلميّة لتأسيس مذهبهم، والترويج له، واستجلاب الثناء[2].

---

(1) R. Hickman, *Biocreation* (Worthington, OH: Science Press, 1983), pp.-51-52 (Cited in: Phillip Darrell Collins, Paul David Collins, *The Ascendancy of the Scientific Dictatorship,* Charleston: BookSurge, 2006, p.59).

(2) Richard Weikart, *From Darwin to Hitler, Evolutionary Ethics, Eugenics, and Racism in Germany*, p.233.

ولا زلنا إلى اليوم نجني هشيم الداروينية ومقولاتها الوفيّة للماديّة الإلحاديّة في باب الجرائم الدمويّة المروّعة، على خلاف ما يَدَّعيهِ داوكنز من أَنَّ «أفراد الملاحدة من الممكن أن يرتكبوا الشُّرور، ولكنّهم لا يفعلونها باسم الإلحاد»[1]. فتاريخ الدُّول الإلحاديّة كالاتحاد السوفياتيّ وكوريا الشمالية وكمبوديا والصّين مُطَّرِدٌ في شهادته أنّ الحُكْمَ الذي يقوم على إنكار وجود الله وأنّ الحياة مادّة، لا بدّ أن ينتهي إلى مجازرَ مروّعةٍ في حقّ الإنسان. وتاريخ ستالين وبول بوت والحزب الشيوعي الصيني لو لم يكن في تاريخ البشرية غيره لكان وَحْدَهُ أعظمُ إدانةٍ للإلحاد..

والأمر ليس قاصرًا على جرائم الأنظمة المؤَدْلجة إلحاديًا؛ فإنّه يظهر أيضًا على مستوى الأفراد؛ فالقصص شاهدةٌ أنّ من جرائم الملحدين ما كان دافِعُها النظرة الماديّة الداروينيّة. وسنكتفي هنا بذكر ثلاثٍ منها تُظْهِرُ التأثير الإجراميَّ للاعتقاد أنّ البشرَ بهائمُ بلا قيمةٍ، ولا غايةٍ عُلْيا، ولا هدف نبيل في ذاته[2].

القصّة الأولى من كولورادو بأمريكا، وقد حدثت يوم 20 أبريل، 1999م؛ حيث وقعَتْ واحدةٌ من أسوأ المجازر في تاريخ أمريكا؛ إذ أقدم شابّان على قتل 12 طالبًا في المدرسة ومُدَرِّسًا واحدًا، وجرح 23 آخرين، ثم انتحر القاتلان إثر ذلك. وقد كانت خطَّتهما قَتْلَ مئات الضّحايا بأسلحةٍ تمَّ إعدادها لذلك.

وبعد تحريّاتٍ دقيقة، تبيّنَ أنّ جريمةَ الشابَّيْنِ كانت بدافعِ التخلُّصِ من طائفةٍ من الناس يُبْغِضانها؛ تحقيقًا لمبدأ الانتخاب الطبيعيّ. وقد لَبِسَ أحدُ المجرِمَيْنِ يومَ المجزرة قميصًا كُتِبَ عليه: «الانتخابُ الطبيعيّ». وكشفَ التحرّي أنّه كتب في أوراقِهِ «... في يوم ما في أبريل، سأقوم أنا وفلان بالانتقام، وسوف ندفع الانتخاب الطبيعيّ بضع درجاتٍ إلى الأمام».

---

(1) Richard Dawkins, *The God Delusion,* p.278

(2) Kyle Butt, *A Christian's Guide to Refuting Modern Atheism* (Montgomery, AL: Apologetics Press, Inc., 2010), pp.100-104

كما جاء في التحقيقات أنّ أحدَ المجرِمَيْن «تحدَّثَ كثيرًا عن الانتخاب الطبيعيّ. وهو ما دفعه إلى الإعجاب بهتلر والنازيّة و«الحلّ النهائيّ» - أي إنّنا نحن الجنس البشريّ، قد أَوْقَفْنا الانتخاب الطبيعي أو عَرْقَلْناه عن طريق اختراعِ اللّقاحات وأشياءَ من هذا القبيل»!

القصّة الثانية من فنلندا، حيث قام شابٌّ اسمه بِكا إريك أوفنن[1] بقتل سبعة طلبةٍ من مدرستِه، ومُدَرِّسةٍ واحدة، ثم وجّه المسدَّس إلى رأسه، وانتحَرَ. وترك رسالةً على الشبكة العنكبوتية قبل المجزرة، يُخبر فيها عن نفسِه، بقوله: «أنا، بصفتي ممارسًا للانتخاب الطبيعيّ، سأقضي على كلّ من أراه غير لائقٍ ومُخْزٍ للجنس البشريّ، ومُخْفِقٍ في امتحانِ الانتخاب الطّبيعي».

القصّة الثالثة لمجرمٍ وَحْشيٍّ اسمه جفري دامر[2]، قتل 17 رجلًا وصبيًّا، واحتفظَ بأعضائهم في مَسْكَنِه، واعتدى على جُثَثِهم جنسيًّا، وأَكَلَ بعضها. وقد حَكَمَتْ عليه المحكمة بالسَّجْنِ 900 سنة. وفي أثناء إمضائه العقوبة، قَتَلَهُ زميلٌ له في السّجن.

أَجْرَتْ قناةُ (NBC) سنة 1994 لقاءً مع هذا المجرم ووالِدِه. وفيه كشف المجرمُ أنّ إيمانه بالداروينية قد دفعه إلى ما انتهى إليه؛ فقد أخبرَ أنّه بعد أنْ عَلِمَ ما الداروينية واقتنع بها، فَقَدَ قناعَتَهُ أنّ للإنسان قيمة، وأنّ للحياة معنى، وأنّه مُجازًى عن فعله. لقد أدرك دامر اللوازم الضرورية لحيونة الإنسان، بما يقتضي نهاية مفهوم الإنسان، وسُفُولِهِ إلى دَرَكِ البهيميّة.

لسنا نقولُ بعد هذه القصص إنّ على الإنسان -ضمن الفهم الإلحاديّ الدارويني- أن يعيش ضمن نواميس الغابة؛ إذ إنّنا نُنْكِرُ أن يكون الإلحاد أو الداروينيّة قادِرَيْن على منح الإنسان منظومةَ أخلاقٍ إلزاميّة[3]؛ فالداروينيّة تُثْبِتُ أنّ الإنسان حيوانٌ بلا فضيلةٍ

(1) Pekka Eric Auvinen

(2) Jeffrey Dahmer

(3) سنفصّل ذلك في الفصل الخاص بالأخلاق من هذا الكتاب.

كامنةٍ في صدره، ولا تستطيع -مع ذلك- أن تُلْزِمَهُ أن يكون بهيميَّ الأخلاق إن كان يريد أن يسلك في الحياة على خلاف طبيعته الحيوانيّة.. ولكنْ في اللَّحظةِ التي يجتهد فيها الملحد في أن يَسِيْرَ على سُنّة طبيعتِه، وأن يكون وفيًّا لِـمَعْدنه البهيميّ -إن سَلَّمْنا جَدَلًا صِدْقَ ذلك-؛ فعليه عندها أن يعيشَ بأخلاق الغابِ، لا غيرها، وهي أخلاقٌ فيها شيءٌ من التعاون والتّكاتف، ولكن يغلب عليها سلطان الصراع والأَثَرة والنَّهْش والنَّهْسِ... وإذا أراد الملحدُ الداروينيّ أن ينتصر للأخلاق الفاضلة كما نتّفِقُ عليها جميعًا -استجابةً لفطرتنا التي طَبَعَنا عليها الربُّ سبحانه-؛ فسيجِدُ نفسه بلا أَرْضِيّةٍ وجوديّةٍ تدعم هذا الخيار، وسيكون في عَجْزٍ عن إلزام أحدٍ بالإحسان إلى غيره، عَجْزَ إخوانِه الضِّباعِ والذِّئابِ عن ذلك لو أُوْتِيَتْ لِسانًا لِتُبين عن رَغْبَتِها أن تعيش في لُطْفِ شخصياتِ كرتون ديزني الاجتماعيّة.

الملحِدُ المستجيبُ لطبيعته الغابيّة، ذِئْبٌ لأخيهِ الإنسان. والملحِدُ المحسِنُ لأخيه الإنسان مُخالِفٌ لِفِطْرته الحيوانيّة، وفاقِدٌ للأرضيّةِ الوجوديّةِ التي من الممكنِ أن يُقِيْمَ عليها قِيَمَ الخيرِ والشَّرِّ.

العقل على مذبح الإلحاد

﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت/ 43]

« النظريّـة التي تفسّـر كلّ شـيء في الكون كلّـه، ولكنّها تجعل من المحال الإيمان أنّ تفكيرنا سليم؛ لا مجال لأن تُقبل شهادتها»[1].

س.أس. لويس[2]

(1) C.S. Lewis, *Miracles* (London: HarperOne, 2009), p.21

(2) سي. أس. لويس C. S. Lewis (1898-1963): فيلسوفٌ، وناقدٌ أدبيٌّ متخصّص في أدب القرون الوسطى وعصر النّهضة. يُشْهَدُ له أنّه أبرز المناضلين عن عقيدة الإيمان بإلهٍ -خارج الدّائرة الأكاديميّة- في القرن العشرين في الغرب.

الإسلام والعقل

ما العقل في الرؤية الإسلاميّة؟

العقل في الإسلام أَصْلُ التَّشريفِ، ومَنَاطُ التّكليفِ، ومَحَلُّ المدْحِ والتّقبيحِ..

العقلُ في الإسلام أحدُ أسبابِ تشريفِ الإنسان في ملكوتِ الله الواسع؛ فإنّ الله سبحانه قد رفع الإنسان فوق مرتبة البهيمة؛ بما آتاه من مَلَكاتٍ للنَّظَرِ، والفهم، والحُكْمِ؛ حتّى يَعْرِفَ الحقَّ من الباطل، والنّافع من الضارّ، ويَسِيرَ إلى حيث يجد ضالته. وهو بهذا العقلِ قادرٌ أن ينازع غَريزتَهُ التي قد تدفعُه إلى الضّلال ومجاوزة الحدّ. والعقلُ مُشَرَّفٌ حتّى في أشكال العبادات؛ فأهلُ العقل هم الذين يكونون مباشرةً وراء الإمام في صلاته؛ لقول الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم: «لِيَلِنِي منكم أُولو الأحلام والنُّهَى»[1].

والعقلُ في الإسلام مناط التكليف؛ فلا يُكلَّفُ المجنونُ -فاقِدُ العَقْلِ- باتّباع أحكامِ الوَحْي، وليس عليه حَرَجٌ إنْ أَخْطَأَ أو زَلَّ؛ إذ التكليفُ من شروطِهِ الفَهْمُ، ومَنْ لا فَهْمَ له، لا يُلزَمُ في ذاتِه بشيء، ولا يَتَعَلَّقُ به إثْمٌ، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ [الأحزاب:5]، فغيابُ التعمُّدِ، رافعٌ للإثم، ولا عَمْدَ مع فَقْدِ العقل.

والعقل في الإسلام محلّ المدح والتقبيح؛ فالعاقِلُ محمودٌ، ومن سُلِبَ الفَهْمَ الحقَّ مَلُومٌ؛ يقول القرآن: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩﴾ (الرَّعد/ 19)، وقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾ (الزُّمَرُ/ 18)، وقال جلّ وعلا: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ (ص/ 29)، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ۝٤٦﴾ (الحجّ/ 46)، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

(1) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، وإقامتها (ح/ 432).

لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ (طه/ 128). فالعقلُ الواعي آلةُ إدراكِ الحقّ، والدافِعُ إلى اتّباعه. مَنْ سَلَكَ طريقَهُ بعدل؛ اهتدى إلى مناراتِ الوحيِ، ومن دابَرَهُ؛ لَزِمَهُ أنْ يَزِلَّ.

والملاحدةُ يرون أنّهم يُؤسّسون طريقتهم في الكشفِ عن خُلُوّ الوجود من إلهٍ، على منهجٍ في النَّظَرِ يَرَوْنَهُ عقلانيًا. ولا يَشُكُّ الملاحدةُ الشعبيُّون في دعوى أنّ الملاحدة أَعْقَلُ العقلانيّين، وأنّه لولا العقلُ لما أَلْحَدَ الملحِدُ. ولكنْ، ماذا لو كان يلزم من الإلحاد المادي ألّا يكون هناك عقلٌ؟! هل سيستمرُّ الملحد عندها في ادِّعاءِ العقلانيّة ويترُكُ إلحادَهُ، أم سيتركُ العقلانيّة لِيستمرَّ في إلحادِهِ.. أم ستراهُ سيجمع بين المتناقضين، على عادتِهِ؟!

ولا أقصد بالعَقْلِ هنا: الدّماغ؛ فلا نزاعَ بين الناس أنّ للملاحدة أَدْمِغةً وقلوبًا. وإنّما العقلُ الذي أَعْني هو الإدراك الواعي للعالم؛ بما يجعل الإنسان يعرف الأشياء على حقيقتها؛ فيميّز بين الحقيقة والباطل، من خلال آلةِ الدّماغ أو غيرها من الآلات.

عقل البهيمة، صنعة الطبيعة

لا يملك الإنسان أن يُثْبِتَ أيَّ دعوى أو ينافح عنها في محافِلِ السِّجالِ العلميّ، إلّا أن يكون قادرًا على معرفة الحقيقة أو بعضها، ولن يكون قادرًا على معرفة الحقيقة حتى يملك آلة البحث عنها. ويتّفِقُ المسلمون والملاحدة أنّ العقل[1] هو آلة البحث الكَسْبيّ عن الحقيقة، وفي غياب العقلِ القادر على إصابة الحقيقة لا يمكن للملحد أن يَسْتَيْقِنَ إلحادَهُ، وأن يدعوَ إليه.

والملحِدُ يُنْكِرُ -ضرورةً- برهان التّصميم في عالم الأحياء؛ إذ الإقرار بالنَّظْمِ البيولوجيّ وإنكار العشوائيّة حُجّة بَيِّنَةٌ لوجود الله؛ ولذلك فهو مُلْزَمٌ أن يقولَ بمذهب

(1) ظاهر النصوص القرآنية أنّ التعقّل يكون بالقلب: «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (الحج/ 46)، والدّماغ أيضًا: «نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ» (العلق/ 16)؛ فالعقل إسلاميًا أكبرُ من عَمَلِ الدّماغ.

التطوّر البيولوجي الذي يَنْفِي دعوى النَّظْم الإلهيّ؛ وينصر دعوى التطوّر العشوائيّ من البسيط الأدنى إلى المعقّد الأعلى بفعلِ آلياتٍ طبيعيّةٍ بسيطةٍ. وقد اعترفَ داوكنز أنّه لو عاش قبل داروين لكان على الأغلب مؤمنًا. وقال كلمته الشهيرة في أنّ داروين قد كان سببًا في إمكان وجودِ مُلْحِدٍ وَفِيٍّ للمعرفة[1].

قديمًا، كان البشر يقولون مع أرسطو: «كلّ الناس يرغبون- بصورة طبيعيّة- في المعرفة» «πάντες ἄνθρωποι τοῦ εἰδέναι ὀρέγονται φύσει»[2]. ولكنّنا في عالم الإلحاد لا نملك أن نوافق أرسطو قولَهُ؛ إذ الملحدُ – الصّادق في إلحادِه- لا يسعى لفهم العالم؛ لأنّه لا عقل له، وأمّا دماغه فليس آلةً لِفَهْم الوجود؛ إذ يُخبرنا فلاسفةُ الإلحاد أنّ ما نعتقد صِدْقَهُ وبداهته، هو أَثَرٌ لِبنْيةٍ دماغيّة تَصْنع ما يبدو لنا كحقيقة؛ فالحقيقة صناعةٌ بيولوجيّة وليست كَشْفًا لما هو واقعٌ خارجَ الذِّهْنِ؛ فهي أثرٌ شخصيٌّ لازمٌ لبنية الدّماغ الذي تطوَّرَ بحثًا عن شروط البقاء، وسيظَلُّ الدّماغ يتطوّر مع تَغَيُّرِ البيئة؛ لِيُحقّقَ الإنسانُ تواؤمًا أفضل مع أسباب البقاء. ومع تطوّر الدماغ، تتغيّر «الحقائق»؛ فكلّ «حقيقة» من حقائق اليوم، عُرْضةٌ للاستبدال، دون استثناء؛ لأنّ الحاكم على عَمَلِ الدّماغ ليس هو واقِعُ الكونِ خارجَ الذِّهنِ، وإنّما هو واقِعُ الذِّهنِ الذي يَصْنَعُ ظِلَّ الواقعِ بكيميائه التي لا تأبه بطلب المطابقة بين العالم والصورة التي في الذهن؛ لأنّ الكيمياء عمياء.

لا يمكن للداروينية أن تمنحَنا الدّماغ الذي يضمن لنا حيازة عَقْلٍ واعٍ؛ وذلك لأسبابٍ؛ أَهَمُّها أنَّ تمييز الحقّ من الباطل ليس من متطلّبات البقاء الذي حرّكَ العمليّة التطوّريّة الأُولى منذ عصر الخليّة التي ظهرت الحياة بظهورها؛ فإنّ تحقيق البقاء رَهِينُ طَلَبِ الغذاءِ والتّناسُلِ، واجتنابِ قسوةِ البيئة الطبيعيّةِ والأعداءِ من بقيّة الأحياء، وذاك لا يُطابِقُ طَلَبَ معرفةِ الحقيقة؛ لأنّ طلبَ الحقيقةِ أَوْسَعُ من ذلك، كما أنّ تحقيق

(1) Richard Dawkins, *The Blind Watchmaker* (New York: W. W. Norton and Company, 1986), p.6

(2) Aristotle, *Metaphysics,* Book 1.1

البقاء قد يتحقّق بالوَهْم.

وهذا الذي أُقَرِّرُهُ ليس دعوى إلزاميّة من كِيْسِ المخالفين للملاحدة، الذين لا حريجة عندهم لرَمي الدهريين بما لم يقولوا، وإنّما هي حقيقةٌ يُقِرُّ بها أعلامُ الإلحاد في كتاباتهم النُّخبويّة، وأحيانًا الشعبيّة منها، عند حديثهم عن حقيقة الإنسان ومَلَكاتِه المعرفيّة من زاوية نَظَرٍ إلحاديّةٍ صادقة.

وسأسوق لك هنا شهاداتٍ وفيرةً لمفكّرين ملاحدةٍ أعلامٍ، لا يَتَّهِمُهم أحدٌ بالتحيّزِ ضِدَّ الإلحاد، وتَرَكْتُ أكثر منها صيانةً للكتاب من أن يُكْثِرَ من النُّقُولِ التي تُورِثُ المَلَلَ؛ وهي تَتَّفِقُ على أنّ أَدْمِغَتنا التي يراها الملحد المصدر الوحيدَ لمعرفة أنَّ الإلحاد حَقٌّ، وإدراك الوجود كما هو كائن في حقيقتِه خارجَ وَعْيِنا، ليست آلةً أَمينةً لِنَفْهَمَ أيَّ شيء.

فهذا البيولوجيّ الملحد الشَّرِسُ الحائز على نوبل فرنسيس كريك[1] يقول بعبارةٍ جازمةٍ: «أَدْمِغَتُنَا المتطوّرةُ هي في ختام الأمرِ لم تتطوَّرْ تحت ضغط الحاجة إلى كَشْفِ الحقائقِ العلميّة، وإنّما هي فقط قد تطوَّرَتْ لِتَمْكِيْنِنَا أن نكون على درجةٍ من الذَّكاء تكفي للبقاء على قيد الحياة»[2].

واعترف الفيلسوف الملحد والشهير توماس ناجل[3] أنَّ مِحْنَةَ العقلِ الملحدِ تعودُ أساسًا إلى تفسير نشأته داروينيًا. ويُصرّح بوضوح قائلًا: «لنْ يكون هناك سببٌ للثّقةِ في نتائج الرياضيات والعلم. وما كانت الفرضية التطوّرية معتمدةً على العقل؛

(1) فرنسيس كريك (1916-2004) Francis Crick: عالم بيولوجيا جزيئية وفيزياء حيوية بريطانيّ. نال جائزة نوبل (مشاركة) على اكتشافه تركيب الحمض النووي الصبغي.

(2) Francis Crick, *The Astonishing Hypothesis*: *the scientific search for the soul* (Simon & Schuster, 1994), p.262

(3) توماس ناجل (1937) Thomas Nagel: فيلسوف أمريكيّ بارز. له عناية خاصة بفلسفة العقل، ومشكلة الوعي، والفلسفة الأخلاقيّة.

فستكون بذلك ضرورةً مُقَوِّضةً لنفسها»[1].

ويقول الفيلسوف الملحد جون غراي[2]: «الإنسانويّة الحديثة هي الإيمان بأنه من خلال العلم يمكن للبشرية أن تعرفَ الحقيقة وبالتالي أن تكون حُرّة. ولكن إذا كانت نظرية داروين في الانتقاء الطبيعيّ صحيحةً؛ فسيكون الأمرُ السابق مستحيلًا. إنّ العقل البشريّ يخدم النجاح التطوريّ، وليس الحقيقة»[3].

وشنّع الفيلسوف الملحد ريتشارد رورتي على الملاحدة الدراونة المتنكّرين لداروينيّتهم بجهلٍ أو حماسة، قائلًا: «إنّ فكرة أنّ نوعًا واحدًا من الكائنات الحيّة -على عكس كلّ الأنواع الأُخرى- لا يتوجّه فقط نحو رخائه المتزايد بل أيضًا في اتجاه الحقيقة، هي فكرةٌ غير الداروينية»[4].

وقال عالم الأعصاب الملحد سام هاريس: «لم يتمّ تصميمُ حَدْسِنا المنطقيّ والرياضيّ والجسديّ عن طريق الانتقاء الطبيعي لتتبُّعِ الحقيقة»[5].

وقال نبيّ الإلحاد الجديد، داوكنز: «نحن كائناتٌ متطوّرة عن قِرَدةٍ، وقد صُمّمَتْ أَدْمِغَتُنا فقط لفهم التفاصيل الدُّنيوية عن كيفيّة البقاء على قيد الحياة في السَّافانا الإفريقية في العصر الحَجَريّ»[6].

تكفيك الشّهادات السابقة لتعلمَ أنّنا أمام حقيقة بيّنَةٍ لا سبيل للمِراء فيها؛ وهي أنّ رحلةَ تطوُّرِ الدِّماغ لم تكن لطَلَبِ الحقيقة، وإنّما كانت غايتها الوحيدة طلب البقاء. وهي الحقيقة[7] التي أَدْرَكَها داروين منذ زمن مبكّر؛ فقال: «عندي شَكٌّ دائِمٌ

(1) Thomas Nagel, *The Last Word* (Oxford: Oxford University Press, 2009), p.135

(2) جون جراي John Gray (1948): فيلسوفٌ بريطانيٌّ له عنايةٌ بالفلسفةِ التحليليّة وتاريخِ الأفكار.

(3) John Gray, *Straw Dogs* (London: Granta Books, 2002), p.26

(4) Richard Rorty, "Untruth and Consequences," *The New Republic* July 31, 1995, pp. 32-36

(5) Sam Harris, *The Moral Landscape*: *How Science Can Determine Human Values* (New York: Simon and Schuster, 2011), p. 66

(6) Richard Dawkins, Sunday Telegraph, 18 October 1998

(7) هي «حقيقةٌ»؛ إن قلنا بالتطوّر العشوائي.

في أن تكون لِقَنَاعاتِ عَقْلِ الإنسانِ -التي تَطَوَّرَتْ من حيواناتٍ أدنى- أَيُّ قِيْمةٍ أو أنْ تَسْتَحِقَّ التَّصديقَ أَصْلًا. هل بإمكانِ أيٍّ منَّا أن يُصدِّقَ قناعاتِ عَقْلِ قِرْدٍ، إن كانت هناك أصلًا قناعاتٌ في مثل ذلك العَقْلِ»[1].

ولعلَّ عَجَبَكَ يتعاظَمُ إذا عَلِمْتَ أنَّ داروين لم يجد هذه الحقيقةَ حُجّةً لِلشَّكِّ في كُلِّ حقيقةٍ، وإنّما حُجّة فقط للشَّكِّ في وجودِ اللهِ؛ فإنّ داروين قد ذَكَرَ في مرّةٍ أخرى شَكَّهُ في حُجيّة العَقْلِ بقوله: «.. لكنْ بعد ذلك يَنْشَأُ الشَّكُّ: هل من الممكن الوثوقُ بعقلِ الإنسان -الذي كما أعتقِدُ تمامًا قد تَطَوَّرَ عن عَقْلٍ أَدْنى كالذي يَمْتَلِكُهُ أدنى حيوانٍ - عندما يُقَدِّمُ مثل هذه الاستنتاجات الكبرى؟»[2]. وقد أَوْرَدَ كلامَهُ السَّالف تعقيبًا على حديثِه السَّابق الذي قال فيه إنَّهُ كان يَجِدُ في نفسِه -كَكُلِّ إنسانٍ- شُعورًا غامرًا يَدْفَعُهُ إلى رَفْضِ ردِّ هذا الكونِ العظيمِ ومَلَكاتِ الإنسان المدهِشةِ إلى الصُّدْفَةِ/ العَشْوائيَّةِ العَمْياء[3]. .. وذاك من الشُّكوكيّة الانتقائيّةِ في العقلِ الماديِّ؛ إذ ينتقي من الشُّكوكِ ما يُبْقِي شَكَّهُ قائمًا، ولو تَلَبَّسَ بالتَّنَاقُضِ.

حصيلة فرارِ الملاحدة من برهان النَّظْمِ إلى الداروينيّة العشوائيّة: التزامُ القول إنّ ما يُدرِكُه دماغُنا ليس نتيجةَ فهمٍ صائبٍ للواقع، وإنّما هو نتاج عَمَلٍ تكيّفيٍّ للدّماغ تطوَّرَ لِيُمَكِّنَ الإنسانَ من مواجهة أسبابِ الفَنَاء والاندِثار؛ فإنّ الانتخاب الطبيعيَّ لا يهتمُّ برفعِ قيمةِ الإنسان، وإنّما يقوم بإلغاءِ ما يمنع الكائنَ الحيَّ من تحقيق البقاء والتّكاثر. وليس في ذلك أيُّ ضمانةٍ أنّنا نصيبُ الحقَّ عندما نريد أن نَبْلُغَهُ؛ فإنّ التكيّفَ لا يطلب مطابقة الواقع، وإنّما يطلب دفع عوادي الطبيعة القاسية. ولذلك قد يكون من مصلحة الكائن الحي أن يرى الوهم حقيقة؛ حتّى يجتنب الأضرارَ الجانبية أو

---

(1) To William Graham, 3 July 1881
نصُّ رسالة (داروين) كاملًا: <https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-13230.xml>

(2) Charles Darwin, *On the Origin of Species* (Ontario: Broadview Press, 2003) Appendix A, p.433

(3) Ibid

المشابهة لها؛ وهو ما أَكَّدَهُ إريك بوم[1] بقوله: «في بعض الأحيان تكون أنت مُؤَهَّلًا بصورةٍ أكبر للبقاء على قيد الحياةِ والتَّكاثر، إذا آمنْتَ بشيءٍ باطلٍ أكثر مما لو كنت تُصدِّقُ الحقيقةَ»[2]. وكرّر ذلك ألسكندر روزنبرج في قوله: «الانتخاب الطبيعي ليس جيدًا في انتقاء المعتقدات الصحيحة»، وأنّ «هناك حجةً قويّة على أن الانتخاب الطبيعي ينتج كثيرًا من المعتقدات الباطلة والمفيدة»[3].

ويذهب عالم النّفس دونالد هوفمان[4] الذي أمضى العقود الثلاثة الماضية في دراسةِ الوعي من زاويةٍ داروينية، إلى أنّ التطوّر قد شَكَّلَ وَعْيَنا بإخفاء حقائقَ من الوجودِ لا نحتاجُهَا. وكانت خلاصةُ أبحاثِه أنّ العالمَ الذي قُدِّم لنا من خلال وَعْيِنا لا يُمثّل الواقع. بل يقول إنّ وَعْيَنا بالواقعِ زائفٌ، وقد نَحَتَهُ التطوُّرُ فينا لأنّه يزيد من القدرة التكيّفية التطوريّة للإنسان عن طريق دفعِ الحقيقة إلى الانقراض[5]!

عَمَلُ الدّماغ -في التصوّرِ الإلحاديِّ- ليس في خدمة الحقيقةِ، وإنّما هو في خدمةِ مَطْلَبِ الإنسان في البقاء. والبقاءُ قد يَتَحَقَّقُ بالحقيقة والوَهْم معًا.

وعِلْمُنَا بأنّ الدماغ في المنظور الإلحاديّ غير جديرٍ بالتّصديقِ -لأنّه لا يَنْشَأُ من اللّاعقلِ عَقْلٌ؛ إذ العشوائيّة مهما تسلّطَ على آثارها الانتخابُ الطبيعيّ، فإنّها لا تملِكُ أن تُنْتِجَ آلةً تعقِلُ الوجودَ كما هو- يُلزمنا أن نسأل الملحد:

كيف اهتديتَ إلى ما ترى أنّه حقّ؟

---

(1) إريك بوم Eric Baum: عالمٌ أمريكيٌّ متخصّصٌ في الذّكاء الاصطناعيّ.

(2) Baum, *What is Thought?* (Cambridge, Mass.; London: MIT, 2006), p.226

(3) Alexander Rosenberg, *The Atheist's Guide to Reality*: *enjoying life without illusions* (New York: W.W. Norton, 2011), pp.110-111

(4) دونالد هوفمان Donald D. Hoffman (1955): أستاذ علم الإدراك في جامعة كاليفورنيا.

(5) حوار مع الدكتور دونالد هوفمان:
Amanda Gefter, The Evolutionary Argument Against Reality, *Quanta Magazine,* April 21, 2016
<https://www.quantamagazine.org/the-evolutionary-argument-against-reality-20160421>

وكيف أدركتَ أنّ خصومك على باطل؟

ولماذا تصف نفسَك بالاستنارة؟

ولِمَ لا يكون ما تظنُّه حقيقة، مجرّد وَهْمٍ نافع للتكيّف؟

الإلحاد (إمكانيةٌ مستحيلة)، بمعنى:

1. حتى تكون ملحدًا لا بدّ أن تُنْكِرَ حقيقة[1] النَّظْمَ في عالم الأحياء.
2. البديل الوحيد عند الملاحدة للنّظم الإلهيِّ القولُ بالتطوّر، والعشوائيّة.
3. الإيمان بعشوائية التطور يلزم منه عدم الثقة في قدرة الدّماغ على اكتشافِ الحقيقة الموضوعيّة؛ لأنه تطوّر غير متوجّه لإدراك الحقيقة قسرًا.
4. إذا كان السبيل الوحيد لإنكار وجود الله -سبحانه- هو العقل، وكان الإلحاد يقتضي نفي وجود العقل العاقل الذي يدرك حقيقة العالم، كان القول بالإلحاد يقتضي الكفر بالإلحاد حتى يتمكن الملحد من الكفر بالله!

الإلحاد دعوى منتقضة ذاتيًا self-refuting claim .. وإن شئت قل: الإلحاد إمكانية مستحيلة!

الدماغ.. الآلة الصَّمَّاءُ

لا شيء في الوجود غير الذرّة، وما عدا ذلك خرافة لا يدعمها العلم الحديث. لقد انتهى عصر الثنائيات؛ وأصبح الإنسان جزءًا من الطبيعة بعد أن كان صورة بارزة لذاتٍ تأبى أن تخضع باستسلام لقانون الفيزياء لأنّ جوهرها ألطف من المادة..

ذاك عنوان كبير يرفعه الملاحدة، فيه غُرور، وجَزْم بالعلم بلا برهان. والأخطرُ من ذلك أنّ القول إنّ الكون هو الذرّة المتحرّكة، ولا شيء غيرها، مُشكّك في علمنا أنّ

(1) الملاحدة يؤمنون بظاهر النظم لا حقيقة النظم؛ لأنّ النظم يقتضي مشيئة وحكمة، في حين أنّ ما يظهر من نظم ليس إلّا أثرًا للعشوائية العمياء.

الكون هو الذرّة وحدها.. ولنفهمَ حقيقة الأزمة، علينا أن نرجع إلى الثواني الأولى للانفجار العظيم.. ونسألَ: ماذا كان عندها، وإلى ماذا آلَ ما كان بعدَها؟

لقد انفجرَ الوجودُ من عَـدَم، ثم تتابعتْ الحركة السّريعة في الكون الماديّ المتوسّعِ في كلّ اتجاهٍ. وفي كونٍ ماديٍّ لم يَخْلُقْهُ إلهٌ من العَدَم، ولم يُنَظِّمْ عَمَلَهُ قانونٌ مَخلوقٌ بِحِكْمةٍ وقُدْرةٍ، لا حجّة أنّ أَدْمِغَتَنا قد خُلِقت للتّفكير السليم المهيَّأ لفهم العالم من حولنا. ما الدّماغ سوى ذرّاتٍ متآلفةٍ، وخلايا متراكمةٍ، ولا شيء بعد ذلك غير ذلك. وهَلْ باجتماع الذرّاتِ والخلايا والأعصاب تَهَبُنا الطبيعة آلةً لإدراكِ العالم كما هو؟! ما الذي يجعل الذرات والخلايا والأعصاب تَأْبَهُ لأن نكون على وَعْيٍ صائب بالعالم؟ وإذا رغبت في ذلك؛ فما الذي يعطيها القدرة على ذلك، وفاقد الشيءِ لا يعطيه..

يقول سي.أس. لويس -شارحًا هذه المعضلة-: «إذا كانت العقولُ تعتمد كُليًا على الأدمغة، وكانت الأدمغة تعتمد على الكيمياء الحيويّة، وكانت الكيمياء الحيويّة تعتمد (على المدى الطّويل) على التدفّق الذي لا معنى له للذرّات؛ فأنا لا أستطيع أن أفهم كيف ينبغي أن يكون لفكرِ تلك العقول أيّ أهميّةٍ أكبر من صوت الرّيح الذي يهبُّ على الأشجار»[1].

لسنا هنا نتحدّث عن عشوائيّة الداروينيّة، وما يلزم عنها من فقدان الثّقة في الدّماغ، وإنّما نحن نتحدّث عن إمكان وجود عَقْلٍ عاقلٍ؛ إذا كانت المادّة بذراتها هي كلّ شيء، وكان عمل الدّماغ لا يتجاوز التفاعل الدّاخلي في هذه المادة المحبوسة في الجمجمة.

وقد شهد كثير من الملاحدة، بصريح اللّفظ، أنّ كَوْنًا يؤمن بالفيزياء وحدها، ويُنكر وجود الله، ولا يعرف غير قانون الحركة والتغيّر المادي، يحرمنا -ضرورة- من الإيمان بوجود دماغ يعقل العالم على حقيقته. وشهاداتهم في ذلك أوسع من أن تُحصر هنا، وفيها الإقرار بأزمة دماغِ الذرّة والعصبونات.

(1) C. S. Lewis, *The Weight of Glory* (New York: Zondervan, 2001), p.139

يقول البيولوجيُّ التَّطوُّريُّ الملحِدُ المعروف هالدين[1]: «إذا تم تحديد نشاطي الذهني كليًّا بوساطة حركات الذرات في دماغي، فلا يوجد عندها لديّ سببٌ يدعو إلى افتراضِ أنّ معتقداتي صحيحةٌ... وبالتالي ليس لديّ أيّ سبب لافتراضِ أنّ عقلي يتكوّن من ذرّات»[2].

وتقول الفيلسوفة الملحدة بارتيشيا تشيرشلاند[3]: «إنّ النّظام العصبيّ يُمكّن الكائن الحيَّ من النّجاح في تأدية أربع وظائف: التغذية، والهرب، والقتال، والتّكاثر. الجهد الرئيس للجهاز العصبيّ هو إبلاغ أجزاء الجسم حيث يجب أن تكون؛ من أجل بقاء الكائن الحيّ... الحقيقة بلا شكّ تقع في المرتبة الأخيرة»[4].

ونبّه الفيلسوف الملحد روزنبرج -في إشارته إلى الطبيعة الماديّة للدماغ- إلى حقيقة أنّ الدماغ مجموع عصبونات، وكلُّ عصبون يعمل بشكل فرديٍّ، في إطارِ تعاونٍ مشترَكٍ مع بقيّةِ العصبونات. ولو أنّا حَلَّلْنا عَمَلَ كُلِّ عصبون لمفرده؛ فلن نجد فيه فكرةً أو بعضَ فِكرةٍ؛ فمنتجه ماديٌّ صِرفٌ. وأمّا إذا جمعت الصُّورة كاملة؛ بَدَتْ وكأنّنا نُفَكِّرُ في شيءٍ ما، وإن كُنَّا في الحقيقة لا نُفَكِّرُ في شيءٍ خارجَ أَدْمِغَتِنَا[5].

إنّنا هنا أمام مشكلةٍ مختَصَرُها أنّ مقدمةَ الإلحادِ الماديّةِ تَنْسِفُ النتيجة المدَّعاة، فالعقلُ الفيزيائيّ الذي تحكمه أعراض الذرّة عاجز أن يُنتج عقلًا يعي أنّه مُنتَجٌ فيزيائيٌّ صِرفٌ.. ولذلك أعلن روزنبرج فشل كلّ محاولات إثبات أنّ الدماغ قادرٌ أن يفكّر بصدق وأمانة حول شيء ما في الكون[6].

---

(1) ج. ب. أس. هالدين (1892-1964) J. B. S. Haldane: عالم بيولوجيا بريطانيٌّ. من أَهَمِّ أَنْصارِ التَّطَوُّرِ الدَّاروينيِّ ومُنَظِّرِيْهِ المتأخّرين. كانت له عنايةٌ بِنَشْرِ الثَّقَافة العلميّة الشعبيّة.

(2) J.B.S. Haldane, *Possible Worlds* (NJ: Transaction Publishers, 2009), p. 209

(3) بارتيشيا تشيرشلاند (1943) Patricia Churchland: فيلسوفة أمريكيّة، لها عناية خاصة بفلسفة الأعصاب وفلسفة العقل.

(4) Patricia Churchland. Cited in: Alvin Plantinga, *Where the Conflict Really Lies*: *Science, Religion, and Naturalism* (OUP, 2011), p. 315

(5) Alexander Rosenberg, *The Atheist's Guide to Reality,* pp.190-191

(6) Ibid., pp.325-326

المادية عاجزة عن تفسير وجود دماغ عاقل، يفهم العالم؛ لأنّه إذا كانت أفكارنا ومشاعرنا أثرًا فيزيائيًا محضًا لهذه المادة التي نعرف قصورها في طبيعة أعراضها؛ فإنّها -بذلك- لا تعكس العالم الخارجيّ، وإنّما تعكس تفاعلها الداخليّ.

إنّ الرؤية الماديّة الإلحاديّة تقودنا إلى إنكار الإيمان بالله والإلحاد عى السَّواء؛ لامتناع التفكير في موضوع الإيمان والإلحاد، أو الاستدلال لهما بشيء.. وخلاصة الأمر:

1. الكون: مادّةٌ وطاقة وحركةٌ عشوائيّة.
2. التفاعلات الكيميائية للمادة والطاقة لا تُبالي بالمعاني القيميّة للحق والباطل.
3. = الدّماغ لا يطلب الحقيقة، وإنّما هو آلةٌ عمياءُ تتفاعل داخليًا لا لِتُصيبَ الحقيقةَ.

وإنْ شئتَ فقلْ:

1. لا يُمكن قبول أيّ اعتقادٍ أنّه عقلانيٌّ إذا أَمْكَنَ تفسيرُه بالكامل بأسبابٍ غير عقلانيّة.
2. إذا كان عالمنا ليس فيه غير الذّرات وحركتها؛ فبالإمكان عندها تفسير كلِّ الاعتقادات بأسبابٍ غير عقلانيّة.
3. = إذا كان عالمنا، عالم الذرات وحسب، فلا يوجد أيُّ اعتقادٍ يُمكِنُ الاستدلال عليه بصورة عقلانيّة.

الإيمان بالعقل سابق للإلحاد إدراكيًا، والإيمان باللهِ سابقٌ للإيمان معرفيًا. وبغير الإيمانِ بالله؛ لا سبيلَ للتفكير في الإلحاد صِدْقًا أو كَذِبًا. وفي عالم الفيزياء المحضة؛ لا وجود للعقل، ولا للإلهِ، وإنّما هي عصبوناتُ الدّماغ والتفاعلاتُ الكيميائية التي لا تُقدّم وُعودًا بإدراكِ الحقيقة.

ما المخرج من هذا المأزق؛ حيث يَهْدِمُ الإلحادُ الإلحادَ؟

وقفَ الفيلسوف الأمريكيُّ بول كوبان بعد محاضرةٍ ألقاها داوكنز سنة 2011 ، ليسأل داوكنز عن دَعْواه تفوُّقَ الملحدِ عقلانيًا على المؤمنِ ضمن النَّظرة الطبيعانيّة؛ إذ وِفْقًا لكتاب داوكنز: «نَهْرٌ خارجٌ من عَدْن»، نحن جميعًا نرقص على موسيقى الحمض النّوويّ الخاصّة بنا؛ فكيف يتفوّقُ الملحِدُ على غيره في باب العقلانيّة إذا كان مُخُّـهُ –كغيره– أَسِير الفيزياءِ العمياء؟!

ردَّ داوكنز على كوبان بقوله إنّ القوى الماديّة الواحدة قد تُنتج آراءَ مختلفةً! ثمّ سأل داوكنز كوبان: «هَلْ الإشكالُ عندك في أنّنا نَصِلُ إلى نتائجَ مختلفةٍ رغم أنَّ أَدْمِغَتَنا قد شُكِّلَتْ من القُوى نفسِها؟».

كَـرَّرَ كوبان سؤالَهُ بقوله: «سؤالي هو: لماذا يجب أن يعتقدَ الملحد أنّه أكثرُ عقلانيّةً من المؤمنِ إذا كانت القُوى نفسُها تعمل في كُلٍّ منهما، وهي قُوًى خارجةٌ عن إرادتِهِمَا؟».

أجاب داوكنز السُّؤالَ بسؤالٍ قال فيه: «إذا أَرَدت أن تسألني لماذا أنا واثِقٌ من أنّ عقلانيّتي العلميّة هي الإجابة الصَّحيحة؛ فجوابي هو أَنَّها ذات فعاليّة[1]»[2].

للأسف، لم يفهم داوكنز أَهَمَّ اعتراضٍ على العقلانيّة الإلحاديّة. وهذا جِدٌّ معيبٍ في حقّ رجلٍ خاض الجَدَلَ الواسعَ للدّفاع عن الإلحاد على مدى نصفِ قَرْنٍ!

ثمّ إنّ الإفادة من التفكير لتحقيق البقاء ليست حُجّةً على أنّ العقل يقود ضرورة إلى الحقيقة؛ لأنّ الفاعلية يكفيها القُدرة على التكيّفِ لا القدرة على إصابة الحقيقة، والتكيّفُ قد يتحقَّقُ بالوَهْمِ. وما أكثرَ حديث الملاحدة عن إجماعِ الأمم السَّابقة على الإيمان بالله لأنّه يضمن لهم دَفْعَ الخوف والرِّهابَ من المظاهر

(1) it works

(2) Peter S. Williams, *C. S. Lewis vs the New Atheists* (London: Paternoster, 2013), pp.112-113

الطبيعيّة المرعبة؛ بِنِسْبَتِهَا إلى إلهٍ تقوم عبادتهم له على استرضائه حتّى لا يُهلكهم بالنّوائب الطبيعيّة.

لقد كان يكفي داوكنز أن يُجيب بما قَـرَّرَهُ لاحقًا في كتابه «تجاوز الإلـهِ» من أنّ الدّماغ يأبه بما هو عمليٌّ ناجع وإن لم يُطابق الواقع؛ لأنّ مطلب الكائن الحيّ تحقيق البقاء[1]. فلا توجد عقلانيّة إلحاديّة ناجعة؛ لأنّ العقل -في التصوّر الإلحادي الداروينيّ- مُجهَّزٌ للنَّجاعة التكيّفيّة فقط.

حاول ملاحدةٌ آخرون الفرار إلى القول إنّ الدماغ وإن كان آلةً حيويّة غير عاقلة؛ إلّا أنّه قادرٌ على ضمان إدراك الحقيقة، مثله في ذلك مثل الكمبيوتر. وذاك جوابٌ إلحاديٌّ مُتَهَافِتٌ؛ لأنّ الكمبيوتر ليس هو فقط تلك القطع المعدنية المجموعة على شكل صندوق Hardware، وإنّما هو أكبر من ذلك؛ فهو هذه المعادن والبرمجة غير المادية software السّابقة لها. والكمبيوتر بذلك رهينُ البرمجة الذكيّة لعمله للوصول إلى الصّواب، مع افتقاده للإرادة الحرّة للتفكير. إنّ الدّماغ -إلحاديًا- آلةٌ تَجَمَّعَتْ ذرَّاتها دون حِكْمةٍ، وكُلُّ تطوُّرٍ لها مَقُودٌ بالعشوائيّة والانتخاب الطبيعيّ، لا طَلَب الحقيقةِ والصَّواب. والدّماغ إذا فَقَدَ حُريّة الإرادة، ولم يَنْشَأْ عن مُتَّصِفٍ بالحكمةِ، وكان رهينَ العشوائية، لم يَصِرْ دماغًا عاقِلًا.

ولذلك حاولَ الفيلسوفُ الملحدُ توماس ناجل الهروبَ من أصلِ الإشكالِ، بطريقٍ آخرَ بعيدٍ؛ فقد اعترفَ أوّلًا أنّه من المحال أن يُقدّمَ الملحدُ ضمن الرؤية الطبيعانيّة جوابًا لمشكلةِ الدّماغ العاقلِ المصيبِ في فهم الواقع كما هو، مشيرًا إلى أنّ العمليّة التطوّريّة برمَّتِها غيرُ عقلانيّةٍ في جَوْهَرِها، وأنّها عشوائيّة، غير هادفة، ولا تملك إلّا أن تجازي الكائنَ على التكيّفِ بالبقاءِ. وليس طَلَبُ الحقيقةِ جزءًا ضروريًا في هذه

(1) Dawkins, *Outgrowing God* (New York: Random House, 2019), p.226

العمليّة الطبيعيّة. وهذا اعترافٌ أنّ الرواية التطوّرية عاجزةٌ عن تفسير عقلانيّة الدّماغ، بل هي في ذاتها حُجّة ضدّ هذه العقلانيّة. كما أشار ناجل إلى أنّ طبيعة العمليّة العقليّة بطابعها غير الماديّ، وجانب القصد فيها، يصعبُ أن تأتلِفَ مع التصوّر الماديّ الصِّرف للدّماغ عند الطبيعانيّين.

ثم قال ناجل بعد ذلك إنّه لا سبيل للجواب عن سؤال وجود العقلِ الواعي عند الإنسان؛ لأنّ كلّ محاولة لاختبار العقل من داخله أو خارجه، تفترض القدرة على استعمال العقل لمحاكمة العقل؛ ولذلك فهذا السؤال لا معنى له.

وما فَعَلَهُ ناجل هو محاولةٌ للهروب من مواجهة الإشكال بعد الاعتراف بوجوده ضمن الرؤية الطبيعانيّة. لا شكّ أنّه لا سبيل لإثبات صدقِ العَقْلِ من خارجِه أو داخله؛ لأنّ كُلَّ قراءةٍ نقديّة للعقلِ تطوي في داخلها الإقرارَ بحجيّة العقل؛ والإيمان بالعقل مُقدّمةٌ أُولى غير برهانيّة لكلّ تفكير. وإنّما الإشكال هو في تناسق الرؤية الطبيعانيّة ذاتها؛ فإنّ ناجل وأعلام الإلحاد الجديد على أنّ من شروط صحّة الفكرة تناسقها، ولو قالوا بغير ذلك لانهدم كلّ أمل لهم لإثبات مذهبهم، أو نقضِ مذاهب خصومهم؛ لأنّ لخصومهم عندها أن يَسْتَدِلُّوا على عدم فساد مذهبهم، بعجز صواب خصومهم المناقض لمذهبهم أن يُبطل مذهبهم؛ لأنّ الحقائق قد تتناقض؛ فقد يكون مذهبهم ومذهب خصومهم على صواب، رغم تناقضهما!

إنّ الإشكال في تصديق العقل إلحاديًا، هو أنّ الرؤية الكونيّة الإلحاديّة تَضُمُّ مقدّماتٍ تمنع تصديق العقلِ، وهذه المقدّماتُ هي نَفْيُ الحِكْمَةِ المتعالية عن الكون كُليّةً، وَرَدُّ الأَمرِ كُلِّهِ إلى العشوائيّة التي طَرَأَ عليها لاحقًا عَمَلُ الانتخاب الطبيعيِّ. وعند تناقض المقدمة مع النتيجة تسقط النتيجة ضرورةً؛ لافتقادِها الأساسَ الذي تحتاج أن تقومَ عليه.

«عندما نَسمع بعض المحاولات الجديدة لتفسير التفكير أو اللُّغة أو الإرادة بصورة طبيعانيّة؛ يجب أن يكون رَدُّ فِعْلِنَا كما لو قِيل لنا إنّ شخصًا ما قد رَسَمَ دائرةً مُربَّعةً!»[1]. الفيلسوف بيتر غيتش[2].

الإلحادُ أَيْسَرُ المذاهبِ المخالفة للإسلام نَقْضًا؛ لأنّه دعوى تمنع إمكان الوَعْيِ والمعرفة الصحيحةِ بالعالَمِ.

(1) Peter Geach, The Virtues (CUP, 1977), p. 52

(2) بيتر غيتش :(1916-2013) Peter Geach فيلسوفٌ بريطانيٌّ. أستاذ المنطق في جامعة ليدز.

حرية إرادة.. وهم الآلات

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ الكهف/ 29

«هل هناك إرادةٌ حُرّةٌ؟ لا، البتّة!» (1)

الفيلسوف الملحد

ألكسندر روزنبرج

---

(1) Alexander Rosenberg, *The Atheist's Guide to Reality*: *Enjoying Life without Illusions,* p.3

الإرادة الحرّة في الإسلام

ما الإنسان في الإسلام؟

إنّه ذلك الكائن الـحُرُّ بعقلِه، القادِرُ بإرادتِه على الفعل خارج سلطان بعض الجَبْرِ المادِيّ.. هو الكائنُ المتحرّك باختياره ورغبته الموازنة بين الممكنات عن وَعْي.. وهو بذلك أرقى من البهيمة التي أَسَرهَا جَبْرُ الغريزةِ وآليّةُ الذَّرَّةِ الخاضعةِ لِسُلطانِ قوانين الفيزياءِ.. إنّه الكائن القادر على الإحسان والإفساد؛ لأنّه يملك أن يفعلَ ويَذَرَ، ويُقبِلَ ويُدْبِرَ ضمن حدود ما خَلَقَهُ الله له وفيه.. إنّه الكائن المخيَّرُ بين أن يؤمنَ أو يكفر. وذاك الخيارُ، أَعْظَمُ قرارٍ في وُجودِه؛ لأنّه حُجّةُ الله لهُ أو عليهِ بعد مآبِه..

يقول ابن تيميةَ في عَرْضِه التَّصوُّرَ السُنِّيَّ لمشكلة الاختيارِ والجَبْرِ: «اِعْلَمْ أَنَّ الْعَبْدَ فَاعِلٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَلَهُ مَشِيئَةٌ ثَابِتَةٌ وَلَهُ إرَادَةٌ جَازِمَةٌ وَقُوَّةٌ صَالِحَةٌ. وَقَدْ نَطَقَ الْقُرْآنُ بِإِثْبَاتِ مَشِيئَةِ الْعِبَادِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨﴾، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩﴾، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾، ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ۝٥٦﴾، وَنَطَقَ بِإِثْبَاتِ فِعْلِهِ فِي عَامَّةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ: [يعملون]، [يفعلون]، [يؤمنون]، [يكفرون]، [يتفكّرون]، [يحافظون]، [يتّقُون]»[1].

والمسلم يؤمن أنّ عمليّةَ اختيار القرار، أكبرُ من عمل ذرّاتِ الدّماغ؛ فهو يؤمن بالنَّفْسِ اللَّوَّامة، والنَّفْسِ الأَمَّارةِ بالسُّوء؛ وهما حالتان للنفس؛ أُولاهما تدفع الإنسانَ عن الشرِّ وتوجِّهُهُ إلى الخير، والثانية تَدْفَعُه عن الخير وتَؤُزُّهُ على الشرّ. وهذه النَّفْسُ عُرْضةٌ لإلهام الـمَلَكِ ووَسْوَسَةِ الشَّيْطانِ.

فَأَيْنَ إرادةُ الإنسانِ ومشيئتُه في الرؤيةِ الكونيّة الماديّة الإلحاديّة؟

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم (المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1416هـ/ 1995م)، 393/ 8.

الإلحادُ .. أَلَّا تختار خيارك!

متعةُ الإلحادِ، في خطاب الملحدين، هي تحقيقُ تلك القَفْزةِ العاقلة من وادي الظُّلماتِ إلى سفح النُّور؛ فالملحِدُ يختار بوعيٍ مُشرقٍ أنْ يَخْرُجَ من بَلادَةِ الألفةِ والتديُّنِ على طريقة القطيعِ الغافلِ، إلى إنكارِ وُجودِ إلهٍ عن إرادةٍ مختارةٍ.. والملحد بذلك مَدِيْنٌ لحريّة الإرادة ليُثبِتَ صوابَ اختيارِهِ، وفضيلة انحيازاته المعرفيّة.

والمسلِمُ أيضًا مَدِينٌ لحريّةِ الإرادة لأنّها تمنح اختيارَهُ العقدِيَّ فضيلةَ موافقة الحقِّ عن إرادة وقَصْدٍ، وتمنح خياراتِه الأخلاقيّةَ فضيلةَ الصَّواب والطَّهارة عند امتحان، وتمنحُ طبيعةَ الجَزَاءِ يوم القيامة على أفعالِه معقوليّة ضمن فهم المجازاة وفقًا لتصوّرات الأذهان وأفعال الجوارح..

كلّنا -تقريبًا، إلّا من شذّ- مؤمنون أنّنا نختار أفعالنا، ولا نُكره عليها في كلّ حين أو حال؛ فإننا نختار طلب قهوة إذا كنّا في مطعم أو نذر ذلك بمحض اختيارنا، ونختار من بين صفحات الشبكة العنكبوتية ما نريد أن نتصفّحه، ونختار من فصول هذا الكتاب ما نطلب قراءته.. ولا أقصد بذلك نفي المحفّزات التي تسلّط جاذبيّتها علينا -مثلًا- عند الملل أو التعب. كما أنّنا لا ننكر أثر الكيمياء في سلوك الإنسان، ولا نعترض على الأدوية التي تعطي إلى من يعانون اضطراب المزاج ثنائي القطب Bipolar disorder أنّها لا تؤثّر في تفكيرهم. وإنّما نحن ننكر أن تكون الكيمياء أو غيرها من الأسباب المادية محتكرة لتفسير أفكار الإنسان، ومزاجه، وإرادته، وأفعاله. إنّنا نؤمن بوجود مساحة إيجابية للإنسان حتّى يختار بين الخيارات في كثير من أمره، حتّى مع وجود محفّزات أو منفّرات؛ إلّا عند حالات قليلة يُقهر فيها على ما لا يطلبه بوعي، كحال السكّير أو المعتوه...

إنّ إحساسنا بإرادتنا الحرّة، قاهر يتملّكنا؛ حتّى إنّه يرقى أن يكون من البدهيّات؛ ولذلك فنحن نفرح بأفعالنا إذا وافقت الحقَّ وأصابت الخير، ونجزع إذا قارَفْنا منكرًا

وضَلَلْنا مَسْلكًا. كما أنّنا لا نتردَّدُ في تأنيب الباغي الظالم، وزَجْرِ المتهاون المفرّط.. وكلُّ ذلك ليقينِنا أنّنا وغيرنا نَمْلِكُ إرادةً حُرّةً، مختارة.

وأمّا الإيمانُ الإلحاديُّ بماديّةِ العالم، المختَزِلِ للكون في الذرّات وأعراضِها، والحركاتِ وسرعاتها، فإنّه يجعل وجود الإرادة الحُرّةِ مَحْضَ وَهْم؛ لأنّ الإنسان لا يختار، وإنّما يُختار له؛ فهو يُساقُ بسوط القَهْرِ إلى حيث يجب أن يكون. إنّ الوجود الماديّ الصِّرفَ، لا يحمل في جَنَبَاتِه غيرَ المادّة والطّاقةِ، والإنسانُ بعضُ ذلك؛ فهو آلةُ الوجودِ الكبرى، يتحرَّكُ بحركتها، ويسير ضِمْنَ سِكَكِها دون إرادة. هو بِنْيةٌ فيزيائيّة تَحْكُمها الدّفقات والنّبضات، ولذلك يُرَدُّ سُلُوكُ الإنسان إلى غير إرادتِه؛ فهو أَسِيرُ الخصائص الكيميائية لجِيْنَاته..

يقول عالم النّفس الأمريكيّ جيمس هلمان[1] -وهو أبرز عالمِ نفسيٍّ أمريكيٍّ في القرن العشرين- مُعبّرًا عن الرؤية الماديّة الصِّرفة: «أنا أعيشُ مؤامرةً مكتوبةً عن طريق الشّفرة الوراثيّة الخاصة بي، ووراثة الأجداد، والمناسبات المؤلمة في حياتي، والحوادث الاجتماعية»[2].

وهو ما عبر عنه البيولوجيُّ الملحد فرنسيس كريك بقوله: «أنتَ، وأفراحُكَ وأحزانك وذكرياتك وطموحاتك، وشعورك بذاتك وحريّة الإرادة، كلُّ ذلك ليس في الحقيقة سوى سلوكِ تَجَمُّعٍ كبيرٍ من الخلايا العصبيّة وجزيئاتها المرتبطة بها»[3].

ويُظهِرُ البيولوجيُّ ويليام بروفين الملحد جذورَ الأزمةِ الإلحاديّة في شأن إمكانِ أنْ يوجد كائنٌ حيٌّ حُرٌّ، في تصريحه: «إنّ الإرادة الحرّة كما هي في صورتها التقليدية

---

(1) جيمس هلمان James Hillman (1926-2011): عالمُ نفسٍ أمريكيٍّ. مُؤسّس عِلْم نفسِ النَّمَطِ الأَوَّليِّ.

(2) James Hillman, *The Soul's Code* (New York, Random House, 1996), p.6

(3) Francis Crick, *Astonishing Hypothesis*: *The Scientific Search for the Soul,* p.3

-أيْ حُريّةُ الاختيارِ دون إكراهٍ أو توقُّعٍ لاختيارٍ بين مساراتٍ بديلة، هي ببساطة، غير موجودة؛ إذ ليس ثمّة طريقة يُمكن للعمليّة التطوّرية -بتصوّرها الحالي- أن تُنْتِجَ كائنًا يملك فِعْليًا أن يختار»[1].

ولخّص ألكسندر روزنبرج المسألةَ برمّتها بعبارة بسيطة، في قوله: «حقيقةُ أنّ العقلَ هو الدّماغ، ضامنةٌ عدم وجود إرادةٍ حُرّةٍ. إنّها حقيقة تستبعِدُ أيَّ أغراضٍ أو تصاميمَ لتنظيم أعمالِنا أو حياتنا.»[2]

ولا يقتصر أمرُ إنكارِ الإرادة الحرّةِ على الفلاسفة والبيولوجيّين القائلين إنّ التطوّر العشوائي في عالمٍ ماديٍّ صِرفٍ لا يمكن أن يَهَبَ الإنسانَ إرادةً حُرّةً، وإنّما يشاركهم مذهبَهم مفكّرون ملاحدةٌ من أصحاب تخصّصاتٍ أُخرى. ومن هؤلاء ستيفن هاوكنج الفيزيائي الملحدُ، القائلُ: «من الصّعب رؤيةُ كيف يُمكن للإرادة الحرّة أنْ تعملَ لو أنّ سلوكَنا محكومٌ بقانون فيزيائيٍّ؛ لذا يبدو أنّنا لسنا أكثرَ من آلاتٍ بيولوجيّةٍ وأنّ الإرادةَ الحرّةَ مَحْضُ وَهْم»[3].

وزاد الفيزيائي ألفرد متر[4] الأمر وضوحًا بقوله «إنّ إيمانَ المرء بالانفجارِ العظيم، وتوسُّع الكونِ، واتّصال بعضِه ببعض سببيًا؛ لا يسمح للإرادة الحرّةِ أن تجد لها مكانًا؛ لأنّ كُلَّ أعمالِنا -عندها- ليست سوى أثرٍ من آثار الحركة الأُولى في الكون؛ وكلُّ ما يقع بعد الانفجار الأوّل هو تداعٍ قَهْريٍّ للحركة وما يتبعها من فِكْرٍ»[5].

نحن إذنْ أَسْرى الجبريّة منذ اللّحظةِ الأُولى لنشأة الكونِ، وما كان لنا أن نَسِيْرَ

---

(1) Cited in: Terence L. Nichols, *The Sacred Cosmos* (Oregon: Wipf and Stock Publishers, 2009) p.15

(2) Alex Rosenberg, *The Atheist's Guide to Reality*, p.195

(3) Stephen Hawking, *The Grand Design* (New York: Random House Publishing Group, 2010), p.32

(4) ألفرد متر Alfredo Metere: متخصص في الفيزياء النظرية والذكاء الاصطناعي. يعمل في المؤسسة البحثية «International Computer Science Institute».

(5) Alfredo Metere, Does free will exist in the universe?, *CosmosMagazine,* 18 JULY 2018 < https://cosmosmagazine.com/physics/does-free-will-exist-in-the-universe-that-would-be-a-no >

بعد 13.7 بليون سنة على خلاف ما نحن عليه اليوم، فالحركة الأولى للكونِ قاضيةٌ على كلِّ موجود أن يسيرَ على حالٍ واحدٍ، لا يحيدُ عنها ولا يزيغ. إنّنا مجرّدُ قِطَعِ «دومينو» تتداعى حركاتُها تباعًا مع تساقطِ حبّات الزَّمَنِ، دون قدرةٍ على مقاومة اندفاع الأحداث الكونيّة السابقة نحو مصير أفعالنا وخواطرنا.

ويحاول الملاحدةُ المنكرون للإرادة الحرّة الانتصارَ تجريبيًّا لمذهبهم بالزَّعْمِ أنّ البحث العلميَّ قد أثبت أنّ الدّماغ يختار القرار قبل بضع ثوانٍ من وَعْيِ الإنسان بقرارِه. وهي دعوى قد تمّ الردُّ عليها علميًّا[1]. ويبقى أنّ العلم لم يثبت أي شيء في هذا الباب. وتبقى حجّة الإلحاد قائمة حصرًا على ماديّة الكون وعشوائيّته.

والسؤالان المتفجّران ضرورة بعد الاعترافات السابقة لملاحدةٍ أعلامٍ؛ هو: لماذا يجتهدُ هؤلاء لدعوتنا إلى الإلحاد إذا كان الإلحاد ليس خيارًا، بدءًا؟ ولماذا نُدان في كتابات داوكنز وإخوانه؛ إذا كنّا بلا خيارٍ أن نختار الكفر بالإيمان؟!

لا جواب سوى الصَّمت.. الذي لا يعقُبه غير الصّمتِ!

إنّ إنكار الإرادة الحرّةِ مقدّمةٌ لسيلٍ من التناقضات التي لن يملك الملحد صدَّها؛ فهي ستظهر في كلِّ أَمْـرِه، حتّى عندما يدافع الملحد عن الجبريّة؛ لإبطالِ حريّة الإرادة.. ومن ظريف هذا الباب أنّ سام هاريس في كتيّبه الشهير الذي ألّفه تحت عنوان «حريّة الإرادة» -وهو أكثرُ الكتب الإلحاديّة في السنوات الأخيرة صراحةً في تناول موضوع عنوانه- قد انتهى بعد تقريره أنّ الإرادة الحرّة وَهْمٌ ساذجٌ، شديد السَّذاجة، إلى أنّه سعيدٌ بهذا الكشف الذي يُقدّمه بصدقٍ إلى القارئ، داعيًا قارئه إلى

(1) Alfred Mele, *Free*: *why science hasn't disproved free will* (New York: Oxford University Press, 2015), pp.26-39

وانظر أيضًا في بيان أوجه الخطأ والمغالطة في الربط بين التجربة المجراة وانتفاء حرية الإرادة:

Victoria Saigle, Eric Racine; and Veljko Dubljevic, 'The Impact of a Landmark Neuroscience Study on Free Will: A Qualitative Analysis of Articles Using Libet and Colleagues' Methods', *AJOB Neuroscience* 9(1):29-41, January 2018

أن يسعى جهده إلى التخلّص من وَهْمِ حريّةِ الإرادة، رغم أنّ سعادة هاريس -بناءً على مذهبه الفيزيقانيّ[1]- مجرّدُ وَهْمٍ، واعتقادُ هاريس وهمَ غيرِه، مجرّد وَهْم، وظنُّه أنّ غيره يملك أن يختارَ ويرفض عن وَعْيٍ، مجرّدُ وَهْمٍ؛ وكلُّ تلك الأوهام أثرٌ آليٌّ عن تفاعلاتٍ فيزيائيّة وبيولوجيّة مَحْضةٍ.

ومن ظريف فعل هاريس -أيضًا- أنّه في كتابه سالفِ الذِّكْرِ قد شكرَ زوجتَهُ أنّها ساعَدَتْهُ في أمر إعداد الكتاب.. وذاك عجيبٌ! لأنّنا سنسألُ بِحيرة -غير بريئةٍ-: لمَاذا يَشْكُر هاريس زوجتَه التي لا إرادة لها، ولا اختيار، ولا يشكر طاولته أو لوحةَ المفاتيح أو الكمبيوتر أو الكرسيّ الذي كان يجلس عليه حين الكتابة؟ فقد شاركَتْ كلُّ تلك الأشياء -مع زوجةِ هاريس- في خدمة المؤلّف أثناء تأليف الكتاب. إنّها كُلُّها أدواتٌ بلا إرادةٍ، وقد أفادت في إعداد الكتاب؛ ولا فضيلةَ للزّوجة على الكرسيّ الذي لا يملك المؤلّف أن يجلسَ للكتابة دون أن يُسْنِدَ جِسْمَهُ إليه!

ويَظهرُ تناقضُ الإلحاد أيضًا عند توظيفِه الجبريّة لنقض الدِّين؛ فقد كتبَ البيولوجيُّ الملحد العنيدُ جيري كوين[2] في مقالٍ له على موقعِه الخاصّ على الشبكة العنكبوتيّة: «يتمُّ تحديد سلوكيّاتِنا بصورةٍ حصريّة من جيناتنا وبيئاتنا، ولا شيء غير ذلك»[3]. وأضاف أنّ إثبات جبريّة الفعل الإنساني حجّةٌ جيّدة لا بدّ من استثمارها لإثبات فساد الأديان؛ إذ كيف يُعاقِب الربُّ بشرًا بالنّار على فِعْلٍ ليس لهم سبيلٌ لتلافيه؟!

ولكَ هنا أن تسأل كوين إن كان اعتراضُه على الإلهِ أو الدِّين، فعلًا عاقلًا في أصلِه، إن كان بلا إرادةٍ حرّةٍ تملك أن تسمح للعقل أن يفكّر ليفهمَ، ويخطّئ، ويُدين؟! إنّ

---

(1) فيزيقانية Physicalism : فلسفةٌ تُقرّر أنّ كلّ الموجودات ذاتُ طبيعةٍ فيزيائية، وما ليس بفيزيائيٍّ في وجهٍ من وجوهِه؛ فليس بموجودٍ.

(2) جري كوين (1949) Jerry Coyne: بيولوجيّ أمريكيّ ملحدٌ من أصلٍ يهوديٍّ. من أهمّ الرّموز الفكريّة في أمريكا في محاربة التديّن ونظرية التّصميم الذكيّ.

(3) Jerry Coyne, Once again with free will: a question for readers <https://whyevolutionistrue.wordpress.com/2016/08/16/once-again-with-free-will-a-question-for-readers/>.

القضيّة أكبرُ من إنسانٍ يُختبَرُ بلا إرادةٍ حرّة، وإنّما هي في قُدرة دماغٍ بلا إرادةٍ حرّة أن يُنَصِّبَ نفسَهُ حَكَمًا لتقبيح الأديان والإنكار عليها؟!

لقد كان الفيسوف الملحد ريتشارد رورتي أَعْقلَ من كوين؛ لأنّه صرّحَ أنّ الرغبة في «الحقيقة» مسلكٌ «غير دارويني». إنّنا هنا أمام كائنٍ غير مريد، وبالتالي غير مُتوجّهٍ إلى الحقيقة، وإنّما هو متوجّه إلى نفسِه، إنْ صحّ أن نقول إنّ له وجهة؛ ولذلك فلا سبيل إلى أن تصل إلى إدانة الدّين بأيّ شيء؛ لأنّه عاجزٌ عن التفكير العاقلِ في غياب الإرادة الحرّةِ..

كلُّ اجتهادٍ فكريٍّ لإقناع القارئ أنّ الإرادة الحرّةَ وَهْمٌ؛ واقعٌ في الذُّهول عن أنّ صاحبه عاجزٌ عن الوصول إلى تلك الدّعوة عن اختيارٍ، وأنّ المتلقّي عاجزٌ عن تبنّي هذا المذهب عن اختيار. = كلُّ قولٍ، بغير الإيمان بحريّة الإرادةِ، مجرّد لَغْوٍ.

الاستنارة المظلمة وسيادة الوهم

ما الإلحاد على أَلْسِنة أعلامِه؟ إنّه تلك الثّورة الغاضبة على الخرافة، والرّغبة الصّارمة لتغيير العالم.

ولكن ما الإنسان إذا كان مادّة محضةً، ولا شيء غير النّبضات والدّفقات، وتسلّط أحداثِ الماضي على حاضِره؟

أين إمكانُ الثّورة إذن؟ وأين آمالُ الاستنارة في واقع الجبريّة المظلم؟ كلّ فكرةٍ تجول في الخاطر -عندها- وهمٌ سافر بلا حقيقةٍ!

وأَعْجبُ ما في الأمر أن تجدَ هؤلاء المنكرين لحرية الإرادة يفخرون بمنجزاتِ الملاحدة، وتضحياتهم، وأنّهم «مفكّرون أحرار» «Free Thinkers» قد ثاروا على

الواقع وكفروا بمسايرة المألوف، وقرّروا صعود قممِ المعرفة، وإن أَنْهَكَهُم المسير، ورفضُوا سكينةَ القرار في القاع، وإن كان الإخلاد إلى الأرض مريحًا، مستحضرين عباراتِ نيتشه في تمجيدِه للسُّوبرمان الذي يبني بيتَه على سفح الجبلِ ويبغض السّهول الوديعة.

ولكن حين الثرثرة الفلسفيّة، يعودُ الملاحدة إلى القول إنّنا بلا إرادةٍ حُرّة، وإنّنا شيءٌ مثل بقيّة الأشياء على هذه الأرض، لا نملك شيئًا من أنفسنا.. إنّه التناقضُ الواضح الصّارخ.. والإقرار الفصيح أنّ الملحد لا يملك الفكاك عن الخرافة، رغم أنّ شِعارَهُ في محاربة المؤمنين بالله، عنوانه استنقاذهم من «الخرافة»!

يقول عالم النّفس -من جامعة هارفارد- دانيال وجنر[1] في كتابه «وَهْمُ الإرادة الواعية»[2] إنّ حريّة الإرادة محضُ وَهْمٍ. إنّ أفعالَنا مجرّدُ استجابةٍ آليةٍ لأسبابٍ فيزيائيّةٍ أُولى. وفي حوارٍ صحفيّ معه، يعترف أنّ حريّة الإرادة وَهْم دائمٌ، لا يكاد يغادرنا الإحساس به حتّى يعود مرّة أُخرى. «وعلى الرّغم من أنّك تعرف أنّها خدعة، إلا أَنّك تنخدع في كلّ مرّةٍ»[3].

ولا سبيل للخروج من هذه الثُّنائية -ثنائية الحقيقةِ والوَهْمِ: حقيقةُ أنّنا نلبس ثوب الجبريّة، ووَهْم أنّنا ننعم بمنّةِ حريّة الإرادة-؛ فهي عند الملاحدة قَدَرُنا الذي لا فكاكَ عنه. وهذا أمرٌ يظهر في حياتنا اليوميّة -كما يقولون-؛ فهذا رودني بروكس-عضو أكاديمية العلوم الأسترالية، وعالم الروبوتات- يُخبرنا أنّ الإنسان ليس إلّا كيسًا كبيرًا من الجِلْدِ، قد مُلِئَ بالجزيئات الحيوية، وأنّه هو -بروكس- في بيته، عندما ينظر إلى

(1) دانيال وجنر Daniel Wegner (1948-2013): عالم نفسٍ أمريكيّ. درّس في جامعة هارفارد. عضو الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم.

(2) The Illusion of Conscious Will

(3) Overbye, Dennis. "Free Will: Now You Have It, Now You Don't." *The New York* Times January 2, 2007

أبنائه، ويضغط على عقله، بإمكانه أن يراهم مجرّد آلاتٍ.. لكنّه يضيف أنّه عندما يقترب منهم، لا يعاملهم باعتبارهم آلاتٍ، وإنّما يتدفّق منه الحب نحوهم عفويًا.. ليعترف في النّهاية أنّه يحمل مجموعتين من الأفكار المتعارضتين؛ الجبر والاختيار[1]!

ويأتي التصريح بوجوب التعايش مع التناقض في عبارة الفيلسوف الملحد سلنجرلاند[2] بقوله: «نحن روبوتات مصمَّمة لأن لا تُصدِّقَ أنَّنا روبوتات» « We Are Robots Designed Not to Believe That We Are Robots »[3].

فالوهم أنّنا أحرارٌ جزءٌ من بنيتنا التي لا نملك بَتْرَ بعضها.

ولكن إذا كنّا نحن روبوتات؛ فكيف لنا أن نُدرك حقيقة أنّنا روبوتات؛ إذ إنّ الروبوت لا يعقل، وإنّما هو شيء مُبرمَج، لا يَبذلُ من المعلومات إلّا ما وافق ما أُدخل في منظومته؟! إنّ المُدخَل إذا كان عشوائيًا من صنع الطبيعة العمياء؛ امتنع تصديق المخرجات.. وهكذا نجد أنفسنا في تناقض جديد في الوعي الإلحاديّ الذي يزعم أنه يَعلم ما طبيعته ألّا يُعلَم.

ما المخرج الإلحاديّ؟

يجيبنا سميلانسكي[4] بقوله: «إنّه لا سبيل لأن نعيش مع وَعْيٍ كاملٍ على أنّنا بلا حريّة إرادة؛ ولذلك فإنّه علينا التمسُّكُ بتلك المعتقدات المركزيّة وغير المتماسكة أو المتناقضة في قضيّة الإرادةِ الحُرَّةِ!»[5].

ويقدّم لنا داوكنز نموذجًا عظيمًا لمحنة العقل الملحد المتعايش مع التناقضات؛

---

(1) Rodney Brooks, *Flesh and Machines*: *How Robots Will Change Us* (New York: Pantheon, 2002), 174

(2) إدوارد سلنجرلاند Edward Slingerland: أستاذ في جامعة British Columbia. باحث في الأديان والأخلاق وعلم النفس التطوري.

(3) Edward Slingerland, *What Science Offers the Humanities*: *Integrating Body and Culture* (Cambridge: Cambridge University Press 2008), p,281

(4) سول سميلانسكي Saul Smilansky: أستاذ الفلسفة في جامعة حيفا في فلسطين المحتلّة.

(5) Saul Smilansky, *Free Will and Illusion* (Oxford: Oxford Press, 2000), p.187

فقد حدَّثَنا في مقالتِه «لنوقف كلُّنا باسيل عن ضربِ سيّارته» عن القصّة (التلفزيونية) لباسيل فولتي الذي يضربُ سيّارته بشدّة عندما تتوقّف عن العملِ، بعد أن يُحذّرها، ويمهلها لِتَتُوبَ عن عِنادها، وكأنّها واعيةٌ تملك أن تختار قبل أن تعمل..

ساق داوكنز القصّة السابقة ليقول إنّ علينا أن نضحكَ من فعل القاضي الذي يحكم بالإدانة على الجاني -أيّ جانٍ، مهما كانت جِنايتُه- كما نضحك من فعل باسيل حين يُدين سيارته، وينتقم منها بالضرب.. وحقّ الضّحك مكفولٌ في الحالين؛ لأنّ الإنسان كالسيّارة لا يملك من أمره شيئًا، وجنايتُه لا تختلف في شيء عن توقّف السيارة عن العمل؛ لأنّ ذلك مجرّد أَثَرٍ آليٍّ عن حال معادنها، وأسلاكها، والجو في الخارج، والطُّرقات والأسفلت... وكذلك فِعْلُ القاتل والمغتصبِ، ما هو إلّا أثرٌ آليٌّ لمكان ولادته وزمانها، والأسرة، والمدرسة، والمجتمع، وبرامج التلفزيون التي يشاهدها، ووجبة الإفطار، ومخالطة الخلّان...

ختم داوكنز مقالته، بعد أن أخبرنا أنّنا نعيش وَهْمَ حريّة الإرادة، بقوله: «فكرتي الخطيرة هي أنّه علينا في نهاية الأمر أن نرتقيَ فوق هذا الأمر، بل وأن نتعلّمَ أن نضحك منه، تمامًا كما نضحكُ على باسل فولتي عندما يضرب سيارته. لكنني أخشى أنه من غير المحتمل أنْ أَصِلَ إلى هذا المستوى من التّنوير»[1].

إنّ الملحد في عالم الإلحاد يعيش أسوأَ كابوسَيْنِ، أولّهما أنّه بلا إرادةٍ حرّةٍ؛ بما ينفي عنه كلَّ فضيلةٍ يدَّعِيها؛ فثورتُه على الخرافة والخرافيّين، مجرّدُ خرافة، وسعيُه لتنوير العالم، فعلٌ بارد؛ لأنّه سرابٌ، لا حقيقةَ له على الأرض.

وثانيهما أنّ سرابَ حريّة الإرادة حقيقة لا انفكاك عنها، ولو اجتهد الإنسان وَجَدَّ كلّ الجدّ ليحتفظ بوعيه أنّه بلا إرادة حرّة.. إنّه عاجز عن تكذيب ما يعلم كذبه، وملزم أن يُصدّق ما يُدرك أنّه وهم ساذج.. وشرّ ما في الأمر أنّ الملحد مُلْزَمٌ أن يقيم حياته،

(1) Richard Dawkins, Let's all stop beating Basil's car
<https://www.edge.org/response-detail/11416>

بأفعالها، وهواجسها، وآمالها، وأحزانها، وأتراحها، وأفراحها على هذا الوهم.. إنّه يظنّ أنّ له أُفُقًا مُشرِقًا يسعى أن يُدركه، وهو في حقيقته، لا يرى شيئًا، إنّه أعمى ويحسب نفسه بصيرًا إذ يتعلّق بسراب..

الوَهْمُ قَدَرُ الملحدِ؛ فلا انفكاك له عنه.

وإذا صدَّقنا كلام داوكنز السابق، لَزِمَنا أن نُدين داوكنز وكتاباته الإلحادية: «وَهْم الإله» و«تجاوز الإله» و«صانع الساعات الأعمى» و«أعظم استعراض فوق الأرض»؛ لأنّها كتاباتٌ كُتِبَتْ بإرادة في التّنوير ليس لداوكنز فيها أدنى إرادةٍ.. وللأسف لا أمل في توبة داوكنز عن هَجْمتِه على الأديان لأنّه قد فَجَعَنا باعترافه أنّه «من غير المحتمل أن يصل إلى هذا المستوى من التنوير».

ما أنتَ في عالم الإلحاد؟

إنّك شيء لا يُفكّر، ولا يحسّ، ولا يحبّ.. حتّى ارتعاشةُ القلب استجابةً لخاطر الحبِّ، شيءٌ لا قيمة له؛ لأنّها مجرّد استجابة آليّةٍ من كيانٍ ماديٍّ لا يحمل عاطفةً حقيقيّةً في جَوْفِه.. ولذلك على «الملحد العاقل» ألّا يقول لزوجتِه: «أنا أُحبّك!»؛ إذ هو لا يملك فؤادًا، وإنّما عليه أن يقول لها بصدق: «زوجتي.. إنّ الدُّوبامين قد أغرقَ النّواة المذنّبة في دِماغي!»؛ فما الحبُّ غير عمليّةٍ غير إراديّة لها علاقة بالدّماغ والهرمونات والأعصابِ.. إنّنا -إلحاديًا- لا نُحبُّ، ولا نعشق، وإنّما نُظهر في أنفسنا مظاهرَ خادعةً للحبّ في استجابة للكيمياءِ الفائرة فينا.. إنّنا هنا كائنات بلا عاطفة صادقةٍ، وإنّما هي كتلةٌ من العَضَلِ تُسمّى قلبًا تدفعُ الدَّمَ في اتجاهِ العُروق.

إنَّ إنكار الإرادة الحرّة ليس قضيّةً نظريّةً، يتداول أطرافَها المترفون ذهنيًا من الثرثارين، وإنّما هي دعوى لها ضريبةٌ عمليّةٌ مُشاهَدةٌ؛ وهي اعتقادُ الإنسان أنّه لا

حريجة من إيذاءِ الغير؛ لأنّ الفاعل مسلوبُ الإرادة، فما يجترحه من آثامٍ لا يُحسب ضمن منكراتِه؛ لأنّه لم يختَرْهُ؛ فهو مجرّدُ آلةٍ تستثمِرُ البنية الفسيولوجيّة لصناعة مجموعةِ أعمالٍ ماديّةٍ تَظْهَرُ على الجوارح دون اختيارٍ واعٍ.

وقد كشف باحثان من جامعتين أمريكيتين في دراسة لهما نُشرت في مجلّة «Psychology Science» أنّ الإيمان بالجبريّة يُعزّز ظاهرةَ الكَذِبِ والخيانة، من خلال تجربة تمّتْ على مجموعةٍ من المشاركين تعرّضوا بكثافة لمفهوم الجبريّة. وقد انتهى الباحثان إلى أنّ السِّجال حول حريّة الإرادة قضيّةٌ لها تداعياتٌ مجتمعيّةٌ خَطِرةٌ[1].

وذاك ما أكّدَتْهُ تجاربُ أُخرى أجراها متخصّصون، منها تجربةٌ شاركَ فيها طلبةُ جامعات، قُدّمت فيها لهم تقريرات لعلماءَ يدافعون فيها عن إنكار واقعيةِ حريّة الإرادة، ثم طُلِبَ من هؤلاء الطلبة أن يُقدّموا وجبةَ طعامٍ لمجموعةٍ من الناس لا يُحبُّون الأكل المخلوط بالبهارات؛ فقدّموا لهم أكلًا بهاراته كثيرة، رغم أنّه قد قيل لهم إنّ الجالسين عليهم أن يأكلوا ما يُقدّم لهم، دون خيارٍ[2].

وقد لخّص جري كوين حقيقة الأمر بصيغة إيجابيّة (!)؛ عندما زعم في محاضرة له عنوانها: «أنت لا تملك إرادة حرّة»، في مؤتمر بعنوان: «تصوَّرُوا لو أنّه ليس هناك دِيْنٌ» (!) أنّ لإنكار وجود الإرادة الحرّة فضيلة عظيمة، وهي أن تتخلّص من شُعور الذَّنْبِ كُليّةً، وتعيشَ بلا ضمير يُؤَنِّبُكَ، وأن تنتقلَ لتسويغ أنانيّتك من لَوْمِ الأُسرةِ أو الزوج أو المجتمع إلى ألّا تلوم أحدًا؛ فآثامُكَ بضعةٌ من بنائك الفيسيولوجيّ[3].

---

(1) Vohs, Kathleen. Jonathan Schooler. "The Value of Believing in Free Will." *Psychological Science*. Volume 19—Number 1. 2008. 49

(2) Alfred R. Mele, *Free*: *Why Science Hasn't Disproved Free Will,* pp. 4-5

(3) Jerry Coyne (2015), "You Don't Have Free Will" <https://www.youtube.com/watch?v=Ca7i-D4ddaw>

ذاك هو الملحد؛ يؤمن أنّه آلةٌ، وأنّه آلةٌ واعية تُدرِك أنّها بلا إرادة؛ رغم أنّ الوعي يحتاج إرادةً مُدْرِكَةً حتّى تتمكَّنَ النَّفسُ من التقدُّمِ للوصول إلى فهم الواقع.. والملحدُ يؤمن أنّ عليه أن يتعايشَ مع خرافة الإرادة الحرّة لأنّه يعجز أن يختارَ أو يتحرّكَ أو يردّ الفعل إذا واجه حقيقةَ أنّه بلا إرادةٍ.. ثم هو يدعو إلى مجتمعٍ أخلاقيٍّ، مع عِلْمِهِ أنه مجتمعٌ مسلوبُ الإرادة، وأنّ عِلْمه أنّه لا توجد إرادةٌ حُرّةٌ سيأكل من ضميره الذي يؤنّبه إذا اجترح سيّئة...

أن تكون مُلحِدًا هو أن تصنع خرافةً، ثم تتعايش معها، وَتَجْلِدَ بسيفِ «العِلْم!» من لم يُتابِعْكَ في إيمانك بالخرافة.. وكلُّ ذلك صارِفٌ عن فَهْمِ الحكمة في خلقِ الكون، والحكمة من رسالات الوحي.

نفيُ الإرادةِ الحرّةِ من لوازمِ الإلحادِ الماديِّ، ومُبْطِلٌ لكلِّ فضيلةٍ أخلاقيّةٍ أو معرفيّةٍ يَدَّعِيْها الملحِدُ.

نهاية معنى وغيبة غاية

﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ ﴾[طه:124]

«وجودُ الإنسـانِ كان نتيجةً لعمليّةٍ طبيعيّةٍ بـلا هدفٍ؛ لم تَضَعْهُ في الاعتبارِ في البدء»[1].

عالم الأحافير

جورج غايلورد سنمبسون

(1) G. G. Simpson, *The Meaning of Evolution*: *A study of the history of life and of its significance for man* (New Haven, CT: Yale University Press, 1967), pp.344-345

الحياة في الإسلام

الحياة في التّصوير القرآنيّ فصلٌ من قصّة طويلةٍ، لها سباق ولحاق. أمّا سباقها فهو إخبار الربّ سبحانه أنّه سيَخْلُقُ بَشَرًا ليكون خليفةً في الأرض، وأمّا اللَّحاق؛ فهو أنّ البشر يُجزون في الآخرة عن الخير إحسانًا، وعن الشرّ عذابًا وخسرانًا..

والإنسان المسلمُ في هذه الحياة يفهم الحياةَ أنّها مجالٌ للعملِ والابتلاء. قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ (الكَهْف/ 7). ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ (البَلَد/ 4)..

والإنسانُ على هذه الأرض، مُختَبَرٌ في ما يملك وما يُحِبُّ؛ بأن يُفتنَ فيه، أَيَصْبِرُ أم يَجْزَعُ، قال تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ (آل عمران/ 186).

وهو يعمل في الأرض لإصلاحها؛ فَسَعْيُه في الخير فيها، نَبْعٌ من ينابيع المعنى، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود/ 61)، قال ابن كثير: «أيْ: جعلكم فيها عُمَّارًا تعمرونها وتستغِلُّونها»[1]. وقال صلّى الله عليهِ وسلَّمَ: «ما مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أو يَزْرَعُ زَرْعًا فيأكلُ منه طَيْرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ، إلّا كان له به صَدَقةٌ»[2].

فهل للحياة في الرؤية الإلحاديّة معنى؟

وهل أفلح فلاسفة الإلحاد في صناعة معنًى للإنسان العَدَمِيِّ؟

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 3331/ 4.

(2) رواه البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أُكل منه (ح/ 2320)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع (ح/ 1552).

الإلحاد حين يَنْحَرُ معنى الحياة

انتقل الإلحاد بالإنسان من عصر المرجعية المتجاوزة للكون (الوحي) إلى عصر المرجعيّة الكامنة في الكون (المادة)، حيث المادة أصل كلّ شيء. وذاك يلغي من الوعي الإنساني كلّ الكليّات التي تصنع الآفاق الشائقة في عالمنا. وفي غياب الآفاق، يختفي إمكان السعي إلى «معنى»؛ فالحياة حركة عابثة بين مَهْدٍ ولَحْدٍ، تؤزّها الدوافع والمثيرات الطينيّة الدانية.

إنّ مشكلة العصر -منذ أن صار الإلحاد مُوجِّهًا للحركة الفكريّة في الغَرْبِ، وهادمًا للرُّؤَى الدينيّة التقليديّة-، هي نهاية المعنى؛ فقد أُلغي المعنى لصالح العَدَمِيَّة التي جعلت الآفاق كُلَّها في قبضة الضَّباب. وهو ما أَوْرَثَ كثيرًا من الناس في الغرب[1] أمراضًا نفسيّة حادةً، تمنعهم الاستمتاعَ بالحياة؛ حتّى قِيل إنّ عُصَاب[2] العصر هو فَقْدُ معنى الحياة.

وقد نَبَّهَ إلى ذلك عالم النّفس فكتور فرانكل[3] الذي أَسَّسَ مدرسةً لِعلم النفس سمّاها (لوغوثيرابي logotherapy)، أي المداواة بالمعنى -وهو أحد الذين سَجَنَهُمْ هتلر في المعتقلات-؛ فقال: «كانت غرف الغاز في أوشفيتز[4] النتيجة النهائية لنظرية أن الإنسان ليس سوى نتاج الوراثة والبيئة، أو كما كان النازيون يحبّون أن يقولوا: نتاج: «الدَّمِ والتُّرْبة». أنا مقتنع تمامًا بأن غُرفَ غازِ أوشفيتز... تَمَّ إعدادُها في نهاية المطاف... في قاعاتِ محاضرات العلماءِ والفلاسفةِ العَدَمِيِّين»[5].

(1) لا نقول إنّ الغرب قد صار عدميًا صرفًا، وإنّما نقول إنّ العدميّة قد تسلّلت إلى عدد من أوجه تفكيره، بلا وعي منه أو بوعي.

(2) عُصاب Neurosis : مرضٌ نفسِيٌّ، يَشْعُرُ المبتلى به بفقد الاتّزان بسبب الخَوْفِ، دون أن يُصاحِبَ ذلك تغيُّرٌ في الجهاز العصبيّ.

(3) فكتور فرانكل (1905- 1997) Victor Frankl: عالم نفسٍ نمساويٌّ. دَرَّسَ في جامعة فيينا. أَسَّسَ سنة 1970 في كاليفورنيا أوّل مؤسسة للوغوثيرابي. تُرجمت كتبه إلى عشرات اللُّغات.

(4) أوشفيتز Auschwitz: منطقة في بولندا كانت فيها معسكرات الإبادة النازية.

(5) Viktor E. Frankl, *The Doctor and the Soul*: *From Psychotherapy to Logotherapy* (New York: Vintage Books, 1986), xxvii

المعنى.. تلك الكلمة السَّاحرة التي سال لأجلها الحِبْرُ منذ فجر التاريخ، ولأجلها أَجْهَدَ النَّاسُ أنفسَهم دون كَلَلٍ. تلك الكلمة التي تطارد الجميع، فاشِلَهم في حياة الناس، ومن فاز منهم بالثَّراء والشُّهرة والسُّلطان، تزورهم كلَّ حين خلوة، تَنْقُر قلوبهم ليسألوا أنفسَهم عن نهاية السَّماء ومرسى الأُفق، ولتسألهم عن حياتهم؛ هل هي انحدارٌ صامتٌ إلى القبر؛ فلا ثمرةَ غير الجَنْي القريب للمُتع، أم أَنَّ وراء آفاقِ سمائنا ميزانٌ وجِنانٌ؟

والمعنى الذي يُطلب في الحياة للحياة، أَسيرُ أمرَيْنِ، أوّلهما مطابقةُ صورة المعنى في الذِّهن لحقيقتها خارج وَعْيِنا؛ فإنّ المعنى مطلبٌ عظيم لأنّه حصيلةُ الصِّدْقِ. وثانيهما التّناسق، وكلُّنا باحثٌ عن صورةٍ للعالم متناسقة، لا تتضارب مفرداتها، ولا تتشاكس مبانيها.. وحيث لا تناسق؛ لا معنى. إنّنا نبحث عن التناسق بين المقدمات والنتائج، وبين الأُصول وما يُبنى عليها، وبين أنفسنا وما حولنا، وبين ما سبقنا وما بين أيدينا..

وفي ظلال البحث عن المعنى، يحق لنا أن نسألَ: مَنْ نحنُ، وما هذه الحياة في وجود إلحاديٍّ صِرفٍ؟

كتبَ الفلاسفةُ -منذ عُرف للفلسفة كتاب مزبورٌ- في سؤال المعنى، لأنّه سؤال ملازم للعقل والقلب، وللفكر والعاطفة، وللحسّ والشوق. وهو لا يزال يشغل فلاسفة الإلحاد خاصة؛ لأنّه يرسم لهم طريقهم الخاص بعيدًا عن مسالك أهل الملل والنِّحل؛ حتّى قال فيه ألبير كامو[1] -الفيلسوف الملحد الوجوديّ- إنّه أكثر الأسئلة العاجلة التي تطلب جوابًا[2]. هو سؤال مهمّ وجادٌّ وعاجلٌ لأنّ في النفس تَوْقًا شديدًا للسعادة ومعقوليةِ الفِعل. هو سؤال عظيم، عبّر كامو عن خطورته بقوله: «لا توجد

(1) ألبير كامو (1913-1960) Albert Camus: فيلسوفٌ وروائيٌّ ومسرحيٌّ فرنسيٌّ من مواليد الجزائر. تدور فلسفَتُه حول واقع العَبَثِ النَّاتجِ عن كونٍ بلا معنى وعقلٍ واعٍ. حصل على جائزة نوبل للآداب سنة 1957. من أهمّ مؤلّفاته: «الطَّاعون».

(2) Albert Camus, *The Myth of Sisyphus*, ed. Justin O'Brien (New York: Vintage, 1983), p. 4

سوى مشكلة فلسفية واحدة خطيرة، وهي الانتحار. الحُكْمُ على ما إذا كانت الحياة تستحقُّ أن تُعاش أم لا، هي الإجابة على السُّؤال الأساسيّ للفلسفة»[1]. إنّنا عند سؤال المعنى، نسأل عن قيمة وجودنا، وجدوى انتحارنا.

لا تنطق المادة -التي لا يعترف الملاحدة بسواها- بمعنى الحياة؛ لأنّها صامتةٌ تحتاج من يُبيِّنُ عنها؛ لكنّها ترسم للوجود معالمَ إذا سُلّط عليها النَّظَرُ، أَمْكَنَ للعقلِ أن يُدركَ بعض حقيقة الوجود. ويبقى كلُّ ذلك رهينَ الرؤية الكونيّة التي تصبغ ما نعرفه عن المادة بصبغتها.

يقول لنا الملاحدةُ إنّ وجود الإنسان -من زاوية رؤية زمنيّة- حَدَثٌ عَرَضيٌّ في هذا الكون، طفرةٌ حيويّةٌ لا تلبث أن تختفيَ في وجودٍ مُظلِمٍ، والإنسان من زاوية مكانيّة، بنية عضويّة جُلّها من الماء، تدور حول نجم قزم مملٍ، في مجرّةٍ صغيرة، ضمن مجموعةٍ محلية من المجرّاتِ قليلة الأفراد. ذاك واقع الإنسان، وتلك معالم كونه كلّها؛ فلا وجود لغير الذرّات وحركتها. ولا يُرجى من كونٍ هو أشبهُ بِلُعب الأطفال -حيث الأشياء تتحرَّكُ لمحض الحركة، لا تتجاوزها إلى غايةٍ عُلْيا-، أن يكون هناك معنى متجاوز transcendental، أسمى من هذا الواقع.

إنّ سبب وجودنا -كما يقول الملاحدة- كامنٌ في هذه الأرض، ولم ينزِلْ من السَّماء. إنّنا هنا على هذه الأرض -بعد بضع بليون سنة من تَشَكُّلِها- بسبب أخطاء نَسْخِيَّةٍ متكررة، ظلّ الانتخابُ الطبيعيُّ يُهذّبها مرارًا؛ وينقل أجناسَ الأحياء من طورٍ إلى آخر، من الكائن أحادي الخلية الأوّل إلى الإنسان العاقلِ، دون إرادةٍ أو اختيار، وإنّما يسوقنا الزمن الأعمى إلى حيث لا يدري..

وقد عبّر عن ذلك عالم الأحافير الشهير اللاأَدْرِيّ ستيفن جاي غولد بقوله: «نحن هنا لأنّ مجموعة غريبة من الأسماكِ لديها بنية مميّزةٌ للزَّعْنَفَةِ يمكن أن تتحوّل إلى

---

(1) Ibid., p. 3

أَرْجُلٍ لمخلوقاتٍ أَرضيّةٍ؛ ولأنّ الأرض لم تتجمَّدْ كُليًا خلال العصر الجليديّ، ولأن الأنواع الصّغيرة والضّعيفة التي نشأَتْ في إفريقيا منذ ربع مليون عام، قد تمكّنَتْ حتى الآن من البقاء على قيد الحياة باستعمال الطُّرقِ المتاحة. قد نتوق إلى «إجابةٍ أعلى»، لكن لا توجد أَيُّ إجابة من ذاك النوع»[1].

وبمثل ذلك قال الفيزيائيّ الملحد الشهير شون كارول[2] في كتابه ذائع الذِّكر «الصُّورة كاملةً»: «نحن البشرُ، لُطَخٌ من الطِّينِ المنظَّم الذي طَوّر القدرةَ على التفكير -من خلال الأعمال غير الإرادية لأنماط الطبيعة-، والاعتزاز بالنّفس، والتعامل مع التعقيدِ المخيفِ للعالَمِ من حولنا... المعنى الذي نجده في الحياة ليس متجاوزًا لهذا العالم»[3].

عالَم المادة المتحوّلة بالطَّفرات العشوائيّة، عالَمٌ لا يُبالي بشيء، لأنّه بلا إحساسٍ، ولا ألوانٍ، ولا طُعومٍ، فقط الحركةُ العمياءُ مظهر حياته؛ ولذلك فالحياة في التصوّرِ الإلحاديّ، بلا معنًى، ولا غايةٍ.. **فالوجود بسيط بلا عمق، ورخيص بلا قيمة. الأشياء صِفريّةٌ، بلا اعتبارٍ، والقِيَمُ وَهْمٌ بلا حقيقةٍ.** الخيرُ والعَدْلُ والإيثارُ، قِيَمٌ جَبَلْنَاها بأيدينا -طَوْعًا أو قَهْرًا بِجِيْناتِنا- حتّى لا تُطْبِقَ المرارةُ اللاذعةُ للحياة على أنفاسِنا الأخيرةِ.

إنّ الإلحاد يرفضُ أن يكون للوجودِ معنًى، ويرى ذلك لَغْوًا من القول ووَهْمًا في العقل؛ حتى قال فرويد: «اللَّحظةُ التي يتساءَلُ فيها المرءُ عن معنى الحياة وقيمتها، هي إعلانٌ لمرضه؛ لأنّه من الناحية الموضوعية، لا وجود لأيّ منهما»[4].

(1) Stephen Gould, “The Meaning of Life,” Life Magazine, December, 1988 <https://www.maryellenmark.com/text/magazines/life/905W-000-037.html>

(2) شون كارول (1966) Sean Carroll: فيزيائي أمريكي. متخصص في الكوسمولوجيا والجاذبية وميكانيكا الكمّ. له مساهماتٌ في جَدَلِ فلسفةِ الدِّين في كتبه ومقالاته.

(3) Sean Carroll, *The Big Picture* (London: Oneworld Publications, 2016), p.3

(4) Letter of August 14, 1937 (Cited in: Liran Razinsky, *Freud, Psychoanalysis and Death,* Cambridge: Cambridge University Press, 2012, p.248.)

«الحياة ليست في الأساس بحثًا عن المتعة، كما يعتقد فرويد، أو بحثًا عن السُّلطة، كما دعا إلى ذلك ألفريد أدلر، وإنّما هي بحثٌ عن معنى. أكبرُ مهمّةٍ لأيّ شخصٍ هي إيجادُ معنًى في حياتِه»[1]. فكتور فرانكل.

في وجود إلحاديٍّ، تَحْكُمه المادة الصِّرفة، لا يمكن تأسيسُ أيّ قيمةٍ معرفية أو سياسية إيجابية حقيقةً في ذهنِ صاحبِها؛ فإنّ المعنى الإيجابيَّ يحتاجُ وُجودًا إيجابيًّا يُبنى عليه مُعْتَقَدٌ وفِعلٌ وموقِفٌ. ضمن التصوّر الإلحاديّ، يعجزُ الملاحدةُ عن أن يدافعوا عن المقولات الخلُقية والسياسية التي يتجمّلون بها على الشّاشات؛ فليس في الإلحادِ مكانٌ لتأسيس دفاعٍ عن الليبرالية، والاشتراكيةِ، والشيوعيّة وكُلِّ النُّظُمِ البشريّة لتنظيم حاجاتِ النّاسِ..

إنّ الرؤية الإلحاديّة تُعدم معنى «التقدّم» ذاته؛ إذ الحياة لا تعرف غاية عليا ثابتة تتجه إليها، وإنّما هي حركة انتقال لا حركة ارتقاء، وتدحرج من اليفاعة إلى الشيخوخة، ومن العافية إلى المرض، ومن حماسة الاستمتاع إلى ضمور الشهوة، ومن وفرة الآمال إلى ضيق الآفاق.. في غياب المرجعية المفارقة للمادة، والغاية المتعالية على الحركة العابثة؛ لا يمكن للمرء أن يرسم طريقًا للاستعلاء؛ فإنّ طبيعة الحياة أنّها انحدار وانحطاط لا يقاومان؛ لأنّها تستنصر على الإنسان بضعف بنيته مع كرّ الأيام، وغياب دوافع المغالبة في حياة الاغتراب.

ومن غريب الحال -وهو حالٌ مُتكرّرٌ في الجماعة الإلحاديّة- أن تجدَ غير الملحد أَشَدَّ وَعْيًا بحقيقة لوازمِ الإلحاد؛ فهو يُدركُ مبادئ الإلحاد وإلى أينَ لا بُدَّ أن تنتهيَ مقالةُ الملحد؛ ولذلك ينقبض صدرُه عند التفكُّرِ في الرؤية الإلحاديّة، ويَتَعَكَّرُ مزاجُه؛

(1) Viktor E. Frankl, Man's Search for Meaning (Boston: Beacon Press, 2015), p.x

حتّى تَطْلُبَ نفسُه أن تُغَيِّرَ مكانها لِتَتَنَفَّسَ هواءً نَقِيًا طَلْقًا بعد هذه اللَّحظات في أحضان الكابوس وبين أصابع المأساة؛ فإنّ عَدَميّة الإلحاد ضغطةُ يدٍ صلبةٍ بلا رحمة على عُنُق إنسانٍ، تمنعُ عنه نِعمةَ الأنفاس في وجودٍ مُفَرَّغٍ من المعنى..

خُذْ مَثَلًا حديثَ داوكنز عن موقفِ ناشرِ كتابه الأوّل بعد استلامِ نسخةٍ منه؛ فقد اعترفَ هذا الناشر لداوكنز أنّه لم ينم ثلاثَ ليالٍ متواصلةٍ بعد قراءة كتابه؛ فقد رأى فيه رسالةً «باردةً وكئيبةً». **وقال آخرون لداوكنز إنّهم يَعْجَبُونَ كيف بإمكانه أن يتحَمَّلَ أَمْرَ الاستيقاظِ كُلَّ صباحٍ لمواجهة يوم جديدٍ.** وكَتَبَ له مُدرّسٌ أَنَّ أَحَدَ تلاميذِهِ جاءَهُ باكيًا بعد قراءةِ الكتابِ لأنّه اقْتَنَعَ أنّ الحياة «فارغة، بلا غاية»؛ فطَلَبَ منه المدرّس أَلَّا يعطيَ الكتاب إلى زملائه؛ حتى لا ينتشر بينهم «التشاؤم العَدَمِيُّ»[1]

لم يُفكّر داوكنز بعد هذا الخبر الذي ساقه، في الظُّلمة التي صَنَعَها، والتي لا يتحمّلها إنسان يفكّر فيها، وفي تبعاتها، وإنّما ساق داوكنز إثر ذلك عبارةً لصاحبه الكيميائي الملحد بيتر أتكنز[2] تؤيّد مذهبه، لما فيها من عبارات اليأس والكَرْبِ؛ إذ قال: «نحنُ أبناءُ الفوضى... في أساسِ الوجودِ، لا وجودَ لغير الفسادِ، وموج الفوضى الذي لا مثيل له. لقد اندثرَت الغاية من الوجود... هذه هي الكآبة التي يجب علينا قبولها ونحن ندخل بعمق وبِشَفَقَةٍ في قَلْبِ الكَوْنِ»[3].

إنّنا مجرّد وَمْضةٍ بين أَزَلٍ وأَبَدٍ لانهائيَّيْن مُظْلِمَيْنِ، ليس فيهما بَشَرٌ. وليس في هذه الوَمْضةِ غيرُ حرارةِ الحياة، وشرارة الحركة، دون بريقِ المعنى..

---

(1) Richard Dawkins, *Unweaving the Rainbow*: *Science, Delusion and the Appetite for Wonder* (New York: Houghton Mifflin, 2010), p.ix

(2) بيتر أتكنز Peter Atkins (1940): كيميائيّ إنجليزيٌّ. عُضْو «الجمعيّة الملكيّة للكيمياء». شارك في عدد من المناظرات في مواجهة علماء وفلاسفة مؤلّهة. يُعرف بخطابه الإلحاديّ الحادّ.

(3) Ibid

عندما يفقد الإنسان معنى الحياة؛ يعجز أن يرى نفسه في مرآة الوجود؛ فإنّه لا ينعكس على هذه المرآة غير مَلْمَح المعنى.

من «معنى الحياة» إلى «معنى في الحياة»

كيف الفرار من أَزْمةِ العَدَميّةِ، وأنّ الحياة بلا معنًى أصيلٍ، وأنّنا نسير إلى الخراب ضرورةً؛ فلا أمَلَ؟

ما طُرِحَ أَمْرُ عَدَمِيَّةِ الحياةِ في المناظراتِ مع الملاحدةِ، إلَّا وأَجابَ الملاحدةُ باستعراضِ القشّةِ الأخيرة التي يتشبّثون بها بهذا الوجود المتدحرجِ على مُنْزَلَقِ الفراغ؛ قائلين إنّنا لا نؤمن بمعنًى للحياة meaning of life وإنّما نحن نؤمن بمعنى في الحياة meaning in life؛ أي: إنّنا نؤمن أنّ الحياة بلا معنًى حقيقيٍّ لها؛ فالحياة عَبَثٌ واضح، صارخ، تلفَحُه الرّيح البارِحُ[1]؛ فلا معنًى في الحياة يُكتشف؛ لأنّها بَلْقَعٌ، وإنّما نحن نَصْنَعُ المعنى في هذا الوجود حتّى لا تكون حياتنا بلا معنى. إنّنا نصنع المعنى بالعلم والفنِّ والكتابة والرَّقصِ...

ومن هؤلاء الذين عَبَّرُوا عن الدَّعوى الإلحاديّة السّالفة، الفيلسوف الملحد كاي نيلسون[2]، بقوله: «إنَّ عَدَمَ وجود غَرَضٍ للحياة لا يعني أنه لا يوجد غرضٌ في الحياة... لا يوجد شيءٌ قد صُنع الإنسانُ من أجله، ولكنْ بإمكان الإنسان أن تكون له غاياتٌ، وله -حقيقة- غايات؛ بمعنى أنّ لديه أهدافًا ومرامات وأشياء يجدها جديرة بالاهتمام والإعجاب»[3]

(1) البارِحُ: الرِّيح الحارَّة في الصيف.

(2) كاي نيلسون (1926) Kai Nielsen: فيلسوف غزير التأليف، له عناية بفلسفة الدِّين والدّفاع عن الإلحاد. عضو المجمع الملكيّ الكنديّ.

(3) Kai Nielsen. *Atheism and Philosophy* (New York: Prometheus, 2005) pp. 221-222

ويحلو لكثير من الملحدين التعبير عن المعنى السابق بأسلوب استعلائيٍّ مغرور، لا يدرك حقيقة المحنة بعد تلك الكلمات، بقولهم: إذا كانت الحياة بلا معنى، فلِمَ أَخْدَعُ نفسي بإلباسها معنى؟

نعم، إنّ عامّة الناس يزعمون أنّهم يُبغضون الوَهْمَ، ومنهم الملحدُ الشعبويّ؛ فالوَهْمُ شيءٌ لا حقيقةَ له.. ولكن يطفو هنا سؤالان على سطح أَذْهانِنا، يَطلُبان جوابًا.

السّؤال الأوّل يقول: لماذا لم يُنْتِج التَّطَوُّرُ الداروينيّ إنسانًا قادرًا على الحياة بلا معنى، إذا كانت الداروينيّة قادرةً عندكم على أن تصنع كلّ شيء، بما فيه المعنى الوهميّ؟

والجواب.. لا جواب؛ فإنّ الداروينيّة تُستَدْعى لخدمة المقولات الإلحاديّة، وتُغيَّبُ في غير ذلك؛ فهي مثل سائق سيارة التاكسي؛ يوصلك حيث تُريد، ثم ينصرف بلا عودة.

وأما السّؤال الثاني فيقول: ما الفرق بين هؤلاء الذين يعيشون الحياة التي يعلمون أنّها يقينًا بلا معنى، على أنّ فيها معنى، وهو معنى ظرفيّ، زائل، ومن يتعاطَوْنَ الهيروين للاستمتاع للحظاتٍ أو لساعاتٍ للهُروب من الواقع؟

لا شيء!

إنَّ كُلًّا منهما يعلم أنّه يبحث عن سعادةٍ زائفة في وجود بائس جدًّا، وحزينٍ جدًّا، ولاذع جدًّا.. بل قُلْ إنّ من يتعاطى الهيروين أَصْدَقُ من الملحد الهارب إلى المعنى المجبول بيد الوَهْمِ؛ لأنّه مُدركٌ أنّ سعادَتَهُ زَيْفٌ، وأنّه لا بدّ أن تنتهي النّشوةُ المؤقّتة وتبرد حرارتها؛ ليكتشف من جديد قُبْحَ واقعِه.

كما أنّ من يتعاطى الهيروين لا يبيعُه الناسَ على أنّه حَلٌّ دائم لأَزْمَتِهم؛ في حين أنّ الملحدَ الذي يتحدّث عن المعنى المصنوع للفرار من المقدور، سرعان ما ينزلق من وَهْمِ «الخلاص» الفرديّ إلى وهم «الخلاص» الجماعيّ؛ فيبيع وَهْمَهُ إلى غيره باعتباره حقيقةً عظيمة تستحِقُّ أن يَبْذُل لها الإنسان حياتَه. وهكذا تتحوّلُ

معاني التّضحية بحياةٍ بلا معنى لأجل اللّامعنى، مقدّسًا له معنى؛ فالعدالةُ، والحريّةُ، والتكافلُ، عباراتٌ لِقِيَمٍ موضوعيّةٍ مُطْلقةٍ يَرَى الملاحدةُ أنّها تستحِقُّ أن تكون مَهْرَ نَصَبِنا اللّاهثِ في هذه الحياة..!

الملحدُ -في الحقيقة- لم يصنعْ معنى في الحياة، وإنّما هو يبحث عن مُخَدِّرٍ يمنعه الإحساس بمرارةِ الحياة؛ فإنّ أَقْسى الأوقاتِ على الملحد هي لحظاتُ الخَلْوةِ بالنَّفْسِ؛ حيث يُواجه قلبه في ظُلْمَةِ غرفة تمنع جدرانها عَيْنَيْهِ أَنْ تَتِيْهَا في وَهْمِ ضجيج النَّاسِ. هي لحظات عصيبةٌ؛ لأنّ حبيس الجدران سيسأل نفسَهُ -قَهْرًا- عن نفسِه وطريقِها، ومآلها، وضريبةِ أنفاسِ هذه الحياة: ماذا بعدُ؟ وإلى أينَ؟ وهل تستحِقُّ الحياةُ كلَّ الجهد وهذا الصَّبر المسترسل بلا انقباضٍ..؟ هي الأسئلةُ التي جعلت الكاتب اللّاأَدْرِيَّ -المفارق للنّصرانيةِ- بارت إيرمان[1] يقول: «لقد كان الخوفُ من الموتِ يُطاردني لسنواتٍ، ولا تزال تَنْتابني لحظاتُ الخوفِ إلى اليوم عندما أستيقِظُ في اللَّيلِ وقد تَبَلَّلْتُ بِعَرَقي البارِدِ»[2].

إنّ هذا التخديرَ لا يجدي في إخماد قلق الملحد -إلى حين- إلّا إذا كان الملحد لا يعرف أنّ الحياة بلا معنى؛ فإنّ الأطبّاء قد يُعطون المرضى دواءً وَهْمِيًا placebos (حبوب سكر)؛ لإيهامه -إن كان يعتقد أنّ شفاءه لا يأتي إلّا بالأقراص- أنّ الطبيب قد لَبَّى طَلَبَهُ؛ فذاك مفيدٌ لِنَفْسِيَّتِهِ، وقد يُحَفِّزُ البَدَنَ لإفراز المهدّئات الكيميائيّة بعد اقتناع المريض بالوهم.. ولكنّ هذا الدواء الوهميَّ لا يُفيد المريضَ إذا كان المريضُ يعلم حقيقته، وأنّ الطبيب يداويه بالوَهْمِ.. فإنّه كُلَّما ازدادَ عِلْمُ المرء أنّه أمام وَهْمٍ، ضَعُفَت استجابَتُه البدنيّةُ والنفسيّةُ للدواء الوهميّ...

(1) بارت إيرمان (1955) Bart Ehrman: أستاذ في جامعة University of North Carolina. يُعَدُّ من أشهر الباحثين اليوم في الدراسات الإنجيلية وتاريخ المسيح والكنيسة الأولى.

(2) Bart Ehrman, *God's Problem*: *How the Bible Fails to Answer our Most Important Question— Why We Suffer* (New York: HarperOne, 2008), p. 127.

وهروب الملاحدة إلى القول إنّه علينا أن نواجهَ عُقْمَ الحياة بأن نعيش الحياة كأنّ لها معنى؛ إمعانٌ في طَلَبِ الوَهْمِ؛ فإنّ الحكمةَ الواعية تقضي أن نتصرّف كُلَّ حينٍ بما يُوافق طبيعة الحال، وإلَّا صِرْنا كالمجانين؛ نَضْحَكُ عند حزنٍ، ونزهو عند مَظْلَمَةٍ، ونفخر حين عار... إنّ الشجاعة إذا خلت من الحكمة صارت حماقةَ تَهَوُّرٍ.

ومن أوهامِ الملاحدةِ قولُهُم إنّ معنى الحياة أن نُحِبَّ من يُحبّنا، الزَّوج والأولاد والأصدقاء.. ولكنّ الحياة الفارغةَ من القيمة لا تجعل الحبّ فضيلةً، وإنّما الحبّ هنا استجابة غريزيّة مَحْضةٌ. والحبُّ وحدَهُ لا يصنع سعادةً لأنّه مجرّد رغبةٍ تطلبُ الرّواء والامتلاء في حياةٍ بلا قلبٍ. ونهايةُ المطلب هنا أن تتعايش مع واقعِكَ حتّى لا تموت كَمَدًا ووَحْشةً؛ ولذلك يحتاج الملحد ليستطعم معنى الحياة شيئًا أكبر من لغة التعايش مع القطيع بصورة ظرفيّة؛ بأن يطلب معان كبرى تستحقّ أن يتجرّع لأجلها غُصص الألم إن اضطرَّ إلى ذلك.

إنّ المعاني التي يخترعها الملاحدة، قد تكون نفسها سياط العذاب في حياتهم؛ إذ إنّ من يعيش لولَدِهِ؛ سيفقده يومًا في لحظة وداع بلا عودة، ومن يعيش لثروته؛ سيتركها عند حدود رَمْسِه، ومن يعيش لصحبته؛ سيغفل عنه أصحابه يومًا ما، طوعًا أو قسرًا... وهي المحنة التي صرخ بها برتراند راسل عندما اكتشف أنّ الموت يترصّد بمن يُحِبّون وما يُحَبّون..

وقد شاهدت فيديو أَنْتَجَتْهُ شركةٌ كوريّةٌ صَنَعَتْ فيه مقاطع ثلاثيّةَ الأبعاد لِبِنْتٍ صغيرةٍ على صورة بِنْتٍ حقيقيّةٍ ماتَتْ في سِنِّ السّابعة من عُمُرِها. ثم عَرَضَت هذه الشركة هذا الفيديو على أُمِّها المكلومةِ، بعد أَنْ أَلْبَسَتْهَا ما يُوضَعُ على العَيْنَين ليرى المشاهِدُ المقطع وكأنّه حقيقيٌّ أمامَهُ. وَقَفَت الأُمّ وهي تنظر إلى ابنتها بشوقٍ، وتحاورها بِدَمْعٍ، وتحاول أَنْ تُرَبِّت بيدَيْها عليها، وأنْ تَلْمَسَ وَجْهَها وشعرَها بشوقٍ غامرٍ، وهي تسألُها بعفويّة قلبِ الأُمِّ النّازفِ: «هل أنتِ بخيرٍ؟! هل أنتِ بخيرٍ؟!»..

مَنْ هي تلك الأُمُّ الباكية؟

إنّها «نحن»، «كلّنا»، فِطرتنا التي تتوجَّعُ بالموت وفَقْدِ الأحبّة، قلوبنا التي تتفطَّرُ عند مُواراة جُثّة حبيبٍ، عيونُنا التي تبحث عن طيفِ غائبٍ.. إنّ عِلْمَنا أنّ البِنْتَ المتحرّكة أمامنا ليست -في حقيقتها- فلذةُ الكَبِدِ التي فَقَدْناها، وإنّما هي صور إلكترونيّة، لا يمنعنا أن نعيشَ لحظةَ الوَهْمِ كأنّها حقيقة؛ لأنّ الحبَّ الذي يُحقّق المتعةَ بعيدٌ عن لحظةِ الوَصْلِ التي نعلم أنّها تنقطع بموت يُنْهيْنَا من الوجود ومن نحبّ؛ فلا عودَ، ولا وَصْلَ.. إنّ حُبًّا في عالمٍ نهايتُه القَبْرُ، جَلْدٌ للذَّاتِ عند ذكرى الفِراقِ..

وأيُّ مُتعةٍ في حياةٍ قصيرةٍ؛ يأتي الموتُ فيها عند طلب الحصاد؛ إنّها أَشْبَهُ بمن يدخل متجرًا لبيع أجمل اللِّباسِ وأثمنه؛ فيختار أغلاه وأكثره إبهارًا، ولكنّه لا يُعطَى مطلبه إلا بمقابل، وهو أن يصعد سلاليم المحلّ منذ دخوله حتّى خروجه، ليتصبَّبَ لذلك عرقًا غزيرًا، وتَكلَّ رِجْلُه من الصُّعود لنزولٍ ثان.. ثمّ هو يعلم مع ذلك أنّه ما إن يخرج من هذا المتجر سعيدًا بما في يديه من لباس؛ حتّى يدهسَهُ قطارٌ وُكِّلَ به؛ فيدقُّ عظامَهُ، ويتركه مزَعًا من اللَّحْمِ؟! هي إذن لَذَّةٌ بِنَصَبٍ ومَشَقَّةٍ لاهثةٍ، وهي قصيرةٌ بلا مُدَدٍ؛ فما أن يبلغ المرءُ أقصى مطلبِه الماديِّ ويمضي بصحبته مدّةً قصيرة -مهما طالت-؛ حتّى ينقبضَ وَتَرُ الموت ثم يرتخي؛ فيتركُه ما به من حَبَضٍ[1] من سهم الحِمام القاتل.

والمشكلةُ الأكبرُ في أمر المعنى المخلوق، أنّ الحماسة التي يُبديها الملاحدة لمعاني العَدْلِ والكرامة البشريّة والرُّقِيِّ، تتجاوز حجمًا القيمَ ذاتيّة الصُّنْعِ والأهدافَ الشخصيّة.. فإنّ الملحد الذي يطلب العدالة وإكرام الإنسان دون اعتبارٍ لجنسه -مثلًا- مضطرٌّ أن يؤمن أنّ هذه القيم، موضوعيّة، ملزمة للجميع، يستحقّ منكرها النكير. إنّك لن تكون مخلصًا للمعنى القِيميّ الذي تختاره إذا لم تقتنع أنّ غيرك ملزم أن يشاركك الإيمان بصدقها..

(1) الحَبَض= التحرُّكُ. يقال: ما به حَبَضٌ ولا نَبَضٌ، أي حَراكٌ.

وقد ظهر بين الملحدين العَدَمِيّين من يدعو إلى التحرّرِ من الاحتلال الأجنبيّ، وسَرِقَةِ ثروات الشُّعوب. ودافعَ آخرون منهم عن العِلْمِ ووجوبِ دَعْمِهِ والانتصار لكشوفه. ووقف الفريق الأوّل والثاني للتّشهير بالمخالفين، ولاتهامهم بالانحراف الأخلاقي والسقوط القيمي..وذاك لا يلتقي -البتّة- مع إيمان هؤلاء الملاحدة أنهم يعيشون لأَجْلِ مَعَانٍ مخلوقةٍ لا مكتَشَفةٍ، ذاتيّةٍ لا موضوعيّةٍ..

إنّ المعنى الوحيد الذي من الممكن أن يعيش له الملحد بصورة ذاتية وصدق، هو الاستجابة الحيوانية لِنَهْمَةِ القُوَّةِ، وجَوْعَةِ البطن، وشَهْوَةِ الفَرْجِ؛ فإنّ الملحد لا يحتاج هنا إلى أن يشعر أنّ غيره يُشارِكهُ هذا الهمَّ أو أن يعترفَ له الناس أنّ فِعْلَهُ فضيلةٌ.. ولكنّ الملحد سينتهي بذلك إلى أن يكون بهيمةً صادقة في بهيميَّتِها، تعيش لأجل حافزِ الجوعةِ وقرص الشهوة. وسيفقد وجودُهُ كلَّ أُفُقٍ؛ لأنّ مطلبه ينتهي عند مطلب لذَّة الجَسَد.. وكلّما أَخْلَصَ الملحدُ الصَّادق لِنَهْمَتِهِ الغريزيّة؛ ضَعُفَ إحساسُه بقيمة هذه المتعة؛ لينتهيَ به الأمرُ في الأغلب إلى مجموعةٍ من الأمراض النفسيّة والإحساسِ أنّ الحياة رخيصةٌ بلا قيمةٍ. وذاك مصير المنتحرين من الأثرياء؛ فإنّ اليأس من الحياة لا يكمن فقط في العجز عن بلوغ اللذة، وإنّما يعود أيضًا إلى الإسراف في تعاطي اللذة حتّى تفقد قدرتها على إرواء العطش ..

والملحد إذا رضي بقانون صناعة المعنى لا اكتشافِهِ؛ فلن تنتهي صورةُ العالَمِ إلى القصّة الجميلة التي يرسمها لنا؛ حيث الناس يستمتعون بحياتهم مع أحبابهم دون قلقٍ؛ إذ إنّ صناعة المعنى ستنتهي أيضًا -ضرورة- إلى ظهور هولاكو ونيرون وشارون، وسيفتح ذلك باب القتل والنّهب والاغتصاب على مِصْراعَيْهِ.. فليس للمعنى المخترَعِ قانونٌ يَضْبِطُ أجناسَهُ وحدوده؛ إنّه الإبحارُ في متاهات الوَهْمِ بلا ساحلٍ.. وإذا شاء ملحدٌ أن يُوقِفَ شِراعَهُ في هذا البحر عند شراع غيره؛ لتكون سعادتُه كَسْرَ مجاديفه حتّى يغرق؛ فلا تثريب عليه!

إنّ الملحد عاجزٌ ضرورةً أن يكون صادقًا مع نفسه في مواجهه الحياه الفاقدة للمعنى؛ ولذلك يجنح كثيرٌ من الملاحدة إلى التعلّق (بكذبة بيضاء!)؛ وهي أن يعيش الإنسان وكأنّ للحياة معنى. وذاك الجبنُ ملازمٌ للملحد؛ لأنه لا يملك أن يستيقظ كلَّ صباحٍ، ويرفع جسدَهُ المُنْهَكَ عن الفِراش؛ لمواجهة شمسِ اليومِ الجديد، مع عِلْمِه أنّ كل شيء يسير إلى الفَنَاء: نفسه، وفِراشه، وبيته، والشَّمس التي ترسل الضّياء كلّ صباحٍ جديدٍ على أرضٍ بلا حياة غير دبيبِ الموت الذي يَدُقُّ أبوابَ الأحياء بلا استئذانٍ.

كلمةُ «معنى» في حياة الملحد، لا معنى لها؛ لأنّ المعنى لا يكون إلّا موضوعيًّا؛ ليطابق الواقع، وأمّا الاستجابة إلى الغرائز؛ فتُسمّى رغبة في الاستمتاع بأشياء العالم، دون طلبِ المعنى. وقد حرص عامّة فلاسفة الإلحاد العَدَمِيِّ على الكشف عن معنى الوجود لا اختراعِه؛ لأنّ الاستجابة إلى الغرائز تنتهي إلى إحراق الإنسان بنارِ غريزته.

وينصح الفيلسوف الملحد توماس ناجل الإنسان الممتحَن بالحياة الفارغة من المعنى، بأنّ عليه أن يُبقي نظرَهُ قائمًا على ما يواجه بَصَرَهُ بصورةٍ مباشرة،[1] أي أن يمنع نفسه من النظر إلى الحياة بكلّيّتها، وأن يتعامل معها بصورةٍ ضيّقةٍ تقتصر على مطالبِه الحياتيّة العاجلةِ فحسب. إنّه يدعو الملحد إلى أن يقتل كلّ سؤالٍ جادٍّ في عقلِه، وكلّ شوقٍ غامرٍ في صدره. إنّه يدعوه إلى أن يختزل الوجود كلّه في غرفتِه، وطريقِه إلى عملِه، ومجالسِ أُنْسِه مع صَحْبِه؛ لا يتجاوز ذلك إلى أن يفكر في مفهوم الإنسان، والحياة، والخلود، والمعنى، والقيمة. إنّه إخلادٌ إلى الأرض ورِضًى بالدُّونِ. إنه عالَمٌ بلا فِكْرٍ، وبلا أَمَلٍ.

وقد أحسن المخرج والممثل الأمريكي الشهير وودي آلن التعبير عن الصِّراع

(1) "The trick is to keep your eyes on what's in front of you."

الذي يعيشُه الملحد، ومأزق نفسه بين يأسٍ واقعٍ وكذبةٍ خادعةٍ يُجَمِّلُها كلَّ يوم. فقال في أحد اللقاءات الصحفيّة: «هذه هي وجهة نظري في الحياة، وقد كانت كذلك طوال حياتي. لدي نظرة قاتمة جدًّا ومتشائمة عنها. كنت كذلك منذ أن كنت طفلًا صغيرًا. لمْ تَسُؤْ تلك النَّظرةُ مع تقدُّمِ العُمُرِ. أَشْعُرُ أنّها تجربةٌ قاتمة ومؤلمة وكابوسيّةٌ لا معنى لها، وأن الطريقة الوحيدة التي يمكنك أن تكون سعيدًا بها، هي أن تخبر نفسك ببعض الأكاذيب وتخدعَ نفسَك. لكنني لست أَوَّلَ شخص يقول هذا أو حتى الشخص الأكثر وضوحًا. قِيل ذلك من قِبَلِ نيتشه.. قِيلَ من قِبَلِ فرويد.. قيل من قِبَل يوجين أونيل. يجب على المرء أن تكون له أوهامٌ حتّى يعيش. إذا نظرْتَ إلى الحياة بأمانةٍ وبوضوح شديد، تصبحُ الحياةُ لا تطاق لأنها قاتمةٌ للغاية»[1].

إنّ الملحد يعيش بين شَرَّيْنِ، قاسِيَيْنِ، جارِحَيْنِ؛ **إمّا أنْ يواجه الحياة التي تُثِيرُ «الغثيان»** -بعبارة الفيلسوف الملحد سارتر-، **أو أن يعيش كذبة يُدرك أنّها مُخَدِّرٌ يحتاج أن يَسْتَنْشِقَهُ كُلَّ صباحٍ حتّى لا تَجْفُلَ نفسُه إلى اليأس والانتحار.**

إنّ العَدَمِيَّةَ لا تملِكُ رسالةً غير أنّ الحياة بلا رسالةٍ، وأنّه لا معنى حين يُطْلَبَ المعنى.. إنّها تعلِنُ أنّ العالم، يتحرّك في اتّجاهِ نفسِه؛ ولذلك يملِكُه العَبَثُ، ويغشاه التّناقضُ في كلِّ أَمْرِه.. إنّ النهاية هي التَّمَوُّتُ الحراريُّ في عالم طاقَتُه وُجِدَتْ لِتَفْنى، وحركتُه تفورُ لِتَهْمَدَ، ولا يمكن للملحد أن يعيش شيئًا من السعادة إلّا بأن يرضى بالتناقض، بل أن يَسْعدَ به؛ فيقيمُ وجودَهُ على العَدَم، ويفرح بمآلِهِ الجَدِبِ.

ولعلّ أفضل سبيل لنكشف عجز الإنسان أن يكون ملحدًا، صادقًا في رفضه أن يكون للحياة معنى، أن نقرأ سيرة أعظم من دافَعَ عن لامعنى الحياة في تاريخ الفلسفة الحديثة؛ لِنَمْتَحِنَ إمكان ما لا نرى إمكانه: أن تعيش لمعنى في حياة بلا معنى.. وليكن هؤلاء أَشْرَسَ مَنْ دافَعَ عن لامعنى الحياة بين الناس في مؤلّفاتهم التي لا تزال رائجةً إلى اليوم..

(1) فيديو وودي آلن: Woody Allen’s Perspective on Life:
<https://www.youtube.com/watch?v=lsnxoRfXLqs>

شوبنهاور:

شوبنهاور، الفيلسوفُ الألمانيُّ الذي اشتهر باسم «الفيلسوف المتشائم»؛ فالحياة عنده بائسةٌ بلا معنى، وحقيقتُها أنّها صراعٌ طويل وشاقٌّ من أجل تحصيل العَدَمِ. وأشنعُ ما فيها أن يجتمع فيها واجبُ معايشةِ المعاناة والوَعْيِ بحتميّة الموتِ؛ وذاك ما يخلق -كما يقول- لدى البشر الرّغبةَ في أن يكون هناك معنى للحياة.

أين الخلاصُ؟

يُخبرنا شوبنهاور أنّ طريق النّجاة من لامعنى الحياة هو في الفرار منها لا في مقاربتها؛ وذلك بإخماد الرّغبة في ملذّاتها؛ فالغاية من الحياة هي القضاء عليها لا استبقاؤها. وقد رأى شوبنهاور البشرَ تَسُوقُهم إرادة الحياة إلى طلب الصّراع معها؛ فاستخفَّ بهم وبها؛ لأنّ الحياة لعنةٌ، لا تُقاوَمُ بالمعاندة، وإنّما تُتَجاوزُ بإماتةِ الرّغبة فيها.

إنّ المعنى المفقودَ للحياة لا يُتجاوز باختلاقِ معنى مزيّفٍ أو وَهْمِيٍّ لها، وإنّما تُواجَهُ العَدَمِيَّةُ بالإقرار بها، والتسليم لعبث المحاولة، والإنكار على الرغبة في المصاولة... وهي نظرةٌ واقعية من ملحِدٍ عَدَمِيٍّ، لا يَشِيْنُها سوى أنّ صاحبها أَنْكَرَ أن يكون الانتحارُ هو الحلّ؛ لأنّه بزعمه لا يقودُ إلى نهاية المأساة؛ رغم أنّ الإلحادَ هو التعبير الأعظم على الوَعْيِ أنّ الحياة جحيمٌ لا تَعْقُبه جَنَّةٌ.

لقد رأى شوبنهاور أنّ لامعنى الحياة يمنعنا من أن نجتهد لاختراع المعنى!

نيتشه:

تأَثَّرَ نيتشه بملهمه شوبنهاور، واستمَدَّ جوهرَ فلسفتِه منه؛ وهو أنّ الوجود في ذاته بلا معنى، ولا قيمة، ولا غاية.. ويعبّر نيتشه عن نهاية المعنى، ولوازم ذلك، بكلمته الشّهيرة: «لقد قَتَلْنَا الإلهَ!».. لكنَّهُ لم يتوقَّفْ عند تلك العبارة؛ فذلك أَوَّلُ القَطْرِ، وإنّما قالَ مباشرةً بعدها: «... لقد قَتَلْناهُ أنا وأنتم. كُلُّنا قَتَلَهُ. ولكنْ كيف فَعَلْنَا ذلك؟ كيف

استَطَعْنا أن نشربَ البَحْرَ؟ مَنْ أعطانا إسفنجةً لِنَمْسَحَ بها كامِلَ الأُفُق؟ ما الذي فعلناهُ عندما فَكَكْنَا هذه الأرضَ عَمَّا يَرْبِطُها بِشَمْسِهَا؟ إلى أينَ تَتَحَرَّكُ الأرضُ الآن؟ إلى أين نحن نتحرَّك؟ بعيدًا عن كُلِّ الشُّموس؟ أَلَسْنَا نهوي إلى الأَسْفَلِ بصورةٍ مستمرّة؟ إلى الخَلْفِ، إلى الجَنْبِ، إلى الأمام، إلى كلّ الاتجاهات؟ هل تَبَقَّى أعلى وأَسْفَل؟ أَلَسْنَا نَضِلُّ عَبْرَ عَدَم لانهائيٍّ؟ أَلَسْنَا نُحِسُّ بأَنْفاسِ الفَضَاءِ الفارغ؟ أَلَمْ تُصْبِحْ أَكْثَرَ بُرُودةً؟ أَلَمْ يُطْبِقْ علينا اللَّيْلُ بِصُورةٍ مُتَواصِلةٍ؟ هل نحتاجُ أَنْ نُشْعِلَ الفَوَانِيسَ في الصَّبَاحِ؟»[1].

ولمّا أراد نيتشه أن يُعرّف العَدَمِيّة، قال: «إنّها تعني أنّ أعلى القِيَم تَسْلِبُ نفسَها قيمتَها. الهدفُ مفقودٌ. سؤالُ: «لماذ؟»، لا يَجِدُ إجابةً»[2]. وقال أيضًا: «كلُّ اعتقادٍ، وكلُّ تفكيرٍ في شيء أنّه صحيحٌ، هو بالضّرورة خطأٌ؛ لأنه لا يوجدُ عالَمٌ حقيقيٌّ»[3].

ما سبق من حديث نيتشه بريء من التناقض؛ ففي غَيْبَةِ الإلهِ؛ كلُّ الأشياء سواءٌ؛ لأنّها كلّها بلا قيمةٍ، والوجود كلُّه بلا معنى.. ولكنّ نيتشه نَكَصَ على عَقِبَيْهِ، وحاول أن يصنع في حياةٍ بلا معنى، معنى؛ فزعَمَ أنّ إرادة القُوّة قلب حياة البشر، أو قل السُّوبرمان منهم.. فالإنسان الأعلى يُصارِعُ الوجودَ من أجل النَّصْرِ.. ويقتحم لجج الأهوال لأجل الظَّفَرِ..

ولكن كيف ينتصر الإنسان، والموت يَحْصُدُ كلَّ جهده بِمِنْجَلِ الموت؟

بم أجاب نيتشه سؤالنا؟

كتب نيتشه أنّ الإنسان المهزوم بالموت يعيشُ حياةً متجدّدةً، سمّاها: «العَوْد الأَبَدِيّ».. وهي خرافةٌ شرقيّةٌ تزعم أنّ الإنسان بعد مَوْتِهِ يعود إلى الوجود من جديدٍ ليعيش حياةً جديدةً، في دوراتٍ للموتِ والحياة متعاقبة لا تنتهي.. إنّها الخرافة تلازِمُ الرُّؤيةَ الإلحاديّةَ طلبًا لمعنى معدوم.

---

(1) Friedrich Nietzsche, *The Gay Science,* tr. Josefine Nauckhoff (Cambridge: University Press, 2001), p.120

(2) Friedrich Nietzsche, *The Will to Power* (Digireads, 2019), p.12

(3) Ibid., p.14

لقد فَشِلَ نيتشه في اختبار «المعنى»؛ عندما أقرّ أنّه إذا لم يكن هناك إلهٌ، فلا معنى، ولا قِبْلة، ثم عاد فاخترع معنى إقامةِ أمجادِ القوة والشّجاعة والتحدّي.. ولكنّ هذه القيم لا يمكن أن يكون لها معنى في كونٍ عَبَثِيٍّ حتّى أعماقِه.. ما الفارق بين الشّجاعة والتهوّر والجبن، في وجودٍ لا منتصرَ فيه غيرُ الموتِ والفَنَاء؟! وكيف ينتصر الإنسان إذا كان قَدَرُهُ أن يكون مهزومًا؟! وهل في وَهْمِ العَوْدِ الأَبَدِيِّ أَمَلٌ في انتصارٍ، إذا كان الموت ينتصر في كلّ دورةٍ للحياة جديدة؟!

سارتر:

سارتر فيلسوف الوجوديّة الملحدة الأَوّل في القرن العشرين؛ حتّى وُصِف القرن العشرين بأنّه «قرن سارتر»؛ لأنّه عصر الصّراع من أجلِ المعنى[1]. ذاك الرجل الذي أطلقَ شرارةَ الإلحاد بصورةٍ كبيرة في فرنسا وغيرها من البلاد التي اجتاحتها الوجوديّة.

كيف وجد سارتر المعنى، وهو القائل –موافقًا للفيلسوف باسكال– إنّه إذا كان اللهُ موجودًا؛ فالوجودُ متناسِقٌ، وأمّا إذا لم يكن هناك إلهٌ، فالمكان اللّامتناهي مُثيرٌ للرُّعبِ؟[2]

سارتر هو صاحب المبدأ الوجوديّ الكبير: «الوجودُ يَسبِقُ الماهِيَّةَ»؛ فلا حقيقة لشيءٍ في ذاته؛ وإنّما حركَتُنَا في الأرض هي التي تهبُ الموجودات ماهيَّةً. والإنسانُ مبتلًى «بالحريّة»؛ فنحن أحرارٌ رغم أنفسنا، وعلينا أن نصنعَ معنى لحياتنا بهذه الحرية التي تُقَيِّدُ وَعْيَنَا. إنّ الإنسان –عند سارتر– هو الوارِثُ لِعَمَلِ الإلهِ؛ بإكساب الحياة معنى[3].

مهلًا.. لكنّ سارتر هو القائل: «إنّ الحقيقةَ الإنسانيّة... إذن بطبيعتها حالةُ وَعْيٍ غير سعيدةٍ، دون أيّ إمكانٍ لتجاوز حال البؤس»[4]. فالبؤسُ قَدَرُ الإنسان؛ ولا قيمةً لشيءٍ من عمل الإنسان؛ لأنّ الدعوة إلى الحريّة كالدّعوة إلى نقيضها، والدّعوة إلى

(1) B.H. Lévy, *Le siècle de Sartre* (Paris, Grasset, 2000)

(2) Jean-Paul Sartre, *Notebooks for an Ethics* (University of Chicago Press, 1992), p.494

(3) Christine Daigle, 'Sartre and Nietzsche', *Sartre Studies International* Vol. 10, No. 2 (2004), p.205

(4) Jean-Paul Sartre, *L'Etre et le Néant Essai d'ontologie Phénoménologique* (Paris: Gallimard, 1943), p.134

العدل كالدّعوة إلى الظُّلم.. كلُّ جهد الإنسانِ إلى بَوَارٍ!

كيف استطاع سارتر أن يحتفظ في نفسه بقيمةِ الخير والشرّ والفارق بينهما؟

يُجيبنا سارتر في آخر حياته بقوله: «لقد احْتَفَظْتُ في مجال الأخلاق بشيء متعلّقٍ بوجود الله، وهو الخير والشرُّ كمُطْلَقَيْنِ. النتيجة الطبيعيّة للإلحاد هي إلغاء الخير والشر، وذاك نوع من النسبيّة»[1]. لقد أقام سارتر كامل فَهْمِه للحرية والمسؤوليّة على مفهومٍ دينيٍّ يُنافي كليّة الإلحاد؛ وهو وجود الخير والشرّ الموضوعِيَّيْنِ؛ فكان بناؤه الفلسفيُّ كُلُّه فاقدًا لأرضيّةٍ حقيقيّةٍ يُبنى عليها تَصَوُّرٌ إلحاديٌّ.

وقد عاد سارتر في آخر حياتِه ليعترفَ أنّه أَخْطَأَ في كتاباته الأساسيّة عندما جعل الحريّة أمرًا فرديًا؛ معترفًا أنّ الوعي ينشأ من اختلاط الناس لا من انفرادهم، وأنّ الناس لا يستقِلُّون عن بعضهم عند صناعة المعنى[2]. وعند اختلاط النّاس، والبحث عن معنى مشتركٍ مُلْزِم للجميع؛ لا يملك الإلحادُ أن يُقَدِّمَ شيئًا؛ لأنّ الإلحاد يرى أنّ القيمة صنيعةُ الذّاتِ والذوق الفرديّ؛ ولذلك لا تملك أن تُلزِم الآخرين بمادّتها ومضمونها.

لقد عاش سارتر حياته في صراعٍ للفرار من الله، وصرّح بإلحاده في مكاشفةٍ فَجَّةٍ، وراجت العَدَمِيَّةُ بسبب كتاباته، لكنّه هو نفسُه لم يستطع أن يقتلع الإيمانَ من قلبِه؛ فهو القائل في حواراته مع سيمون دو بوفوار[3]: « أشعر أنّي لستُ مثل هباءَةٍ ظهرَت في العالم، وإنّما أَشْعُرُ أنّي كائِنٌ مُنْتَظرٌ، مُسْتَفَزٌّ، مُجَهَّزٌ مُسْبقًا، ككائنٍ يبدو أنه لا يُمكن أن يَصْدُرَ إلّا مِنْ خالقٍ»[4]. ولم يكنْ ذاك الشعورُ مجرّد طَيْفِ وَهْمٍ يَنْتَابُه بين لحظةٍ وأُخرى، وإنّما كان إحساسًا قهريًا يظهر في كثيرٍ من أفكارِه ورُموزِه في كتاباته.

(1) Simone de Beauvoir, *La Cérémonie des Adieux* (Paris: Gallimard, 1981), p.551

(2) Jean-Paul Sartre, Benny Lévy, *Hope Now*: *The 1980 Interviews* (University of Chicago Press, 1996), p.102

(3) سيمون دو بوفوار Simone de Beauvoir (1908-1986): مفكّرة وجوديّة ونِسوية فرنسيّة معروفة. أشهر عشيقات سارتر.

(4) Simone de Beauvoir, *La Cérémonie des Adieux*, p.551

وقد أحسن أدريان فان دن هوفن في تلخيصِ التاريخ الفكريّ لسارتر بقوله: «لقد توقّفَ سارتر عن الإيمان باللهِ في سنٍّ صغير، لكنَّ صراعه لتطوير لاهوتٍ على أساس إلحاديٍّ ... لم يُحرِّرْهُ من إطار النَّظَرِ المسيحيِّ. بَقِيَتْ حياةُ المسيحِ والمواضيع المسيحيّةُ دليلًا لسارتر لتجربته الخاصة وملهمةً لكتاباته، خاصّةً مسرحياته»[1].

لقد فشل سارتر في صناعةِ معنى في وجود بلا معنى؛ ولذلك اضطرَّ أن يسرقَ من المعنى الدينيِّ جوهَرَهُ؛ لِيُنْشِئَ معنًى إلحاديًّا.

كامو:

أدرك كامو -النَّجْمُ الثاني للوجوديّة الملحد في فرنسا- أنّ العدميّة هي المعضلةُ الكبرى في حياة الإنسان، وأنّ الإلحاد يرسم للإنسان صورةً بئيسة؛ إذ يُرمَى الإنسان في الوجودِ بلا حِكْمةٍ، ولا غايةٍ، ويَظَلُّ يتعنّى المشقّة بلا ثمرةٍ حُلْوةٍ. وانتهى إلى أنّ السؤال الفلسفيّ الأكبرَ هو: هل هذه الحياة جديرةٌ أن تُعاش؟

ما هو الوَهْمُ الذي صنَعَهُ كامو ليواجه به حياة بلا معنى؟

إنّه وَهْمُ «سعادة المكابدة».. أي أنّ الإنسانَ بإمكانه أن يحيا هذه الحياة العاقر، ويكابد المشقّة اللَّاسِعَةَ في طريقِه إلى قَبْره حيث يعلم أنّ جُثَّتَهُ سَتُرَمُّ حتى تصير بعضًا من التُّراب، وسلاحُه أمام هذه الأهوالِ أنَّ المكابدةَ لَذَّةٌ!

وذاك -بلا شكٍّ- هو أعظم الوَهْم؛ إذ كيف تَلْتَذُّ بجهدٍ لا نجاحَ فيه، ومشقّةٍ لا راحةَ بعدها، واجتهادٍ لا جائزةَ له...؟! إنّني لا أملك أن أرى في ذلك إلا مخاتلةً للنّفسِ؛ فإنّ قلوبَنا وعقولَنا لم تُصنع لذلك.. إنّك لا تستطيع أن تُسمّي هذه المأساة تجربةً للنجاح؛ لأنّها لا تمنحُ النجاحَ وجودًا؛ فلا فوزَ ولا عطيّةَ ولا أفراحَ عند الختام.. إنّها مأساةٌ سافرةٌ، وملهاةٌ جارحةٌ.. لا شيء غير الجَدْبِ.. فكيف تكون المشقّةُ العقيمة نفسها السّعادة؟!

---

(1) John H. Gillespie, 'Sartre and God: A Spiritual Odyssey?' Part 2, *Sartre Studies International,* Vol. 20, No. 1 (2014), p.54

ما معنى المكابدة عند اللَّحظة التي تُزَفُّ فيها إلى قَبْرِكَ؟

تُجِيْبُنَا الكاتبةُ الملحدة سيمون دو بوفوار عن رؤيتها لموتها بقولها: «إنّني اليوم أَشَدُّ ما أكون كُرْهًا لفكرةِ إبادةِ نفسي. إنّي أُفَكِّرُ بحزنٍ في كلّ الكتب التي قرأْتُها، وجميعِ الأماكن التي رأَيْتُها، وكلّ المعلومات التي جمعتُها ولن تكون موجودةً بعد الآن. كلّ الموسيقى، كلّ اللّوحات، كلّ الثقافة، أماكن كثيرة.. وفجأةً لا شيء... لن يحدث بعد ذلك شيء. لا يزال بإمكاني رؤيةُ سياجِ أشجارِ البُنْدُقِ وهو يضطرب من الرّياح التي تهبُّ عليه، والوعود التي أطعَمْتُها قلبيَ النّابض بينما كنت أَقِفُ مُحدِّقةً في مَنْجَمِ الذَّهَبِ عند قَدَمي: حياةٌ بأكملها لأعيشَها. لقد تمَّ الوفاءُ بالوعود. ومع ذلك، عندما نظرْتُ نظرةً فاحصةً إلى تلك الفتاةِ الشّابّةِ والسّاذجة، أَدْرَكْتُ معَ ذُهُولٍ كَمْ كُنْتُ مَخْدُوعةً»[1].

لعلَّكَ أَحْسَسْتَ في كلامِ هذه الفيلسوفةِ الشّرسةِ في إلحادها، والعنيدة في مواقفها إلى درجة الوقاحة، كيف ينتهي كلُّ أملٍ أرضيٍّ إلى رمادٍ تذروه الرّيح.. لستُ أُحَدِّثُك عن أَمَلٍ لها بعد الحياة، وإنّما عن آمالها في الحياة.. لحظة التفكّر في الحياة التي يعيشها المرء بقلبِ مُلْحِدٍ، لحظة قاسية، تكشِفُ بِصَفَاقةٍ أنّ كلَّ أملٍ خديعةٌ.. إنّك لن تفكّر في مُتعةٍ أَمْضَيْتَها، وذَكَرْتَ معها الموت، إلا وصارتْ تلك الذِّكرى مرارةً في النَّفْسِ.. ذاك ألم الأمل لمن لا أمل له..

أين المعنى في حياةٍ إلحاديّةٍ عند كامو؟ إنّك لن تراه حتّى تَخْدَعَ ناظِرَيْكَ؛ فترى المأساة قصّةً ثَرَّةً، حُبْلى بالمعنى!

برتراند راسل:

راسل، الفيلسوف متعدّد المواهب، الذي زعزعَ الكنيسةَ بِكُتَيِّبِهِ: «لماذا أنا لَسْتُ مسيحيًّا؟»، والذي مَثَّلَ فريقَ الملاحدة في المناظرة الشهيرة مع الفيلسوف

(1) Simone de Beauvoir, *The Force of Circumstance* (cited in: Joseph Ratzinger, *Faith and Culture,* Chicago: Franciscan Herald Press), 1971, p. 45

كوبلستون[1]، يخبرنا أنّ «الإنسان نِتاجُ أسبابٍ ليست لها بصيرةٌ بالنّهاية التي تسعى إليها؛ فأَصْلُهُ، ونماؤُه، وآمالُه ومخاوفُه، وحبُّه ومعتقداتُه، كلُّ ذلك ليس إلَّا نِتاجًا للتَّواطؤِ العَرَضِيّ للذَّرَّاتِ... وقد قُدِّر له الفَنَاءُ بِفَنَاءِ النِّظام الشَّمسيِّ، ولا بُدَّ ضرورةً أن يُدْفَنَ المعبدُ الكامل لإنجازاتِ الإنسانِ تحت حُطام الكَوْنِ الخَرِب»[2].

وهو الذي لخّص حياة الإنسان بقوله: «قصيرةٌ وبلا قُوّةٍ حياةُ الإنسانِ. يَسْقُطُ عليه الموتُ ببطءٍ وبصورةٍ مؤكّدةٍ، بلا شفقةٍ وبظلمةٍ.. لقد حُكِمَ على الإنسانِ اليومَ أن يخسرَ عزيزًا عليه، وغَدًا يَمُرُّ هو نفسُه عبر بوابةِ الظَّلام»[3].

فما طريقُ الخلاصِ عند راسل، وهو المصرِّحُ أنّه إنْ لم تفترِضْ وجودَ إلهٍ؛ فلا معنى للسُّؤال عن معنى الحياة[4]؟

طريق راسل للخلاص كامنٌ في الدّعوة إلى الدفاع عن المُثُلِ العُلْيا في مواجهة هذا العالم القاسي، وأن يعيش الإنسان لأجلِ محبوباتِه.. ولكن، كيف يَسْعَدُ الإنسانُ وهو يعلم أنَّ حُبَّهُ ومُثُلَهُ سرابٌ زائل؟! ولماذا علينا أن نحبّ؟ هل نُحِبُّ لأنّنا نريد ذلك، أم لأنّ الفرار من ظلمة العَدَمِ يقتضي ذلك؟ إن كانت الثانية؛ فهو حُبٌّ زائفٌ لا حقيقةَ له، كَزَيْفِ ابتسامةِ الخائفِ أو الحزين، وإن كانت الأولى؛ فهو اندفاعٌ غريزيٌّ لا يُورِثُ الحياة معنًى، وإنّما هو شعورُ الفردِ الذي يبحث عن وجودٍ بلا صَدماتٍ، دون أن ينظر أَمامَهُ أو حوله.. هو هروبٌ إلى النفس إن كان يرى قيمة الحياة في الاستمتاع مع مَنْ تُحِبّ، وهو مخادَعَةٌ للنّفسِ إن كان راسل يطلبُ المثلَ العليا؛ لأنّ عالَم المادّةِ دنيءٌ لا يعرف العُلُوَّ؛ وإنّما هي المادّةُ والحركة والعَبَثُ..

---

(1) فردريك تشارلز كوبلستون (1907-1994) Frederick Charles Copleston: مؤرّخ فلسفة إنجليزي. اشتهر بمؤلّفه الضخم: «تاريخ الفلسفة».

(2) Bertrand Russell, *Mysticism and Logic* (Cited in: Mary Poplin, *Is Reality Secular?*, p. 45)

(3) Bertrand Russell (1910), “Free Man’s Worship” <https://users.drew.edu/jlenz/br-free-mans-worship.html >

(4) Joshua W. Seachris, ed. *Exploring the Meaning of Life*: *An Anthology and Guide* (Johanneshov: MTM, 2015), p.83

فلا معنى للعَدْلِ والرَّحمة في عالَم إلحاديٍّ القيمُ فيه ذاتيّةٌ مصنوعةٌ.

أخيرًا.. هل عند مفكّري الإلحاد طريقٌ للنّجاة بمعنى يُطْفِئُ لَوْعةَ الفؤادِ في عالَم الإلحاد القارسِ؟

يجيبك جون مسرلي[1] في خاتمة كتابه «معنى الحياة» الذي تَتَبَّعَ فيه قول عشرات المفكّرين في جوابهم عن سؤال المعنى، بقوله: «على الرَّغْم من بَذْلِنا قُصَارى الجهد، لم نَعْثُر على كلّ ما كُنّا نبحثُ عنه. لا يمكننا مَحْوُ كُلِّ شُكُوكِنا. لا يمكننا تهدئة كلّ مخاوفنا. في النّهاية، ليست لدينا أيّ ضمانات، والهاويةُ تُرافِقُنا دائمًا، وإنْ كُنّا نتمنّى غير ذلك. نحن نسير على طريق دقيقٍ كَحَدِّ الشّفرةِ بين الضَّوْءِ الأَبَدِيِّ والظَّلام اللّانهائيِّ. نحن نعيش بلا هَدَفٍ، ويَجِبُ علينا أن نُنْقِذَ أَنْفُسَنا؟»[2].

إن أردنا الاختصار في أمرِ حديثِ فلاسفةِ الإلحادِ عن معنى في الحياة في حياة بلا معنى؛ فسنقولُ إنّ هؤلاء الفلاسفةَ قد انقسَمُوا إلى فريقَيْنِ؛ فريق صَدَقَ في وَصْفِ المأساة، وأَقَرَّ أنّه لا خلاصَ، فكلُّ جهد عنده لاختراع معنى، مُجَرَّدُ عَبَثٍ. إنّنا -عند هؤلاء- لا نملك أن نُخَدِّرَ أنفسنا في واقعٍ صريح في عَبَثِيَّتِهِ؛ فإنّنا في صَحْوٍ دائم -وإن قَطَّعَتْهُ الغَفَلات- أَنَّنا في مواجهةِ حياةٍ تُثِيرُ الغَثَيان..واختار الفريقُ الثاني أن يُقِرَّ بالمأساة، لكنَّهُ اجتهد لتجاوزها بالحياة لأجلِ قِيَمِ الحريّةِ والعَدْلِ أو الشّجاعة والمجد؛ فوقَعَ هؤلاء في التّناقض؛ إذ فَرُّوا إلى قِيَمٍ موضوعيّةٍ في وجودٍ يرفُضُها باعترافِهِمْ..

> المعنى الوحيد الذي من الممكن أن يعيشَ له الملحدُ هو «البهيميّةُ» بِطَلَبِ اللّذَّةِ الماديّةِ أو متعة الأُنْسِ بالقطيع؛ لأنّ كلَّ معنًى آخرَ موضوعيٍّ، لا حقيقةَ له في عالَمِ المادّةِ الصَّمَّاءِ.

(1) جون مسرلي John Messerly (1955): فيلسوف أمريكي. درّس في جامعة تكساس.

(2) John G. Messerly, *The Meaning of Life*: *Religious, Philosophical, Transhumanist, and Scientific Perspectives* (Darwin & Hume Publishers, 2013), p.335

الإلحاد.. ووَهْم الأخلاق

«ما مِنْ شيءٍ أَثْقَلُ في ميزانِ العَبْدِ المؤمنِ يوم القيامة من حُسْنِ الخُلُقِ».

محمّدٌ صلّى الله عليه وسلَّمَ

«لا توجدُ آلهةٌ في الكونِ... ولا حقوقُ إنســانٍ ولا قوانينُ ولا عَدْلٌ خارجَ الخَيَالِ الجَمْعِيِّ لِلْبَشَرِ»[1].

الفيلسوف والمؤرخ الملحد

يوفال نوح هراري[2]

(1) Yuval Noah Harari, *Sapiens*: *A Brief History of Humankind* (London, Vintage Books, 2014), p.31

(2) يوفال نوح هراري Yuval Noah Harari (1976): مؤرّخ من الجامعة العبرية في القدس. له حضورٌ إعلاميٌّ شعبيٌّ كبيرٌ.

الأخلاق في الإسلام

يؤمنُ المسلم أنّه لا استقامةَ للحياة، ولا هناءَ فيها لطالبِ السّكينةِ، ولا انتظامَ فيها لمن يعيشُ في جماعاتٍ من البشرِ تتلاحَمُ حِينًا وتَتَنَافَرُ أُخرى، دون أخلاقٍ تضبطُ السُّلوكَ، وتكْبَحُ الشِّرَةَ، وتعذُر الفَترة، وتجمع القلوبَ إذا تدابرَتْ.. لا أَمْنَ دون منظومةِ حياةٍ تحتكِمُ إلى نُظُمٍ أخلاقيّةٍ مُتَّفَقٍ عليها تتجاوز النَّزَواتِ والشَّطَحات..

وفي القرآن والسُّنّة خبرٌ واسع عن الأخلاق وأهمّيتها في فعلِ المسلم في دُنياه، وأَجْرِها في عُقباه؛ فالإنسان بلا خُلُقٍ كائنٌ عاجز أن يُفلح في دنياه، أو أن ينجوَ في أُخراه. وبالخُلُق الحَسَنِ التابع للإيمان الحقّ، تُحَقِّقُ الجماعة الأَمْنَ النّفسيَّ لأفرادها؛ ولذلك كان هلاكُ الجماعة بانتشار الفِسْقِ فيها، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ (الإسراء/ 16)[1].

الخلُق الحَسَنُ ظاهر في الجوارحِ، ومعيارُه كامنٌ في القلب؛ وكثيرٌ منه يُدْرَكُ بحسِّ البَدَاهة الأُولى التي خُلِقَتْ عليها النَّفْسُ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «البِرُّ حُسْن الخُلُقِ، والإثمُ ما حاكَ في صَدْرِكَ، وكَرِهْتَ أن يطَّلِع عليه النَّاسُ»[2].

ويرفعُ الله بالخُلُقِ الحَسَنِ أقوامًا إلى حيث منتهى الجزاء، قال صلّى الله عليه وسلّم: «إنَّ أَحَبَّكُمْ إليّ، وأَقْرَبَكُمْ مِنِّي في الآخرةِ مَجْلِسًا، أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقًا، وإنَّ أَبْغَضَكُمْ إليّ وأَبْعَدَكُمْ مِنِّي في الآخرة أَسْوَؤُكم أَخْلاقًا، الثَّرْثَارُون المُتفَيْهِقُون المُتشدِّقُون»[3].

والخلُق الحَسَنُ خيرُ زادٍ يوم الحساب، قال صلّى الله عليه وسلّم: «ما مِنْ شيءٍ أثقلُ في الميزان مِن حُسن الخُلُقِ»[4].

---

(1) لا تُخبر الآية أنّ الله –سبحانه– يأمرُ النّاس بالمعصية ليعاقبهم، وإنّما تُخْبِرُ أنّ الله سبحانه يأمر النّاس وينهاهم بالوَحْي، وعندما يترك المترفون أمر الوحي بعد البلاغ، ويفسُقون؛ يَحِقُّ عليهم العذابُ. ومما يوضّح ذلك قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» (سبأ/ 34 – 35).

(2) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب معرفة البر والإثم، (ح/ 2553).

(3) رواه الترمذي، كتاب البرّ والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق (ح/ 2018).

(4) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، (ح/ 4799).

والخلُق الحَسَنُ معيارُ التّفاضلِ بين الناس، قال صلى الله عليه وسلم: «خيرُكم خيرُكم لأَهْلِهِ، وأنا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِيْ»[1].

والخلق الجميل، به يُرحَمُ النّاس، قال صلّى الله عليه وسلم: «الرَّاحمون يَرْحَمُهُمُ الرَّحمنُ، ارْحَمُوا مَنْ في الأرض يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّماء، الرَّحِمُ شِجْنَةٌ من الرَّحمنِ؛ فمَنْ وَصَلَها وَصَلَهُ اللهُ، ومَنْ قَطَعَها قَطَعَهُ اللهُ»[2].

والتجمُّلُ بالخُلُقِ الحَسَنِ، مَطْلَبٌ نَبَوِيٌّ؛ فقد كان من دعاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «اِهْدِني لأَحْسَنِ الأخلاق، لا يهدي لأحسنِها إلّا أنتَ، واصرِفْ عنّي سيِّئَها، لا يَصْرِفُ عنّي سيِّئَهَا إلّا أَنْتَ»[3].

والاستعاذةُ من سيّءِ الأخلاقِ، مُلتجأٌ نبويٌّ، وقد كان من دعاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن منكَراتِ الأخلاق والأعمالِ والأهواءِ»[4].

والعَمَلُ الحَسَنُ يُتقبّلُ قَبُولًا حَسَنًا عند الله سبحانه. قال صلى الله عليه وسلم: «إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا»[5].

والخُلُقُ الحَسَنُ ليس خِصّيصةً إسلاميّةً لا يُدرِكُها غير المسلمين؛ فقد يكون النصرانيُّ والهندوسيُّ والملحدُ على خُلُقٍ حَسَنٍ. وليس ذلك بمحرجٍ المسلمَ؛ بل هو يُؤَيِّدُ فَهْمَهُ لحقيقةِ الأخلاق والإنسان؛ إذِ المسلمُ يعتقد أنّ الله سبحانه قد خلقَ الإنسان على طبيعةٍ تُدرك الحَسَنَ والقبيحَ، والطيّبَ والخبيث. وكثير من الخُلُق الحَسَنِ يُهتدى

---

(1) رواه الترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم (ح/ 3990)، وابن ماجه، كتاب النكاح، بَابُ حُسْنِ مُعَاشَرَةِ النِّسَاءِ (ح/ 1982).

(2) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الرحمة، (ح/ 4941)، الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين (ح/ 1924).

(3) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (ح/ 771).

(4) رواه الترمذي، أبواب الدعوات عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، باب دعاء أم سلمة (ح/ 3591).

(5) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (ح/ 1015).

إليه دون وساطة وَحْيٍ مُنَزَّلٍ[1]، ولذلك دَلَّلَ القرآنُ على صِدْقِ نُبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم في خِطابِه لأهلِ الكتاب، أنَّهُ يدعوهم إلى الخير وينهاهم عن السُّوء. وما كان لهم ليدركوا الحجّة القرآنيّة في هذا البيان لو أنّ المعايير الأخلاقيَّةَ كانت لا تُعْرَفُ إلّا بالوحي المعصوم من التّحريف. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (الأعراف/ 157).

.. ولكنْ هَلْ من الممكن أن يكون الإلحادُ أخلاقيًّا، وأن يكون الملحد الملتزم بإلحاده أخلاقيًّا؟

وحتى لا يلتبسَ عليك مطلبُ السؤالِ -وما أكثرَ ما يقع الملاحدةُ في سوءِ فَهْمِهِ!-؛ نقول: السُّؤال لا يَبْحَثُ في إمكان أن يكون الملحدُ على خُلُقٍ طَيِّبٍ؛ فقد علمتَ أنّ ذلك ممكن، بل هو واقعٌ.. وإنّما السؤال عن الملحد الملتزمِ بحقيقةِ الإلحاد، وإمكان تَلَبُّسِهِ بالأخلاق التي نلتزم جميعًا باستحسانها لأنّها في حقيقتها حسنة.. وهو أمر يتّضح عندما نتساءَلُ: لماذا يَجِبُ على الملحد أن يلتزم الوفاء لمبادئَ أخلاقيّةٍ معيّنةٍ، باستمرار، حتّى عندما لا يكون ذلك في مصلحته الذاتية أو الآنيّة؟

(1) قال ابن القيم: «غايَة الْعقل أَن يدْرك بالإجمال حسن مَا أَتَى الشَّرْع بتفضيله أَو قبحه؛ فيدركه الْعقل جملَة، وَيَأْتِي الشَّرْع بتفصيله. وَهَذَا كَمَا أَنّ العقل يدْرك حسن العدْل، وَأمّا كَون هَذَا الْفِعْل الْمعيّن عدْلًا أَو ظلمًا؛ فَهَذَا مِمَّا يعجز العقل عَن إدْرَاكه فِي كلّ فعل وَعقد. وَكَذَلِكَ يعجز عَن إدْرَاك حسن كلّ فعل وقبحه، فتَأْتي الشَّرَائع بتفصيل ذَلِك وتبيينه. وَمَا أدْركهُ الْعقل الصَّرِيح من ذَلِك، أَتَت الشَّرَائع بتقريره. وَمَا كَانَ حسنًا فِي وَقت، قبيحًا فِي وَقت، وَلم يهتدِ العقل لوقت حسنه من وَقت قبحه، أَتَت الشَّرَائع بِالْأَمر بِهِ فِي وَقت حسنه، وبالنهي عَنهُ فِي وَقت قبحه. وَكَذَلِكَ الْفِعْل، يكون مُشْتَمِلًا على مصلحَة ومفسدة، وَلَا تعلم الْعُقُول مفسدته أرجح أم مصْلحَته؛ فَيَتَوَقَّف الْعقل فِي ذَلِك؛ فتأتي الشَّرَائع بِبَيَان ذَلِك، وتأمر براجح الْمصلحَة، وتنهى عَن رَاجِح الْمفْسدَة. وَكَذَلِكَ الْفِعْل، يكون مصلحَة لشخص، مفْسدَة لغيره، وَالْعقل لَا يدْرك ذَلِك؛ فتأتي الشَّرَائع ببيانه؛ فتأمر بِهِ من هُوَ مصلحَة لَهُ، وتنهى عَنهُ من حَيْثُ هُوَ مفْسدَة فِي حَقه. وَكَذَلِكَ الْفِعْل، يكون مفْسدَة فِي الظَّاهِر، وَفِي ضمنه مصلحَة عَظِيمَة لَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا الْعقل؛ فَلَا يعلم إِلَّا بِالشَّرْعِ؛ كالجهاد وَالْقَتْل فِي الله. وَيكون فِي الظَّاهِر مصلحَة، وَفِي ضمنه مفْسدَة عَظِيمَة لَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا الْعقل؛ فتجيء الشَّرَائع بِبَيَان مَا فِي ضمنه من الْمصلحَة والمفسدة الراجحة». (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، 117/ 2).

الأخلاق.. ذلك الوَهْم

«الإلحاد الجديد» الصَّخَّابُ اليومَ في أسواقِ الإعلام والمكتبات، تيَّارٌ أخلاقيٌّ، يَتَدَثَّرُ بالشّعارات الإنسانويّة للطَّعن في الدِّين واتّهامه أنّه يُسمِّمُ كلَّ شيء. وهو مَنْهَجٌ دهريٌّ عُمْدَتُهُ أنّه لن تستقيمَ البشريّةُ على الخير حتّى تتركَ أوهامَ الإيمان بإلهٍ، وتعتقدَ أنّ حياة الإنسان تبدأُ في الأرحام وتنتهي عند لُحُودِ المقابرِ، ولا شيءَ قبل ذلك ولا بعده. وعلى أُصول ذاك التصوّر بإمكان الملحدِ أن يقيمَ حياته، فردًا وجماعاتٍ، على معاني الخير؛ بما يُورِثُ الجميعَ الأَمْنَ والرَّاحةَ.

ومن المدهش أنّ رُموزَ الإلحاد الجديد (وغيرهم من أعلام الإلحاد)، يُنْكِرون أن تكون للأخلاقِ حقيقةٌ؛ فهي عندهم مجرّد اختيارٍ شخصيٍّ فَرْدِيٍّ لا يملك المرءُ أن يُحَكِّمَهُ في الناس.. والاتّفاقُ بينهم حاصلٌ أنّ وجودًا عابثًا أَنْتَجَ بَشَرًا لا يَفْضُلون البَهَائِمَ أو الجمادات، لا يمكن أن يكون فيه معنًى أو قيمة للخير والشرّ.. ولذلك فكلّ قيمة يَتَبَنَّاها الإنسانُ هي اختيار شخصيٌّ، وذوقيٌّ، وليست حُجّة له على أَحَدٍ لمدحِه أو إدانته..

يقول الفيلسوفُ الملحِدُ مايكل روس: «صراحةً، تقول الأخلاقيّاتُ الداروينية إنّ الأخلاقَ الجوهريّةَ نوعٌ من الوَهْم، قد وُضِعَتْ فينا من قبل جِيْنَاتنا؛ حتّى نكون أفرادًا اجتماعيّين متعاونين. وأَوَدُّ أن أُضِيْفَ أنّ السبب وراء أنّ هذا الوَهْمَ تكيُّفٌ ناجحٌ، هو أنّنا لا نؤمن بالأخلاق الجوهريّة فحسب، بل نؤمن أيضًا بأن الأخلاق الجوهرية لها أساسٌ موضوعيٌّ. جزء مهمٌّ من تجربة الظاهرة الأخلاقية الجوهرية أننا نشعر -لا فقط- أنّنا يجب أن نفعل الشيء الصّحيح والسّليم، وإنّما أنّنا أيضًا نشعر أنه يجب علينا أن نفعل الشيء الصّحيح والسّليم لأنه بحقٍّ الشيءُ الصّحيح والسّليم»[1].

---

(1) Michael Ruse, 'Evolution and Ethics' in Bruce Gordon, *The Nature of Nature*: *Examining the Role of Naturalism in Science*, Intercollegiate Studies Institute. Kindle Edition

يُوضّحُ لنا هنا مايكل روس أنّ الملحدَ واقعٌ في مَصْيدةِ الوَهْم التي أَحاطَتْ به من كلّ جهة؛ فالملحد يؤمنُ بالأخلاق الموضوعيّة بسبب الأوهام التي زَرَعَتْهَا فيه جِيْنَاتُه بعد أن أَعَانَتْهُ هذه الأخلاقُ على التكيّف مع بيئتِه. وهو يلتزم بهذه القيم الأخلاقيّة الوهميّةِ بعد أن استولى عليه يقينُه أنّها قيمٌ حقيقيّةٌ حقًّا؛ فهو يرى أنّها قيمٌ حقيقيّة، ومُلْزِمةٌ..

وقد أعربَ سارتر عن حُزنِه لأجلِ ملازمة الإلحادِ للعَدَميّة القيميّة؛ فقال بصدق: «إنّه لمن المحرج بجدّ أنّ الله غيرُ موجودٍ؛ إذ إنَّ كُلَّ إمكانيّةٍ للعثور على قيمٍ في سماءِ الفِكْرِ تختفي مع اختفائِه»[1].

والاعترافُ الصريح بموضوعيّةِ الأخلاق، يفتح البابَ على مصراعَيْهِ للإيمانِ بالله؛ إذ إنّ القيمَ الأخلاقيّة -كما يقول الفيلسوف الملحد ج.ل. ماكي- تُشكِّلُ مجموعةً غريبة من الخصائص والعلاقات؛ لا يمكن أن توجد إلّا في كونٍ له إلهٌ[2].

ومأساةُ غيابِ الأخلاق (الموضوعيّة) لا تُلَخَّص في أنّ كلّ شيء مباح؛ إذ الإلحادُ لا يقول إنّه لا يوجد فعلٌ محظورٌ، وإنّما المأساة أشدُّ خَطَرًا، وفَتْكًا؛ إذ الإلحاد يقول بالعَدَميّة القيمية التي لا تعترف بشيء من القيم. ويعبّر الفيلسوف الملحد ألكسندر رونزبرج عن ذلك بقوله: «العَدَميّةُ تَرْفُضُ التَّمييزَ بين الأفعال المسموح بها أخلاقيًا، والممنوعة أخلاقيًا، والمطلوبة أخلاقيًا. لا تخبرنا العَدَميّةُ بأنّنا لا نستطيع أن نعرف الأحكام الأخلاقيّة الصحيحةَ، وإنّما تُخبرنا أنّها كلّها خاطئةٌ. وبشكلٍ أكثر دِقّة، تزعمُ العَدَميّةُ أنّ جميع الأفعالِ الأخلاقيّة تَسْتَنِدُ إلى افتراضاتٍ خاطئةٍ لا أساس لها من الصحّة. تقول العَدَميّةُ إنّ فكرةَ «المسموح به أخلاقيًا» هُراءٌ. على هذا النّحو، لا يجوز اتّهام العَدَميّةِ أنّها تقولُ إنّ «كُلَّ شيءٍ جائزٌ أخلاقيًا». هذا أيضًا هُراءٌ لا يمكن الدِّفاعُ عنه»[3].

(1) Jean-Paul Sartre, *Existentialism is a Humanism* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 2007), p.28

(2) J.L. Mackie, *The Miracle of Theism* (Oxford: Oxford University Press, 1982), pp.115-116

(3) Alexander Rosenberg, *The Atheist's Guide to Reality*: *Enjoying Life Without Illusions* pp.97–98

إنّ الإلحادَ لا يقتضي إباحةَ فِعْلِ كُلِّ ما نريدُه باعتباره مشروعًا في وجودٍ بلا إلهٍ.. إنّ الإلحاد شرٌّ من ذلك؛ إنّه يقول لك إنّه لا قيمةَ لشيءٍ من فِعْلِكَ؛ فإن شِئْتَ فافعَلْ أو ذَر؛ فَفِعْلُكَ لا يساوي شيئًا ولا معنى له.. لا توجد في الرؤية الكونيّة الإلحاديّةِ مساحاتٌ للفِعْلِ والتَّرْكِ.. كُلُّ الأشياءِ سواءٌ، وكلُّ الأفعالِ سواءٌ، وكلّ الاتجاهات سواء.. لا قيمة لشيء.. اِفْعَلْ ما بَدَا لكَ؛ فالكونُ لا يُبالي بك ولا بِفِعْلِكَ. ما الخير والشرّ غير أسماء تعكس شهواتك، وما يجفل منه ذوقك، وهما يتغيّران باختلاف الأمزجة والعادات والثقافات.

الأَخلاقُ -عند عامّةِ أعلامِ الملاحدةِ اليومَ- دوافِعُها جِينيّة، وطبيعتها مزاجيّة، وحقيقَتُها أنّها وَهْمٌ، وحُكْمُها أنّها بلا قيمةٍ.

وقد حاولَ عالِمُ الأعصابِ الملحدُ هاريس الخروجَ من مأزقِ التفسير الجينيّ للأخلاق؛ بالقول إنّه بإمكاننا أنْ نعرف حُسْنَ القِيَم من قُبْحِها بالنَّظَرِ إلى مآلها في تحقيقِ رفاه الإنسان. وقد عارضَهُ كثيرٌ من رموز الإلحاد، وعلى رأسهم شون كارول وجيري كوين؛ حتّى إنّ قولَهُ صار مهجورًا عند عامّة الملاحدة. ومن أهمِّ أسباب سقوطِ قوله، أنّه في حياةٍ ماديّةٍ صِرْفة بلا عاقبةٍ، ولا غاية، ولا تفوُّقَ للإنسان على غيره من الكائنات لاصطفاءٍ إلهيٍّ لكائنٍ دون آخر، يغدو احترامُ حقوقِ الغيرِ من بَشَرٍ وحيوانٍ بلا معنى..

إنّ استحسان الإنسان لقيمِ الصّدقِ والكَرَم والتعاون لأنّها تُحقّق الرَّفاهَ للإنسان رهينٌ أن تكون قيمةُ حياة الإنسان لها اعتبارٌ ذاتيٌّ في نفسِها أو باعتبار تكريم إلهيٍّ.. وليست حياة الإنسان ماديًّا وداروينيًّا كذلك؛ فوجود الإنسان أَثَرٌ لأخطاءَ في النَّسْخِ الجِيْنِيِّ؛ وكَوْنُنَا غافِلٌ عن كلّ قيمةٍ؛ فقد بَدَأَ بانفجارٍ عظيم بلا سببٍ، وينتهي فيزيائيًّا بتموُّتٍ حراريٍّ قاهرٍ، وبين هذا وذاك لا وجود لغير الحركة.

والقولُ إنّ الحَسَنَ ما خَدَمَ البشريّة، ونَفَعَ المجتمعَ، لا معنى له؛ لأنّ خدمة المجتمع في عالم فيزيائيٍّ صِرْفٍ لا تَفْضُلُ خدمةَ النّفسِ بشيءٍ.. بل قُلْ إنّ الاستئثار بالمتع على حساب المجتمع، فيه قَدْرٌ من الوفاء للطّبيعة الحيوانيّة للإنسان أكثر من الاجتهاد لخدمة المجتمع على حساب لَذّاتِ النّفسِ.. والمجتمعُ في نهاية الأمر ليس إلّا قطيع كائناتٍ حيّة تسير إلى الفناء اليوم أو غدًا؛ فَلِمَ على الملحد أن يُضحّي بِمُتَعِهِ لأجلِ الاستبقاء على كائناتٍ ستزولُ قهرًا؟! وهل لتأجيلِ موتِ مَنْ سيموتُ، قيمةٌ، خاصّةً إذا كانت الضّريبةُ الإحجامَ عن اللّذائذِ الشخصيةّ في عالمِ الفناءُ النّهائيُّ قَدَرُه؟!

وليس للملحد أن يلتجئَ (لِفِطْرةٍ) يستهديها بالبداهة لمعاني الخير والشرّ -كما هو فِعْلُ المؤمن بالله الذي يدرك كثيرًا من الخير والشرّ ببداهةِ الفِطْرة-؛ فإنّ المؤمن يقيم استجابته لفطرته لاستنكار الظُّلم على أنّ فطرتَهُ في أصلها سَوِيَّة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (التِّيْن/ 4)، وأنه مَهْدِيٌّ إلى هذه المعرفة بلا كَسْبٍ منه. قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ (البَلَد/ 10)[1]. وأنّ للإنسانِ بالاصطفاء الإلهيِّ كرامةً وقيمةً، وأنّ للحياة معنًى.. ففطرةُ المؤمن حُجّةٌ في كثير من البحث عن الخير والشرّ ضمن سياقِ رؤيتِه الكونيّة لنفسِه والحياة، وليس ذلك للملحدِ؛ إذ الملحدُ لا يملك إطارًا نظريًّا يتساوق مع أَصْلِ استجابته لفطرته؛ إذ إنّ فطرتَهُ غابيَّةٌ، وإرادتَهُ أَسِيْرَةُ الجِيْناتِ، والآخَرُ عنده شيءٌ من أشياء الطّبيعة لا كرامةَ له خاصّة..

ولا سبيل للاستنجاد بالعِلْم لمعرفة الخيرِ والشرّ؛ لأنّ المسائلَ القِيميّة تَتَعلَّقُ أساسًا بمفهوم الواجب والمحظور والتحسين والتّقبيح؛ والعِلْمُ قد يُحسِنُ وَصْفَ الحالِ فيزيائيًا، لكنَّهُ يَعْجَزُ أن يطلبَ أو يأْمُرَ؛ فالعِلمُ قد يُخبرك أنّك إنْ ضَرَبْتَ قِطّةً على رأسها بحديدةٍ حادّةٍ، وكان حجمُ الحديدةِ كَذَا، وسرعةُ يَدِكَ كَذَا، كَسَرْتَ

(1) قال ابن كثير: «قال سفيان الثوري عن عاصم عن زر عن عبد الله -هو ابن مسعود-: وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ قال: الخير والشّرّ، وكذا رُوي عن عليّ وابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبي وائل وأبي صالح ومحمد بن كعب والضحاك وعطاء الخراساني في آخرين». (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 404/ 8).

جُمْجُمَتَهَا، وأَرْدَيْتَهَا مَيِّتَةً .. لكنَّهُ لا يُخبركَ إن كان قَتْلُ القطّةِ بهذه الطّريقة، وحشيّةً مُنْكَرةً أم لا.. وهو عين الإنكار الذي أَعْلَنَهُ الفيلسوفُ الملحد ألكسندر روزنبرج ردًّا على كتاب سام هاريس «المشهد الأخلاقيّ»؛ إذ قال إنّ هاريس «يعتقدُ خطأً أنَّ العلم يمكن أن يُظهِرَ أنَّ الاتّفاق الأخلاقيَّ صادِقٌ أو مُصيبٌ أو صحيحٌ. ليس للعلم سبيل أنْ يَسُدَّ الفجوةَ بين ما هو كائنٌ وما هو واجبٌ»[1].

إنّ العلمَ لا يجاوز وصفَ الواقع، بوصفِ مادّتِهِ، وأعراضِه، وتغيُّرِه، واتّجاهِه، وما قد يُتوقَّعُ من مآلِه بعدَ زمنٍ ما، لكنّه بعيدٌ كليّةً عن أن يَحْكُمَ على الشيء أو الفعل إن كان محمودًا أو مذمومًا، أو واجبًا أو محظورًا.. والوصفُ العلميُّ الواحد للشّيءِ قد يَعْقُبُهُ حُكْمَان أَخْلاقِيَّانِ مُتَناقِضان؛ فقد يرى الإنسانُ أنّ إطلاقَ رصاصةٍ على امرئٍ من مسافةٍ قريبةٍ في اتّجاه رأسِه، بزاوية كذا، وسرعة كذا، فِعْلٌ مُنْكَرٌ لأنّه وَقع بِظُلمٍ وتَعَدٍّ؛ وقد يكون هذا الفعل مُباحًا أو مَنْدُوبًا أو واجِبًا؛ إذا كان دفاعًا عن النَّفْسِ أو عن جماعةٍ من الأبرياء، وَهُوَ هُوَ الفِعْلُ ذاتُه في التّوصيف العلميِّ.

إنّ حركةَ الكونِ وقوانينَهُ ليست مصدرًا لمقولاتٍ أخلاقية. إنّها ليست سوى تغيُّراتٍ في الفيزياءِ والكيمياء والبيولوجيا؛ فلا يتأَصَّلُ فيها معنى، ولا تنبت فيها غاية، ولا يُجتنى منها معيار. إنّ أشياء العالَم تتقارَبُ وتتباعد، وتسير في شتّى الاتّجاهات لأنّها موجودةٌ كذلك، لا لأنّها تريدُ ذلك. إنّ القوانين تَصِفُ حركةَ العالَمِ الذي لا يحمل قَلْبًا ولا عاطفةً؛ لأنّه مجموع ذرّاتٍ لا تُبالي برغباتِ الإنسان وأحلامِه.

> الملحدُ القائلُ إنّ الرفاهَ من ناحيةٍ علميّةٍ، معيارُ الخير والشَّرِّ؛ يَفْشَلُ في بيانِ سبب إلزامِ النَّاسِ أن يَسْعَوْا إلى رفاهِ بعضِهم، ومعاندةِ طبيعتِهم الغابِيَّةِ في الفَهْمِ الدَّاروينيِّ.

(1) Alexander Rosenberg, *The Atheist's Guide to Reality*: *Enjoying Life without Illusions,* p.330

وقناعةُ الملاحدةِ أنّ الأخلاقَ وَهْمٌ نابعٌ من التاريخ الطّبيعيِّ للإنسانِ مُنْذُ كان في الغابِ، جَعَلَتْ فريقًا منهم يدعو إلى إخراجِ البحثِ الأخلاقيِّ من أَيْدِي الفلاسفةِ إلى أيدي البيولوجيِّين؛ فإنّ الانتخابَ الطبيعيَّ هو الذي صَنَعَ النَّزعاتِ والأَذْواقَ[1].

وتبقى المشكلة أنّ الإنسان لا يمكنه أن يجعل بيولوجِيَّتَهُ أو كيمياءَهُ معيارَهُ لِلخَلْقِ؛ لأنّه سيدخل في ذلك في دائرةٍ مغلقةٍ يبحث فيها الإنسان عن معيارٍ معتدلٍ للخير والشرّ، دون أن يُدْرِكَهُ.. كَمِثْلِ ذاك الرَّجُلِ الذي كان يَقِفُ أمام أحدِ المحلَّاتِ كُلَّ يوم صباحًا لِيُعَدِّلَ ساعتَهُ على الساعة الخارجيّة للمحلّ، وفي يومٍ خرجَ صاحب المحلّ لمّا رآه، وسَلَّم عليه، وسأله: لِمَ تَقِفُ أمام محلّي كلّ يوم صباحًا، وتنظر إلى رُسْغِكَ ثم تنصرف؛ فأجابه محدِّثُهُ بأنّه يعمل في المصنع المقابل، وهو المسؤولُ عن السَّاعة الكبيرةِ فيه، وهي التي تُصْدِرُ صوتًا عاليًا كلّ يوم على السَّاعة الرابعة موعِدِ انصرافِ العُمَّالِ؛ ولذلك يحتاجُ أن يضبط ساعةَ يَدِهِ كلّ يوم، فهي كثيرة الأعطالِ، ثم يُعدّل ساعة المصنع تَبَعًا للتوقيتِ الذي في ساعَتِهِ.. فأجابَهُ صاحبُ المصنع بِخَجَلٍ: «..ولكن سيدي، أنا أقوم بضبط ساعة المحلّ كلَّ يوم على ساعة المصنع عند السّاعة الرابعة»!

كيف –إذن– للإنسان أن يهتديَ إلى الأخلاق الصّالحة بما تُبديهِ جوارحُه مِنْ رَغْبَةٍ ونَفْرَةٍ، إذا كانت جوارحُه تطلُبُ من خارجِها مَنْ يَكْبَحُ جُموحَهَا ويَضْبِطُ أَهْواءَها؟!

وقد أَدْرَكَ داروين لُزومَ مواجهةِ السؤالِ الأخلاقيّ، بعد حَيْوَنَتِهِ الإنسانَ، ورَدِّهِ إلى عالمِ الطبيعةِ الأرضيّ؛ فكتبَ: «المرءُ الذي لا يملك أيَّ إيمان مؤكَّدٍ، ودائمٍ، بوجودِ إلهٍ أو وجودِ مستقبَلٍ فيه قصاصٌ وعطاء، لا يُمكن أن تكون له قاعدةٌ في الحياة –في رأيي– سوى متابعةِ تلك الدّوافع والغرائز التي هي الأقوى أو التي تبدو له الأفضل»[2].

(1) E. O. Wilson, *Sociobiology*: *The new synthesis* (Cambridge, MA: Belknap Press, 1975), p. 562

(2) Charles Darwin, *Autobiographies* (London: Penguin, 2002), p.54

حديث داروين مُشْكِلٌ من أكثرَ من وَجْهٍ، أوّلها أنّ الاستجابة الغريزيّة للحوافز الداخلية دون ضابط أعلى من الرغبة والنّفرة، داع إلى أن تكون الأرضُ مرتعًا للظُّلم والقَهْرِ والجَوْرِ والأَثَـرَةِ.. وثانيها أنّ داروين نفسَهُ لم يلتزمْ في حياته هذا المنطقَ الأخلاقيَّ، وكان يدافع عن قيم لاغابيّةٍ، منها حقوقُ الحيوان.. وثالثها أنّ استجابة الإنسان لغريزتِه دافعٌ لأن يكونَ مزاجُ كلِّ إنسانٍ صانعًا لرؤيتِه الأخلاقيّة؛ فلا مِعيارَ عندها للأخلاقِ، ولا أخلاقَ عندها في الأخلاق...

في التصوُّرِ الإلحاديِّ، الإنسانُ مِعيارُ كلّ شيءٍ.. ولكلٍّ أخلاقُه؛ لأنّه لكلٍّ أهواؤُه.. فلا مِعيارَ إذنْ!

وإنّ مِنْ شرّ ما يُورِثُه إنكارُ موضوعيّة الأخـلاقِ عند الإنسان، منعَ استحسانِ الحَسَنِ واستقباح القبيح؛ إذ الفضائلُ والرّذائِلُ في وَعْينا عندها سواءٌ؛ فوفاء صلاح الدّين الأيوبيّ للأقصى كخيانَةِ بائعي الأَقْصَى، سواءٌ، والحاكمون بالقَهْرِ شعوبَهم كالحاكِمِيْنَ بالعَدْلِ، والآكِلُون بالعِرْضِ كالـمُضَحِّيْنَ بالنَّفْسِ.. إنّ صرامةَ الموضوعيّة تُلزِمُنا -إلحاديًّا- أن نقفَ أمام الأهوالِ والأتراح بلا حُزنٍ ولا دَمْع، وأن نرى الأمجادَ والفضائلَ فلا يَتَحَرَّكُ منّا طَرْفٌ ولا يَهتزُّ لنا قَلْبٌ.. كُلُّ الأمور متماثلةٌ لأنّها حركةٌ وتَغَيُّرٌ بلا قيمةٍ ذاتيّةٍ..

إنّ مشكلة الإلحاد هي امتناعُ وجود أخلاقٍ موضوعيّة، وهي مشكلةٌ تمنع الملحدَ أن يرى في التزامِه إلحادَهُ فضيلةً. بل قل إنّها مأساةٌ تُظهِرُ جميعَ دعاة الإلحاد الذين كتَبُوا وناظَرُوا، مجانين بُلَهاءَ؛ لأنّهم يتحمّسُون لفكرةٍ، ويُهيّجُون النّاس لأجلها، ويُدِينُون أُخرى، ويُحرّضون عليها، ويَأملون، ويندمون، وكأنّهم أمام عالَمٍ من القِيَم حقيقيّ، رغم أنّ دعوتهم تَكْفُرُ بالفضائلِ كُلِّها. إنّهم أخلاقيون حتّى في ذروة كفرهم بالأخلاق.

في عالَم الإلحادِ، لا حقَّ لك أن تكون صالحًا؛ فإنّك عاجِزٌ عن ذلك كلّ العجزِ،

لا لقصورِ نفسِكَ عن إدراك الفضائلِ، وإنّما لأنّها **لا توجد فضائلُ أصلًا**.. في عالَم الإلحاد، تُنْحَرُ القيمة الخلُقيّةُ بِسِكِّيْنِ هذا الوجود اللّامبالي..

ويخطئ كثير من الراصدين لحركة الأفكار في الغرب؛ إذ يظنّون الدعوة إلى قبول الاختلافات في المجتمع الغربي- كقبول الشواذ جنسيًا مثلًا- علامة الانتقال من الإقصائية إلى التسامح. والحقّ أنّ هذا الأمر في أهم وجوهه يعود إلى أفول حقيقة الإنسان، ونهاية موضوعية الأخلاق، وتجاوز المُطْلَقات المتعالية؛ فلا يوجد «إنسان» سَويّ يُقاس عليه، ولا مطلقات يُحتكم إليها.. إنّها محرقة القيمة والمرجعيّة.

> إلحاديًا، الملحِدُ عاجزٌ عن أن يكون صالحًا، بل وحتّى أن يكون فاسدًا.. إنّه محرومٌ من أن يفعلَ فِعْلًا له قيمةٌ إيجابيّةٌ أو سلبيّةٌ.

الإنسان.. ذِئْبٌ لأخيه الإنسان

أدرك كثيرٌ من المعاصرين لداروين عند إصداره كتابه «في أَصْلِ الأنواع» خطورةَ لوازم نظريّتِه على الإنسان، رغم أنّ داروين لم يتحدَّثْ في أمر تطوّرِ الإنسان إلّا لاحقًا في كتاب «في أصل الإنسان»، ومن هؤلاء آدم سدجويك[1] -المشرف السابق على داروين في العلوم الطبيعية في جامعة كمبردج-؛ فقد كتب إلى داروين رسالة سنة 1859، بعد فترةٍ قصيرة من نشر كتاب «في أصل الأنواع»، قال فيها: «فقراتٌ في كتابِك... صدَمَت كثيرًا ذوقيّ الأخلاقيّ... هناك جزءٌ أخلاقيٌّ أو ميتافيزيقيٌّ في الطّبيعة بالإضافة إلى الجزءِ الفيزيائيّ. من يُنكر ذلك واقعٌ في قاعِ مستنقعِ الحَمَاقةِ... في رأيي، إنّ البشريةَ ستعاني من ضَرَرٍ قد يُثْخِنُ فيها، وسيهوي الجِنْسُ البشريُّ إلى درجةٍ دُنْيا متدهورةٍ أدنى من أيِّ دَرَكٍ بَلَغَهُ الإنسانُ في تاريخه المكتوب»[2].

---

(1) Adam Sedgwick

(2) Adam Sedgwick to Charles Darwin, November 24, 1859
< https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-2548.xml>

عندما ينزل الإنسان إلى مرتبةِ الحيوان، تَحْكُمُه لغةُ الغابِ، وشريعةُ الافتراسِ والانتهاسِ؛ يصبح العَدْلُ دالًّا بلا مَدْلُولٍ؛ لافتقادِه أَرْضِيّة تُبنى عليها مفاهيمُ الإنسان، والحقّ، والواجب..

ولقد تَمَثَّلَ هتلرُ لاحقًا رُوح الداروينيّة في قوله في كتابه «كفاحي»، عند حديثه عن رؤيته الكونيّة التي «لا تؤمن بأيّ حالٍ من الأحوال بالمساواة بين الأَعْراقِ... ومن خلال هذه المعرفة تشعر أنها مضطرّةٌ -وفقًا للإرادة الأبديّةِ التي تَحْكُمُ هذا الكونَ- لتعزيزِ انتصار الأفضلِ، والأقوى، وللمطالبةِ بِخُضُوعِ الأَسْوأِ والأَضْعَفِ. وبالتالي هي تَعْتَنِقُ بصورةٍ مبدئيّةٍ القانون الأرستقراطيَّ للطبيعة، وتؤمنُ بصحّةِ انطباقِ هذا القانون على الجميع. وهي لا تعترف فقط بالقيمةِ المختلفة للأعراق، وإنّما تؤمن أيضًا باختلاف قيمةِ الأفراد»[1].

ولمّا واجه أحدُ أصحاب داوكنز من التطوريّين[2] داوكنز بحقيقة مآلاتِ الداروينيّة قائلًا: «هناك مجموعة كبيرة من الناس غير مرتاحة لقبول التطوّر؛ لأنه يُؤدّي إلى ما يعتبرونه فراغًا أخلاقيًّا، حيث تَفْقِدُ أَفْضَلُ رُؤَاهُم الأخلاقيّة كُلَّ أَساسٍ في عالم الطّبيعة». أجابَهُ داوكنز بقوله: «كُلُّ ما أستطيع أن أقولَهُ هو **أنّ الأَمْرَ شَدِيدٌ. وعلينا مُواجَهَةُ ذلك**»[3].

وقد كان جون لوك -أحدُ أشهر المدافعين عن حقوق الإنسان في التاريخ الأوروبي- مُدرِكًا منذ قرونٍ مآلاتِ الإلحاد إنْ الْتَزَمَهُ صاحبُه كاملَ الالتزم؛ لأنّه يُطْلِقُ في الإنسان ذئبيَّتَهُ الشَّرِسة، دون رادعٍ؛ فكتَبَ في رسالته الشهيرة «رسالة حول التَّسَامُح»: «الوعودُ والعهود والأَيْمانُ، التي هي روابِطُ المجتمع البَشَرِيِّ، لا يمكن أن تكون مُلْزِمةً للملحِدِ. التَّخَلُّصُ من الإيمان باللهِ، حتّى لو كان في عالَمِ الفِكْرِ وَحْدَهُ، يُذِيْبُ كُلَّ شيءٍ»[4].

(1) Adolf Hitler, Mein Kampf 2 vols. in 1 (Munich, 1943),420-1

(2) Jaron Lanier

(3) 'Evolution: The dissent of Darwin', Psychology Today 30(1):62, Jan–Feb 1997

(4) John Locke, *Locke*: *Political Writings,* ed. David Wootton (Cambridge: Hackett Publishing, 2003), p.426

إنّ الفعل الذي يفعله الإنسان -مهما كان قُبْحُه- لا يخرج في كليَّتِه -في التصوّر الإلحاديّ- عن أن يكون حركةً فيزيائيّةً لا علاقة لها بالحُسْنِ والقُبْحِ؛ فقَتْلُ إنسانٍ لآخرَ لا يَخْرُجُ عن إدخالِ سِكِّينٍ بسرعةٍ في بَطْنِ آخرَ، أو إطلاقِ رصاصةٍ لتستقرَّ في دماغ ثانٍ.. أفعالٌ لا معنى لإدانتها، كما أنّنا لا نُدِيْنُ الأَسَدَ إذا أَمْسَكَ بغزالَةٍ، وأَنْشَبَ أَنْيابَهُ في عُنُقِها لِشَلِّ حَرَكَتِها، ثم انْتَهَشَها، ولا نُدِينُ القطّة إذا اقْتَنَصَتْ فَأْرًا لِغَدَائِها.. لا فارق البتّة.. إذا لم يكن الأسد والقطّة ظالمَين آثمَين؛ فلِم يُدان الإنسان في عالمٍ بلا أخلاقٍ، باعترافِ الملاحدة؟!

في عالَم إلحاديٍّ، ليست الأنانيّةُ القصوى رذيلةً؛ إذ إنّنا لن نجد سببًا ماديًّا لإدانة الرغبةِ في احتكارِ أسباب المتعة.. في عالم مظلم بلا خير ولا شرّ، لا يُمكن أن نجد أساسًا وجوديًّا لإدانة من يروي عَطَشَهُ لسعادتِه الشخصيّة على حساب غيره؛ إذ إنّ سعادةَ الآخرين أَمْرٌ غيرُ جدير بالاعتبار.. ولذلك صرّح داوكنز أنّه من العسير -إلحاديًّا- أن تجد أساسًا لإدانة هتلر[1]. ولمّا قال له صحفي: ضمن نظرتك الإلحاديّة، لا أساسَ لإدانة الاغتصابِ أنّه خطيئةٌ، فإنّ إنكار هذا الفعل موقِفٌ اعتباطِيٌّ، لم يجد داوكنز بُدّاً من موافقته[2].

إنّه عالَمٌ متعاطِفٌ مع نيتشه في استخفافِه بأخلاقِ الرحمة وإغاثةِ المكروثين؛ فكلُّ مبادئ الأخلاقِ أكاذيبُ من صنع الخيالِ، وكلُّ تحليلاتها النفسيّة مَحْضُ تزويرٍ، وكلُّ أشكالِ المنطق التي أَقْحَمَها النّاسُ في مملكةِ الأكاذيب هذه لا تعدو أن تكون سَفْسَطاتٍ[3].

---

(1) "What's prevent us from saying Hitler wasn't right? I mean that is a genuinely difficult question", Larry Taunton, Richard Dawkins: The Atheist Evangelist, *ByFaith*, 18 December 1st, 2007 < https://byfaithonline.com/richard-dawkins-the-atheist-evangelist/ >

(2) "Your belief that rape is wrong is an arbitrary conclusion". "You could say that, yeah." < http://www.bethinking.org/atheism/the-john-lennox-richard-dawkins-debate. >

(3) Karl Jaspers, *Nietzsche*: *An Introduction to the Understanding of His Philosophical Activity* (London: JHU Press, 1997), p.144

الحقيقةُ الوحيدةُ هي الحياةُ الفعليّة، وهي منافرةٌ بطبعها للأخلاق المتسلّطةِ عليها من الخارج، وللمُثُل العليا التي تدعونا إلى الإحسان إلى الضُّعفاء وإكرام المحتاجين. إنّ هذه المثُلَ تُفقر الحياة الحقيقيّة وتكاد تسلبها حيويّتها.

وتسير هذه الأخلاق «المثاليّة» بذلك عكسَ الانتخابِ الطبيعيِّ الذي لا يُبْقِي على الأرض غير ذاك الذي فاز عن جدارةٍ بحقّ البقاء في معركة الحياة الملحميّة؛ فلا تستبقي الحياةُ إلّا ذاك القادر على التكيّف والتطوّر، وأمّا العاجز والقاصر فمصيرُه الـزَّوالُ. إنّ الشفقةَ بالضُّعفاء أَشَدُّ القيمِ مُنافرةً لطبيعة الغابة. «إنّ الشفقةَ فضيلةُ المومِسِ»، كما هي عبارة نيتشه.

كما ترفضُ الطبيعةُ منطقَ الأخلاقِ في المساواة بين الكائنات -في أيّ صُورٍ من صُورِ المساواة-؛ لأنّ الطبيعة قائمةٌ على التّمييز والتفرقة وترتيب الأحياء رأسيًا لا أفقيًا في باب القوّة؛ فَهُمْ بين أعلى وأدنى منه، وأضعف الجميع..

كلُّ ذلك حافزٌ حيويٌّ قويٌّ مُتَمَاهٍ مع الوجود الطبيعيّ لإنكار أخلاق المثل، خاصّةً الرحمة والعفو والتكافل ونجدة المحتاج[1]. فهلْ هناك داعٍ متجاوزٌ للطّبيعة يدعو الملحِدِ إلى أن يصنع أخلاقًا لاطبيعيّة أو فوق طبيعية؟!

الملحِدُ المستسلِمُ لفِطْرته الغابيّة؛ ذئبٌ لأخيه الإنسان، والمعارِضُ لِفِطْرتِهِ الغابيّة، فاقِدٌ لأساسٍ وجوديٍّ يُقيم عليه أخلاقَ الفضيلةِ.

في عالم الإلحاد الصادق مع أصوله؛ طلبُ البقاء هو القيمة الوحيدة، والصراع هو الآليّة، والأنانيّة وحبّ الذات هما مصدر الحركة[2].

(1) عبد الرحمن بدوي، نيشه (الكويت: وكالة المطبوعات، 1975)، ص 201-199، 269-268 .

(2) عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص 103 (بتصرّف يسير).

الإلحاد.. ووهم الجمال

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

(الحج/ 46)

«عندما يموت الإلهُ؛ يموت الجمال»[1]

اللَّاهوتي إدوارد فارلي

(1) Edward Farley, *Faith and Beauty* (Sydney: Ashgate, 2001), p.64.

الجَمَالُ في الإسلام

الجَمَالُ.. ذاك المظهر المثير للأنفسِ السّاكنةِ، المستفزُّ لمن غَلَبَتْهُم العادة والأُلْفةُ، والذي ينشرُ في القلبِ المتعةَ والراحة، ويرتقي بها فوق المظاهر الجامدة للأشياء إلى عالم اللَّذَّة، ويُحَفِّزُ العَقْلَ أن يهتديَ إلى وجودِ الربِّ وعظَمَتِه وكَرَمِه.. هو جزءٌ من جوهر هذا الوجود، ومِجَنٌّ يَتَّقي به المرءُ عادِيَةَ الإمْلالِ!

والخَبَرُ في القرآنِ عن الجَمَالِ وموقِعِه من حياة هذا الإنسان المبتلى بالاختبار، واضحٌ ومُتكرِّرٌ. فالجَمَالُ مُحِيطٌ به حيث أَرْسَلَ بَصَرَهُ، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ (ق/ 6-11).

الجمال في الإسلام بادٍ في عالم الأَحياءِ حيثُ يَجِدُ الإنسانُ النَّفْعَ بالاغْتِذاءِ، والمتعة في النَّظَرِ، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ (النَّحل/ 6).

الجَمَالُ في الإسلام بادٍ في أَجْرام السَّماء، في انتظامها ولَمَعَانها، قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ (الصَّافَّات/ 6).

والجمال سار في مظاهر ما يحوطُكَ من أشياء؛ في كلِّ نوعين منظرهما زاهٍ، «مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيْجٍ»، وفي انتظام أشكالها، «طَلْعٌ نَضِيْدٌ».

التأمّلُ في الجَمَال في الإسلام والاستمتاع به، مطلبٌ شَرْعِيٌّ، يحضُّ عليه الوَحْيُ، قال تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ (الأعراف/ 31-32).

والجَمَالُ في الإسلام ليس قاصرًا على الصَّنْعةِ الإلهيّةِ الظاهرة للعَيْنَيْنِ، وإنّما هو

أَبْعَدُ من ذلك وأَعْمَقُ؛ ومن أعظم تجلّياتِه، خَلْقُ الإنسان على صورةٍ من الصّلاح والاستواء جميلةٍ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ (التين/ 4)[1].

والجمال يبدو أيضًا في الفعل والترك، باختيارِ خير مَسْلكٍ في معاملة النّفس والناس، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ (المُزَّمِّل/ 10)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٤٩﴾ (الأَحْزَاب/ 49).

إنّ موضوعيّةَ الجَمَالِ The objectivity of beauty تعني أنّ الشيء الذي نراه جميلًا، هو في كثير من الأحيان جميلٌ في ذاته، بعيدًا عن رأينا أو رأي مخالفينا. هو جمالٌ من الممكن تفسيرُه، والدفاعُ عنه، ويجوز أخلاقيًّا الإنكارُ على منكرِه، وعند الاختلافِ فيه، يكون هناك طَرَفٌ مُصيبٌ وآخرُ مُخْطِئٌ... فهلْ في الإلحادِ إقرارٌ بوجود الجَمَال الموضوعيِّ في الكون، وَفِيْنَا، أم الجَمَالُ مَحْضُ وَهْمٍ؟

وَهْمُ جَمَالِ الأَحْياءِ

رَفْعُ الرؤية الإلحاديّة السِّحْرَ عن العالم Disenchantment/ Entzauberung[2] بتحويله إلى أشياء فيزيائيةٍ قابلةٍ للقياس والوَزْنِ، بعيدًا عن المعاني الوجوديّةِ الكبرى المتجاوزة للحسِّ، أَورَثَ النَّفْسَ والعالَمَ بُرودًا بلا حياةٍ، فلم يَبْقَ في عالم الحقائق غير العَرَضِ الكَمِّيِّ الذي لا يُمْتِعُ القلبَ، ويُروي الرُّوْحَ.

(1) قال العلّامة ابن عاشور في تفسيره: «والذي نأخذه من هذه الآية أن الإنسان مخلوقٌ على حالة الفطرةِ الإنسانية التي فطَرَ اللهُ النّوعَ ليتّصف بآثارها، وهي الفطرةُ الإنسانية الكاملة في إدراكه إدراكًا مستقيمًا مما يتأدّى من المحسوسات الصّادقة، أي: الموافِقة لحقائق الأشياء الثابتة في نفس الأمر ، بسبب سلامة ما تؤدّيه الحواسُّ السّليمة ، وما يتلقّاه العقلُ السليم من ذلك ويتصرَّفُ فيه بالتحليل والتركيبِ المنتظمَيْن، بحيث لو جانَبَتْهُ التلقيناتُ الضَّالَّةُ والعوائد الذَّميمةُ والطَّبائع المنحرفة والتفكير الضّارّ ، أو لو تسلّطت عليه تَسَلُّطًا ما فاستطاع دفاعها عنه بدلائل الحقّ والصّواب، لجرى في جميع شؤونه على الاستقامة، ولما صَدَرَتْ منه إلّا الأفعالُ الصالحة» (ابن عاشور، التحرير والتنوير، تونس: الدّار التونسية للنشر، 1984م، 425/ 30).

(2) أَشْهَرَ عبارة: «فَكُّ السِّحْرِ عن العالم» في الأدبيّات الاجتماعية والدينيّة، عالِمُ الاجتماعِ الألمانيّ ماكس فيبر. ويُقْصَدُ بها تَقَهْقُرَ القراءة الغيبيّة عامّةً، والدينيّة خاصّة، لصالح القراءة العلمويّة للكون والثّقافة.

ولم يتحرَّجْ كثيرٌ من فلاسفةِ الإلحادِ من الدّعوة إلى إلحاقِ الجَمَالِ بعالم الوَهْم، خاصّة في خُصُومتِهم مع المؤمنين باللهِ الذين يَرَوْنَ الجَمَالَ آيةً على وجودِ الله وجمالِه -سبحانه-. ومن هؤلاء الفيلسوف الملحد الشّهير ج.ل. ماكي[1] في كتابه «الأَخلاق: اختراعُ الصَّوابِ والخَطَأ» حيثُ أَطْلَقَ النَّكِيْرَ على دعوى موضوعيّةِ الجَمَالِ، مُؤكّدًا أنّ الجَمَالَ ليس جُزءًا من نسيجِ الكون، حالُه حالُ القيم الأخلاقية، فإنّ كُلًّا منهما مجرّد ذوقٍ فرديّ. وأضافَ ماكي أنّ ما استَدَلّ به في كتابه لإنكار وجودِ أخلاقٍ لها حقيقةٌ خارج وَعْيِنَا يشمل أيضًا القولَ إنّه لا وجود للجمالِ خارج ذَوْقِنا[2].

وقد كان هيوم قبلَهُ أبرز من أنكرَ موضوعيّة الجمالِ والأخلاق في قوله: «كُلُّ المشاعرِ صحيحة؛ لأنّ الإحساس لا يشير إلى أيّ شيء خارج نفسه، ويكون دائمًا حقيقيًا، كلّما كان الرجل واعيًا بذلك، لكن كلّ قرارات الفهم غير صحيحة؛ لأنها تشير إلى شيء ما وراء نفسها، إلى حقيقة الأمر الواقع؛ ولا تتوافق دائمًا مع هذا المعيار... على العكس تمامًا... لا توجد مشاعر تمثّل حقيقة ما في الشّيء خارجها... الجمالُ ليس صفةً في الأشياء نفسِها: إنه موجودٌ فقط في العقلِ الذي يتأمّل هذه الأشياء؛ وكلُّ عقلٍ يُدرِكُ جمالًا مختلفًا»[3].

إنّ الوجود في الرؤية الإلحادية، رُكامٌ من الأشياء ذات الأبعاد الفيزيائية القابلةِ للقياس الرياضيّاتيّ، وحقيقة هذا الرّكامِ كامنةٌ في الأجزاء الصُّغرى للمادة. وهذه الأجزاء الدّقيقة لا تحمل بمفردها صورةَ الجَمَالِ التي يراها غير الملاحدةِ في الصورة الكبيرة التي تجمع هذه الأجزاء في أشكالٍ وألوانٍ متناغِمةٍ. ومع إنكار وجود ذاتٍ حكيمةٍ أَبْدَعَت الكَوْنَ، وجَمّلَتْهُ؛ تبقى الأجزاءُ الدقيقة للكون حاكمةً أَلَّا جَمَالَ في

(1) جون لزلي ماكي (1917-1981) John Leslie Mackie: فيلسوفٌ أستراليٌّ له عنايةٌ خاصّةٌ بفلسفة الدّينِ، وفلسفة الأخلاق.

(2) John Leslie Mackie, *Ethics*: *Inventing Right and Wrong* (London: Penguin, 1991), p.15

(3) David Hume, On the Standard of Taste
<www.econlib.org/library/LFBooks/Hume/hmMPL23.html.>

اجتماعها؛ لاقتضاء الجمال الحقيقيّ وجود حِكْمةٍ وقُدْرةٍ.. ولا حِكْمةَ في الكون ولا خارجَهُ عند الملحدِ، وأمّا القدرةُ؛ فهي مجرّدُ وَصْفٍ لعَمَلِ الطبيعة.

الجمال عند الملاحدة مجرّدُ وَهْم بَصَرِيٍّ، أي إنّه مجرّدُ إحساسٍ باستحسانِ شيءٍ ما. ولسنا بمخالفتنا لذلك نقول إنّ الجمالَ ذاتٌ قائمةٌ في عالم المثُلِ، أو إنّها مادّةٌ مختلطةٌ بالطّبيعةِ الماديّةِ للأشياء، وإنّما قَصْدُنا بموضوعيّة الجَمَالِ أنّ أشياءَ العالم مُصمَّمةٌ على صورةٍ تثيرُ الإحساسَ بالاستمتاع إذا لم يَقُمْ بين الوَعْي وأشياء العالم حاجِزٌ؛ فالإمتاعُ خِصّيصةٌ من خصائص الشيء، وليس مَحْضَ انفعالٍ شخصيٍّ بلا داع يُلزم كلَّ الأسوياء أن ينفعلوا. فالأشياء الجميلة، مثيرةٌ للإمتاع حتّى لو لم يستمتِعْ بها بَشَرٌ؛ لأنّ طبيعة إثارةِ الإعجاب جزءٌ من صَنْعَتِهَا.

لقد كان جَمَالُ عالم الأحياءِ دائمًا مُلْهِمًا للشُّعراء، وأعظمُ رصيدٍ لهم في مسرح خيالهم الخصب بما يفيض عليهم به من الصُّور العَذْبَةِ والتّشبيهات البديعة؛ فإنّ تلك الألوانَ البديعة المتناغمة، والخطوط المتشابكةَ الجميلة، والأشكالَ المرتّبَةَ الملائمة للحركة والجري والطَّيَران.. كلُّها تَسْحَرُ العَيْنَ، وتُثِيرُ النَّفْسَ، وتُحَرِّكُ الأقلام الجامدة والألسنة المعقودة.. وقد كان ما هو جميلٌ (το καλον) وصالح (το αγαθον) محرّكًا للفِكْرِ النّقديّ في الفلسفة اليونانية؛ فالجَمَالُ زادٌ للتَّفَلْسُفِ.

والإنسانُ باكتشافه الجَمَالَ في الكون يكتشف قيمة الوجود ومعاني الحقّ في هذه الحياة. وعُمْق انجذابنا إلى التّناسق والأناقة، يَكْشِفُ جوانبَ أَصيلةً فينا غير قابلةٍ للاختزال المادّيِّ الرخيصِ. وذاك مبينٌ أنّنا كائنات عميقةٌ، ومعقّدةُ البِنَى، لا يُمَثِّلُ الجانبَ المادِّيَّ فيها غير السَّطْحِ البسيطِ.

وقد كان طابع الجَمَالِ في الحيوان والنّبات مُحفِّزًا عظيمًا للعمل العلميّ؛ فإنّ النَّظَرَ في بديع هذه المخلوقات، وما يكتشفه العالِمُ تِباعًا من أَجْناسٍ جديدة وأشكال بديعة ساحرة للناظرين يبقيه في حال الشّوق الحارّ للنَّظَرِ والتَأَمُّل.. وقد يأسِرُ عالَمٌ واحد من عوالم هذه الكائنات النّفس؛ فيبقيها مجذوبةً إلى هذا البحث والنَّظَر؛ ولا

ترتدُّ إلى عالمها القديم بين الناس.. وقد جَرَّبَ بعضُهم العيشَ مع عالم النَّحْل أو النَّمْل؛ فذابَتْ روحُهُم في جمال الشَّكْلِ ونَمَطِ العيش وتكافل الفرد والجماعة...

وقد عبّر عن ذلك عالم الرياضيات والفيزياء -الشهير- هنري بوانكاري[1] ؛ كاشفًا علاقة الجمال بطلب العلم بالطبيعة؛ فقال عبارته المعروفة: «العالِمُ لا يدرُسُ الطبيعة لأنّه من المفيد القيام بذلك، وإنّما يدرسها لأنه يستمتع بذلك، ويستمتع بذلك لأنّ الطبيعة جميلة. لو لم تكن الطبيعة جميلة لما كان من المفيد معرفتها، ولا كانت الحياة تستحق أن تُعاش. أنا لا أتحدث -بطبيعة الحال- عن الجمال الصادم للحواس المتعلّق بجمال الصفات والمظهر، ولست أحتقر ذاك اللون من الجمال، ولكنّه جَمَالٌ لا علاقة له بالعلم. ما أَعْنِيْهِ هو أن الجمال الأكثر حميميّةً هو الذي يَرِدُ من النظام المتناغم لأجزائه، والذي من الممكن للذّكاء الخالص أن يرصُدَهُ»[2].

وأَدْرَكَ داروين -المعاصر لبوانكاري- تلازُمَ الشُّعور الجماليّ وممارسة العلم؛ فاعترف أنّه قد فقد حِسَّ الاستمتاع بالطبيعة، على غير الصُّورة التي كان عليها قبل صناعته نظريّته في التطوّر؛ وكتب في ذلك إلى أحد أصدقائه سنة 1868 -بعد أن أعرب عن سعادته أنّ صاحبه قد عاد إلى تديّنه-: «أنا أَفْقِدُ الاهتمام بكلّ شيءٍ ما عدا العلم. وفي بعض الأحيان يجعلني ذلك أَكْرَهُ العلم نفسَهُ»[3].

لقد فَقَدَ داروين إحساسَهُ بالمتعة بما هو شاعريّ، وجميل، وجذّاب؛ لأنّه فَقَدَ طبيعة الإحساسِ بالجمال في عالم الأحياء؛ بعد أن ألغى داروين من نظريّته الحاجة إلى مَنْ خَلَقَ الحيوان والنَّبَاتَ فَجَمَّلَهُما. واختصرَتْ بعده «الداروينية الحديثة» قصّة الحياة في سلطان أخطاءِ النَّسْخِ الجِيْنِّي (الطَّفْراتِ العشوائيّة) والانتخاب الطبيعي

(1) هنري بوانكاري (1854-1912) Henri Poincaré: أحد أعلام عصره في علم الرياضيّات. واسع الاهتمامات العلميّة والمساهمات البحثيّة.

(2) Henri Poincaré, *Science et Méthode* (Paris: Flammarion, 1947), p.15

(3) Charles Darwin, *The Life and Letters of Charles Darwin* (London: John Murray, 1888), 3/92

لتحقيق البقاء ضمن سُنّةِ بقاء الأَلْيَقِ بالبيئة؛ فلم يَبْقَ من عالم الحركة غير القَتْلِ النّهوس في غاباتها وأعماق البحار.. وهل هناك أَشَدُّ دعوةً للإملال والبرود من عالمٍ صَنَعَتْهُ العشوائيّة..؟!

وإذا أظهر العالم الداروينيّ استمتاعه بعالم الطبيعة؛ فإنّه يَخُونُ رؤيته الكونيّة بعد استسلامه لفطرته العفويّة التي تهتزُّ طَرَبًا لمرأى الجَمَالِ. ولذلك عندما يعود الداروينيّ إلى حديثه «الأكاديميّ»؛ يتدارَكُ ذلك الانفعالَ العَفْوِيَّ العَذْبَ، بأن يُصرّح أنّ الجمال لم يكن حقيقةً في كائنات البحار والنّهر والرياض، وإنّما في عَيْنِ النَّاظر. لا جمال في ألوانِ طائرِ الدَّرَّاجِ الذَّهبيِّ، وذيل طائر الكوزال، ومنقار طائر الطُّوقان، وتاج الهُدْهُدِ، وريش الطَّاووس.. لا حقيقةَ في العالم غير انفعالاتنا في عالم الإلحاد الماديِّ..

في عالم الإلحاد لا جمالَ على الحقيقة فيما حولك، وإنّما هو وَهْمُ الجمال الذي يتلاعب بخيالِ رأسك؛ فما تراه يدبُّ أو يطير أو يزحَفُ أو يسبح... ما هو إلّا ركامٌ من الخلايا الحيّة؛ فإنّ وجود الجمال رهينُ وجودِ مَنْ خَلَقَ الأشياء لتبدو جميلة؛ وليست العشوائيّة قادرةً لتهبنا الجمالَ، ولا هي كريمةٌ لمنحنا ما لا نستحقُّ.. ولكنَّك لو آمَنْتَ بإلهٍ كريمٍ؛ فستتوق نفسُك لمرائي الجمال التي تُمَتِّعُكَ حين كَدَرٍ أو قَلَقٍ...

في عالم الإلحاد، مناظِرُ سَمَكِ الماندارين، والنُّمور البيض، وفَرَاش مدغشقر، لا تفوقُ في حقيقتها ركامَ النّفايات؛ فلو استملح ملحِدٌ جمال مَكَبِّ المزابِلِ، ورأى فيه لوحةً ماتعةً؛ فليس عليك أن تُنكر عليه ذَوْقَهُ أو تَتَّهِمَهُ بالخَبَلِ؛ فإنّ الجمالَ وَهْمٌ في رأس الناظر، ولا وجود له حقيقة في الأشياء.

وقد كانت أعظمُ جنايات الإلحاد الماديّ على الجَمَالِ، إفقارَها الفَنَّ من العُذوبة. ولذلك كتبَ توماس ويليامز ناعيًا على الثقافة الطبيعانيّة جنايتها على الفنّ؛ فقال: «يخبرنا الاتجاه الذي سَلَكَهُ قِطاعٌ واسع من الفنّانين في الأجيال القليلة الماضية عن يأس الطبيعانيّة. كان هناك وقتٌ كان فيه هدفُ الفنّانِ عَرْضَ الجَمَالِ، لكن عندما أصبحت الفلسفةُ الطبيعانيّة مُهَيْمِنَةً، غَدَا جزءٌ كبيرٌ من الفنّ المنتَجِ فاقدًا للمعنى،

ويائسًا، وخُلوًا من الجمال عن وَعْي. إن الثّقلَ القَمْعِيَّ لفلسفة اللّامعنى قد قَلَّصَ الألوان الزّاهية في أيادي كثيرٍ من الفنّانين غير المؤمنين. وفي يأسهم هذا، رَفَضُوا الجمالَ؛ باعتباره وَهْمًا لا يمكن أن يُخفيَ الفراغ المظلم الذي يعتقدون أنه سيغمر كلَّ شيء في النهاية. وَفَنُّهم هنا يعكس هذا اليأس»[1].

لقد كان جمال عالم الأحياء النافذَ في قلب الرعاة ومحبّي الطيور والخيول والأسماك، أَوَّلَ ضحايا العصر الحديث مع صعود المذهب الداروينيّ القائل بعشوائيّة الصَّنْعةِ؛ حتّى قال الفيلسوف اللّاأَدْرِيّ أنتوني أوهير[2]: «من زاوية نَظَرٍ داروينيّةٍ، من العسير جدًّا تفسير الحقّ والخير والجمال، وتفسير اهتمامنا بذلك»[3].

لقد واجَهَ داروين مشكلةَ الجَمَالِ في ظاهرةِ بقاء الطَّاووسِ بِجَمَالِهِ الأَخَّاذِ دون أن تَكْنُسَهُ آلةُ الانتخابِ الطَّبيعيِّ خارج مجال الأحياء بسبب استفزازِ أَلْوانِهِ للكَوَاسِرِ التي تعيش على لحوم أمثاله؛ فَزَعَمَ أَنَّ أُنْثى الطَّاووسِ تَخْتارُ بِذَائِقَتِهَا الجَماليَّةِ أَجْمَلَ الطَّواويسِ؛ ولذلك قاوَمَ الطَّاووسُ عوامِلَ الفَنَاءِ.

وهذا الرَّدُّ قاصِرٌ وساقِطٌ؛ ويَتَمَثَّلُ قُصورُه في أنَّ «الانتخابَ الجِنْسِيَّ» -إن صَحَّ تفسيرًا- يُفَسِّرُ بقاءَ الأَجْمَلِ ولا يُفَسِّرُ ظُهورَ الأَجْمَلِ، وقضيَّتُنا هنا ليست لِمَ عاش الطَّاووسُ الجميلُ؟، وإنّما لِمَ ظهرَ ابتداءً على هذا الشَّكْلِ البديع؟، وأَمَّا سُقُوطُه فيعود إلى بحثٍ أَجراهُ مجموعةٌ من العلماء في اليابان رأَسَهُم ماريكو تكهاشي من جامعة طوكيو، وأثبتوا بعد دراساتٍ وأبحاثٍ متأنيّةٍ لِسَبْعِ سنواتٍ أنَّ إناثَ الطَّاووسِ لا تهتمُّ بِجَمَالِ الذُّكور عند التَّزاوج[4]، بما يُبْطِلُ وَهْمَ داروين، ويفتح في نظريَّتِهِ شَرْخًا

---

(1) Josh McDowell, Thomas Williams, *In Search of Certainty* (Illinois: Tyndale House Publishers, Inc., 2003), p.83

(2) أنتوني أوهير (1942) Anthony O'Hear: فيلسوف بريطاني. أستاذ الفلسفة في جامعة باكنهام. الرئيس الفخري للمؤسسة الملكية للفلسفة.

(3) Anthony O'Hear, *Beyond Evolution* (New York: Clarendon Press, 2002), p.214

(4) M. Takahashi *et al.,* 'Peahens Do Not Prefer Peacocks with More Elaborate Trains', *Animal Behaviour* 75(4):1209–1219, 2008

جديدًا. ثمّ إنّ الحلَّ الذي أوردهُ داروين لم يَزِدْهُ إلَّا رَهَقًا؛ فهو قد أعربَ عن انْبِهَارِهِ بوجودِ حاسَّةِ تذوّقِ الجَمَالِ عند أُنْثى الطَّاووسِ[1]، لكنَّهُ لم يُفَسِّرْ لنا أصلَ القُدْرَةِ على تَذَوُّقِ الجَمَالِ في العَجْماواتِ، ولا هو قَدَّمَ داعي غَلَبَةِ الحِسِّ الجَمَاليِّ في الحيوان على ضرورةِ التَّمْويهِ (camouflage) لكي لا تكتشِفَ الحيواناتُ الأخرى هذا الكائنَ فَتَفْتَرِسَهُ، ولا طبيعة التَّعقيدِ الجماليِّ في الرِّيْشِ.

وما قَعَّدَهُ داروين يقِفُ ضرورةً ضدّ التّفسيرِ التطوّريِّ لظهور الجَمَالِ؛ فهو القائِلُ: «لا يُمكن للانتخابِ الطَّبيعيِّ أن يُنْتِجَ أيَّ تعديلٍ في نوعٍ حَصْرًا لمصلحةِ نوعٍ آخَرَ»[2]؛ فإنَّ افتراضَ نُمُوِّ الظاهرةِ الجماليّةِ في الطَّبيعةِ لا يَدْعَمُهُ حِرْصُ الكائنِ على تجميلِ نفسِه، ولا حِرْصُ الطَّبيعةِ على تَجْمِيلِه، وإنّما الأمر كما يَزْعُمُ داروين رهين مِزاجِ الأُنْثى التي تنتقي الأَجْمَلَ، فتَضْمَن له بذلك البقاء، وما تَرَكَتْهُ مَسَحَ الانتخابُ الطَّبيعيُّ أَثَرَهُ من الأرضِ.

إنّ مزاجَ الأُنْثى أَضْعَفُ من أن يَشْرَحَ اتّساعَ مساحةِ الجَمَالِ في عالم الحيوانِ، ولا يُفسّره في بديعِ عالم النَّباتِ، ولا أَثَرَ له في عالم الفيزياء.. وأَحافيرُ عالَم الحيوانِ تَشْهَدُ ضِدَّهُ لأنّ طَبقاتِ الأرضِ تشهدُ لِطبيعةِ الاستقرارِ في شكلِ الكائناتِ الحيّةِ، خاصّةً تلك التي حَفِظَتْ لنا الأرضُ أَجْزَاءَها الرِّخْوَةَ؛ فقد عَجِزَتْ ملايينُ السَّنواتِ أنْ تُغَيِّرَ هذه الكائناتِ من الجَمَالِ الأَدْنى إلى ما هو أَعْلى، ولا تَضُمُّ كتبُ البيولوجيا التطوّريةُ صُورًا -حتى من وَحْيِ الخيالِ الخصْبِ لمؤلّفيها- تَشْرَحُ بإفاضةٍ تَطَوُّرَ الجانبِ الجَمَاليِّ في هذه الكائناتِ.

المشكلة في حقيقتها، ليست في وجود الجمال فقط، وإنّما في أنّ الجمال فاشٍ بصورةٍ عجيبة في عالم الأحياء؛ فهو الأصل فيها، وهو مدهش لنا، ومثير لخيالنا، وعذبٌ في حسّنا وذوقنا..

---

(1) Darwin, *The Descent of Man* (London: John Murray, 1888), p. 349

(2) “Natural selection cannot possibly produce any modification in a species exclusively for the good of another species” Darwin, *On the Origin of Species*, p.183

«الجَمَالُ أَحَدُ الطُّرُقِ التي تُخَلِّدُ بها الحياةُ نفسَها، وحُبُّ الجَمَالِ جُذُورُه عميقةٌ في بيولوجيّتنا»[1]. نانسي إتكوف أستاذةُ علم الجمال، الداروينيّة، في كتابها: «بَقَاءُ الأَجْمَلِ».

فماذا يفعل الملحد أمام مرائي جَمَالِ العالم؟

يخبرنا داوكنزُ في كتابه «الصُّعُودُ إلى جَبَلِ اللّااحتمال» أنّه كان بصدد قيادةِ سيّارتِه في طرقِ مناطقَ ريفيّةٍ، وكانت معه ابنتُه ذاتُ السِّتِّ سنواتٍ. وفجأةً أَظْهَرَتْ ابنتُه إعجابها بالزُّهور البريّة. وعندها سألها داوكنز عن رأيها في سبب وجود الزُّهور البرية؛ أجابت البنت على البديهة: «هي كذلك حتّى يبدوَ العالَمُ جميلًا، ولمساعدة النَّحْلِ في صُنْعِ العَسَلِ لَنَا». وهنا عَلَّقَ داوكنز بقوله: «لقد تَأَثَّرْتُ بقولها، وأَسِفْتُ أنَّ عليَّ أن أُخبرَها أنّ الأمر ليس كذلك»[2]. وكأنّه يقول لها مع الشّاعر:

وما الحُبُّ عَنْ حُسْنٍ ولا عن ملاحةٍ *** ولكنَّهُ شيءٌ به الرُّوحُ تُكْلَفُ

وبعيدًا عن أنّ داوكنز قد تحدَّثَ عن جاذبيّة الزهور في إغراء الحَشَراتِ والطُّيور في كتابه: «أَعْظَمُ استعراضٍ على الأرض»، بما لا يستقيم مع إنكاره للجَمَالِ هنا في محاورته مع ابنتِه، يبقى أنَّ داوكنزَ صريحٌ في قوله إنّ التصوُّرَ الإلحاديّ الماديّ لا يرى الجَمَالَ حقيقةً في الوجود، ولا يرى أنّ له دورًا لإمتاع الإنسان.. إنّنا نعيش في عالم الأبعاد الفيزيائية فقط..

(1) Nancy Etcoff, Survival of the Prettiest: *The Science of Beauty* (New York: Anchor, 2000), p.234

(2) Richard Dawkins, *Climbing Mount Improbable* (New York: W. W. Norton & Company, 1997), p.254

العشوائية والجَمَالُ في تنافُرٍ ضروريٍّ، وكلّ إمكان للالتقاء بينهما، صُدْفةٌ عجيبةٌ، لا تَقْبَلُ أن تَتَكَرَّرَ إلى درجةِ الفُشُوِّ.. والطبيعةُ يَغْمُرها الجَمَالُ من كلِّ جِنْسٍ؛ فهي أَبْعَدُ -بذلك- ما يكون عن العشوائيّة.

وَهْمُ الجَمَالِ الفيزيائيّ

إذا كان الإلحاد اليومَ يَدَّعي قداسةَ العِلْمِ في وجودٍ كلُّه قابلٌ للقياس الفيزيائي؛ فهل يملك العالِمُ أن يستغني عن الحسّ الجماليّ في فهم هذا العالم؟

يجيبنا الفيزيائيّ الأمريكيّ الحاصل على جائزة نوبل شارلز تاونز[1]، بقوله: «نحن العلماء عندما نرى العلاقة البسيطة [بين الأشياء] والتي تبدو جميلةً، ينصرف حدسنا إلى أنّ هذه العلاقة ثابتة واقعيًا. إنّ العلماء واللاهوتيّين يُسلّمون أنفسهم إلى الحقيقة المتعالية علينا»[2].

ولأينشتاين عبارةٌ لامعةٌ يقول فيها: «النظريّاتُ الفيزيائيّةُ الوحيدةُ التي نحن على استعدادٍ لقبولها هي النظريّاتُ الجميلةُ» «The only physical theories that we are willing to accept are the beautiful ones»[3].

ويقول عالِمُ الفيزياءِ الملحِدُ العَنِيدُ ستيفن واينبرغ: «تبدو فعاليةُ الأحكامِ الجَمَاليّةِ مُدْهشةً بصورةٍ كبيرةٍ، بالضّبطِ عند تطبيقِ الرياضياتِ البَحْتَةِ في الفيزياءِ.... وقد وُجِدَ أنّ التراكيبَ الرياضيةَ التي اعترف علماءُ الرياضياتِ أنّهم طَوَّرُوها بسببِ بَحْثِهم عن

(1) تشارلز تاونز (Charles Townes (1915-2015: فيزيائيٌّ أمريكيٌّ. له اهتمامٌ بالإلكترونيّات الكموميّة. أشرفَ على مجموعةٍ من المشاريع العلميّة الكبرى للحكومة الأمريكيّة.

(2) Charles H. Townes, “Logic and Uncertainties in Science and Religion”, Pontifical Academy of Sciences, *Scripta Varia* 99 (2001), pp.298-299

(3) E. Wigner, “The Unreasonable Effectiveness of Mathematics in the Natural Sciences,” *Communications in Pure and Applied Mathematics*, vol. 13, No. I (February 1960)

شيءٍ من الجَمَالِ، هي ذاتُ قيمةٍ عظيمةٍ عند الفيزيائيّين»[1]. وأَضَافَ بعبارةٍ مُفاجئةٍ: «عَلَيَّ أن أَعْتَرِفَ أنّ الطبيعةَ تبدو أحيانًا أَجْملَ ممّا هو ضروريٌّ بَحْتٌ»[2].

وقريب من ذلك قول بول ديراك[3] الفيزيائي الملحد الحائز على نوبل: «إنّ تحصيل الجَمَالِ في معادلاتنا أهمُّ من أن تُوافِقَ هذه المعادلات التّجربة» «It is more important to have beauty in one's equations than to have them fit experiment»[4].

ويخبرنا التاريخ أنّ بول ديراك قد نَشَرَ معادلةً سنة 1928 لما كان سنّه 25 سنة لوصف سلوكِ الإلكترون الذي كان يُعَدُّ أَخَفَّ جُزيءٍ معروف في تلك الفترة. وقد انتهى ديراك إلى معادلته «بالتَّلاعُبِ» بالبحث؛ طَلَبًا «لرياضيات جميلة» -كما قاله بلسانِه-. وقادته معادلته إلى الجمع بنجاحٍ بين النسبيّةِ الخاصة وميكانيكا الكَمّ. وأصبح كشفُه بعد ذلك ركنًا أساسيًّا في الفيزياء. وانتهى به إلى الحصول على جائزة نوبل. وكانت بذلك قصّتُه تُذكر دائمًا في معرض بيان العلاقة الحقيقيّة والقويّة بين الرياضيات -ببنائها الرياضيّ الذِّهنيّ الجميل- والعالم الماديّ؛ حتى قال الفيزيائيُّ فرانك ولتزك[5] -الحاصل على نوبل-: «في الفيزياء الحديثة، وربما في كل التاريخ الفكري، لا توجد حلقةٌ تُوضّح الطبيعةَ الإبداعية العميقة للتفكير الرياضي أعظم من تاريخ معادلة ديراك»[6].

---

(1) Steven Weinberg, *Dreams of a Final Theory* (London: Vintage Digital, 2010), p.153

(2) Ibid., p.250

(3) بول ديراك (1902-1984) Paul Dirac: أحد أبرز علماء الفيزياء النظريّة في القرن العشرين. لُقّب بأبي ميكانيكا الكَمّ.

(4) Paul Dirac, "The Evolution of the Physicist's Picture of Nature", *Scientific American,* Vol. No. 5 (May 1963), p 208

(5) فرانك ولتزك (1951) Frank Wilczek: فيزيائي وعالم رياضيات أمريكي. حصل على جائزة نوبل سنة 2004.

(6) Dennis Overbye, The Most Seductive Equation in Science: Beauty Equals Truth, *The New York Times, March* 26, 2002 <https://www.nytimes.com/2002/03/26/science/the-most-seductive-equation-in-science-beauty-equals-truth.html>

وهنا علينا أن نطرح اعتراضَيْنِ على النظرة الملتزمةِ بالفهم الإلحاديّ للكون، بما في ذلك ذاتيّة الجَمَالِ، وأنّه لا وجود له -حقيقةً- خارج وَعْينا:

الاعتراض الأوّل: إذا كان الجَمَالُ ناجحًا في توجيه الفيزيائيّين لبناء نظريّات علميّةٍ مطابقة للواقع الخارجيّ المدروس؛ فكيف من الممكن -عندها- أن نختزلَ الجَمَالَ في أوهامِنا البصريّة وذائقتنا الشّخصيّة؟!

الاعتراض الثاني: إذا كان الجمال ذاتيًا شخصيًّا، وكان العلماء في عامّة أحوالهم يتّخِذُونه حُجّةً لِفَهْمِ العالم؛ أَلَا يؤول ذلك -ضرورةً- إلى التشكيك في الكشف العلميّ نفسِه باعتباره ذاتيًا، لا يعكس العالم الخارجيّ؟!

وبعيدًا عمّا سبق، نعود لأصل الحديث في هذا الكتاب؛ لنسأل في دهشةٍ: لماذا يخون الملاحدةُ إلحادَهم، وينتهون إلى جمال العالم، رغم أنّ الإلحادَ قائمٌ على القول بغيابِ الحكمةِ والقصد في بناء الكون؟! أَلَيْسَ قُبْحُ الكونِ الماديّ كلّه أقرب إلى التصوّر -إن صدّقنا وجود قيم الجمال والقبح-؛ فإنّ البنى الوظيفية الحيّة قد وُجدت لتعيش لا لتَتَجَمَّلَ دون داع حياتي؟! وإذا كان قُبْحُ الكونِ أَقْرب إلى العقل الإلحاديّ من جماله؛ فلِمَ يتشبّث الفيزيائيون الملاحدة بجماله؟!

الوَهْمُ في التصوّر الإلحاديّ، قوّةٌ فاعلةٌ ومُرِيْدةٌ ومُبْدِعةٌ!

وَهْمُ جَمَالِ الأَنْفُسِ

لا يظهر الجَمَالُ فقط في الخطوط والألوان والحركات، وإنّما أعظم الجمال كامنٌ في القَلْبِ، في دَفْقَةِ الحُبِّ ورَعْشةِ الشَّوقِ إلى من تُحِبُّ وما تحبّ، ذلك

الشُعورُ العَذْبُ الذي يَدْفَعُكَ إلى استعذابِ الوجود رغم ما فيه من مرارة، والاستهانة بالشّدّة على ما فيها من عَنَتٍ.. أَنْ تُحِبَّ أَباكَ وأُمَّكَ، أنْ تحبّ زوجتَك، أن تحبّ ابنَك وابنتَك، أن تحبَّ الصالحين، أن تحبّ المصلحين الذين باعوا النفس لنشر قيم الحق والخير والجمال..

ولكن هل للحبِّ نصيبٌ، أو وجودٌ في قلبِ الملحد؟ وأنا هنا لا أسألُ عن واقع الملحد، وإنّما عَمَّا يجب أن يكون عليه لو التزمَ اتّباع الإلحاد حتّى آخر الطريق؛ فإنّي -كما تَعْلَم- لا أعتقد أنّه يوجد ملحدٌ بريءٌ من مخالفةِ الإلحاد على الأرض..

لن أمنحكَ الجواب بلساني، وإنّما اقرَأ جواب داوكنز عن سؤالٍ في هذا الحوار الصحفيّ؛ ففيه الغُنْيةُ عن أن أُدِينَ الإلحادَ بما قد يبرأ منه أَنْصارُه؛ فقد أبانَ داوكنز عن حقيقةِ الصُّورة كما هي، وإن كُنتُ أَجْزِمُ أنّه لا يلتزمها في نفسِه -كعادة الملحدين-.

الصحفيّ: قال عيسى [عليه السّلام] إنّ الحبَّ هو غرضُ الحياة[1]. هل يبدو لك ذلك بلا معنى؟

داوكنز: هذا يبدو وكأنّه شيءٌ مُقْحمٌ على الحياة، شيءٌ زائد غير ضروريٍّ... ولكن لا يفاجئني أن تكون العقولُ كما هي الآن، بقدرتها على ابتكارِ أغراضٍ زائفةٍ للكون...

الصحفي: تريد أن تقول إنّ الحبَّ هدفٌ زائفٌ؟

داوكنز: حسنًا، الحبُّ ليس غَرَضًا. الحبُّ هو العاطفة (التي أشعر بها بالتأكيد) وهو أَحَدُ خصائص الدّماغ.

الصحفي: نتيجةٌ ثانويّةٌ لعمل الدّماغ؟

---

(1) هذه العبارة لا تصح نسبتها إلى مسيح الأناجيل، ولا هي مستقيمة عقلا.

داوكنز: حسنًا، ربما يكون أكثرَ من مُجرّدِ مُنْتجٍ ثانويٍّ. ربما يكون مُنْتجًا مُهمًّا جدًّا لبقاء الجِيْناتِ.[1]

ذاك هو القَلْبُ، في عالم الإلحاد.. مُضْغةٌ تتحرَّكُ بقهرِ الرّصيدِ الجِيْنِيِّ.. فلم يَبْقَ بعد ذلك شيءٌ جميلٌ في العالم؛ فإنّك عندما تُطفئ سراج القلبَ؛ فلا يغشاه نورُ الحبّ؛ لا يبقى للجمال مكانٌ ولا مجالٌ.. هو وجود شاحِبٌ لا يستثير في نفس الملحِدِ -الصَّادقِ في إلحاده- شيئًا من العاطفة العفويّة ولا يملؤها قَسْرًا بحال النّشوة؛ لأنّ الجَمال لا وجود له خارج كيمياء الدماغ، ولا قلبَ في الصدر يملك بصدق أن يحبّ شيئًا من الجمال..

.. ولكن قد تُنكر العينُ ضوءَ الشّمسِ من رَمَدٍ.. فالشّمسُ هناك ساطعةٌ، والعينُ في الأرض بها رَمَدٌ؛ فلا تُبصر المُبصرات.. والحقّ أنّ الجَمَالَ حقيقةٌ لا أمل لأحدٍ أن يُنكر وجودَها الحقيقيّ في النفس وأشياء العالم.. إنّ حقيقةَ وجود الجَمَالِ ضاغطةٌ على الأنفس من الـمُحالِ الانفكاك عنها؛ فهي جزءٌ من حقيقةِ الأشياءِ وغرضها في الوجود. والإنسانُ إذا داهمَهُ الجَمَالُ؛ أَفْلَتَ منه قلبُه، وشَخَصَ ببصره طالبًا لذاذةَ النَّظَرِ. وهو حينَها بلا قدرةٍ على المعاندة والملاجَجَةِ إلا أن يمنعه من ذلك مانع أخلاقي أو ثقافي. وما حديث الملاحدة عن «وَهْمِ الجَمَالِ» سوى لَدَدٍ فلسفيّ؛ في محاولة مُرهِقةٍ ويائسةٍ للوفاء للمبدأ الإلحاديّ في باب القيم.

ولذلك، رغم انتشار الحالة الإلحاديّةِ في طبقة الفلاسفة في الغرب، إلّا أنّ 41 ٪ من الفلاسفة المعاصرين «يَقْبَلُونَ أو يَمِيْلُون إلى» موضوعيّة الجمال، في حين «يَقْبَلُ أو يميل إلى» أنّ الجَمَالَ شخصيٌّ 34.4 ٪ فقط من مجموع الفلاسفة المعاصرين[2].

ولنعد إلى أصل الحديث في هذا الكتاب، ولنسأل: هل يملك الملحد أن يُصَدِّق

(1) <http://www.thirdworldtraveler.com/Dawkins_Richard/RDawkinsinterview_NPollard.html >

(2) < https://philpapers.org/surveys/results.pl>

أَلَّا جَمَالَ حقيقةً في الأرض ولا في السماء؟ وهل يملك أن يَصْدُقَ في إلحاده؛ فلا يرى للجَمَالِ وُجودًا؟

إنّ الإلحادَ معاناةٌ في التصوُّرِ، ومأساةٌ في المعايشةِ.. ولذلك لا يجد الملحد حَلًّا لأَزْمَتِهِ إلَّا أن يعيشَ التّناقضَ كلَّه، في استسلامٍ لا يُغْبَطُ عليه.

> عالَمُ الإِلحادِ مُخِيْفٌ؛ لا خَيْرَ فيه، ولا عَدْلَ، ولا جَمَالَ.. كُلُّ شَيْءٍ وَهْمٌ!

كلمات في الختام

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ ﴾ (طه/ 124-126).

«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»[1].

محمّد صلّى الله عليه وسلّم

---

(1) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي صلّى الله عليه وسلم: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، (ح/ 6120)، ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره صلّى الله عليه وسلّم، (ح/ 2359).

الإنسان في الإسلام، مخلوق مكرّم بأصل الخلقة. قال ابن العربي المالكي: «لَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَى خَلْقٌ هُوَ أَحْسَنُ مِنْ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ حَيًّا عَالِمًا، قَادِرًا، مُرِيدًا، مُتَكَلِّمًا، سَمِيعًا، بَصِيرًا، مُدَبِّرًا، حَكِيمًا، وَهَذِهِ صِفَاتُ الرَّبِّ، وَعَنْهَا عَبَّرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ، وَوَقَعَ الْبَيَانُ بِقَوْلِهِ: «إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»، يَعْنِي عَلَى صِفَاتِهِ الَّتِي قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا»[1].

وأمّا الإنسان في الرؤية الإلحادية؛ فبهيمة حينًا، وآلة صمّاء أخرى..والجهد الفكري لملاحدة القرنين الأخيرين منصبّ على نفي أيّ تكريم خاص به.

***

ما أجوبة الإلحاد على أعظم أسئلة الإنسان؟

يجيبنا الفيلسوف الملحد ألكسندر روزنبرج في بداية كتابه «دليل الملحد إلى الواقع»، بقوله:

«هل يوجد إله؟ لا.

ما هي طبيعة الواقع؟ ما تقوله الفيزياء.

ما غاية الكون؟ لا توجد أيّ غاية.

ما هو معنى الحياة؟ كما سبق.

لماذا أنا هنا؟ ضربة حظ.

هل الدعاء مفيد؟ طبعًا لا.

هل هناك روح؟ هل هي خالدة؟ أنت تمزح؟!

هل هناك إرادة حرة؟ لا، البتّة!

ماذا يحدث عندما نموت؟ كل شيء يسير إلى حد كبير كما كان من قبل، باستثناء حالنا نحن.

---

(1) ابن العربي، أحكام القرآن (بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ/ 2003م)، 415/ 4.

ما الفرق بين الصواب والخطأ، والخير والشر؟ لا يوجد فرق أخلاقي بينهما.

لماذا يجب أن أكون أخلاقيًا؟ لأنّ ذلك يجعلك تشعر بأنك أفضل من أن تكون غير أخلاقي.

هل الإجهاض، أو القتل الرحيم، أو الانتحار، أو دفع الضرائب، أو المساعدة الأجنبية، أو أي شيء آخر لا تحبّه هو ممنوع، أو مسموح به، أو إلزامي في بعض الأحيان؟ كل شيء جائز.

ما هو الحب، وكيف أجده؟ الحب هو الحل لمشكلة التفاعل الاستراتيجي. لا تبحث عنه، سوف يجدك عندما تحتاجه.

هل للتاريخ أي معنى أو غرض؟ التاريخ مليء بالصخب، لكنّه لا يعني شيئًا.

هل في الماضي البشري أيّ دروس لمستقبلنا؟ شيء قليل جدًا، إن كان هناك شيء أصلًا»[1].

***

لو أردتَ أن تبحثَ في حقيقة الإلحاد، وفَتَّشْتَ في أدبيّاتِه عن أَبرزِ ملامِحِهِ وأَظْهَرِ مَعَالِمِهِ، فلا أَظُنُّك تخرج بغيرِ حقيقةِ أنّه التيّار الأكثرُ تناقضًا؛ فهو يَتَبَنَّى الفكرةَ وضِدَّها، والدَّعوى وما يَطْمِسُ ظِلَّها. هو التيّار الذي يُصرِّحُ بدعوى ما، بِجَزْمٍ، غير أَنَّ النَّبْشَ والتّفكيك يكشفان أنّه يُؤمِنُ بغير ما يقولُ، ويَفْرَحُ بما كان يُدِينُه..

***

أصول الإلحاد الحقيقيّة، لا سبيل البتّة لالتزامها -مجتمعة- عمليًا؛ ولذلك فالإلحاد وهم، لا يملك غير الثرثرة.. وكما يقول فرنسيس شيفر[2]: «من الصعب[3]

---

(1) Alexander Rosenberg, *The Atheist's Guide to Reality,* pp.2-3

(2) فرنسيس شايفر Francis Schaeffer (1912-1984): لاهوتيٌّ وفيلسوفٌ أمريكيٌّ شهيرٌ. من أعلام الدّفاعيّين النَّصارى المهتمّين بكشف تناقضات ثقافة الحداثة وما بعد الحداثة.

(3) صعوبة نقض هذا المذهب لا تكمن في قوّته، وإنّما في أنّه ينتهي إلى السفسطة التي تُنكر معنى كلّ شيء. والأصل أنّ أهل السفسطة لا يُناظرون لأنّهم يُنكرون حقيقة العقل والحس.

أن تنقض مذهب إنسانٍ يرى بإصرار ووفاء أنّه لا معنى لشيء، وأنّه لا توجد أجوبة للأسئلة، وأنّه لا توجد علاقة بين الأسباب والآثار. ومن حسن الحظّ أنّه لا يوجد أحد يلتزم حقًا أنّ كلّ شيء هو فوضوي وغير عقلاني، وأنّه لا توجد أجوبة أساسيّة. إنّ ذاك المذهب من الممكن تبنّيه نظريًا، ولكن لا سبيل لتبنّي القول إنّ كلّ شيء في فوضى مطلقة -عمليًا-»[1].

***

من هو الملحد، في كلمة..؟

الملحد هو ذاك الذي يؤمِنُ بالشّيء ونقِيضِه، دون أن يجدَ في ذلك حَرَجًا؛ لأنّه فاقدٌ لِلوَعْيِ بتناقُضِه، أو لأنّه عاجزٌ عن البراءَةِ من ذلك.

هو ذاك الذي يؤمن أنّ الإنسان كائنٌ عظيمٌ عليه مدارُ كلّ شيء، وأنّه بهيمةٌ لا قيمةَ لحياتها وجُهدِها وأشواقِها..

هو ذاك الذي يؤمن أنّ الحِكْمةَ أَصْلُها العَبَثُ، والقيمةُ الإيجابيّة تَكْمُن في العَدَمِ..

هو ذاك الذي يؤمن أنّ أعظمَ معركةٍ في الوجود هي تلك التي ينشر فيها الإنسانُ قِيَمَ الخيرِ والعَدْلِ والرحمة، رغم أنّ الخير والعدل والرحمة مجرّدُ أوهامٍ في عُقولِ أَهْلِها.

هو ذاك الذي يُمَجِّدُ صُعودَ الجبال، ومواجهة المخاطر، وصناعةَ الأمجاد.. رغم أنّه يرى أنّ الإنسانَ بلا إرادةٍ ولا اختيارٍ..

هو ذاك الذي يرى العقل أعظمَ شيءٍ في الكون، لكنّه يرى الدّماغ أثرًا عن طفراتٍ عمياءَ عن بهائِمَ أُولى لا عقلَ لها..

.. هو ببساطة ذاك الذي يُمَجِّدُ النُّورَ، رغم أنّه يَطْمِسُهُ بيدَيْ رُؤيتِه الكونيّةِ..

***

(1) Francis Schaeffer, *He Is There and He Is Not Silent* (Illinois: Tyndale House Publishers, Inc., 2013), pp.4-5

الملحد في صراعه مع الدِّينِ يَصْنَعُ الكَعْكةَ، ثم يأكُلُها وَحْدَهُ (كما يُقال في المثل الإنجليزيّ)؛ فهو يَهْدِمُ المعنى نكايةً في الدِّينِ والتزامًا بإلحادِه؛ وينتصرُ له طَلَبًا للحياة ونكايةً في الدِّينِ..

ويُنكر الغاية من الحياةِ معارضةً للدِّينِ والتزامًا بإلحاده، وينتصر للمعنى طلبًا للحياة وفرارًا من فراغ العَدَمِيّةِ..

ويَتَنَكَّرُ للأخلاق الموضوعيّة براءةً من الدِّينِ والتزامًا بإلحاده، وينتصر للأخلاقِ الموضوعيّة استجابةً لفطرتِه ونكايةً في المتديّنين...

***

الشِّعارُ الأكبر للإلحاد، الانتصارُ للعَقْلِ والإنسانيّةِ.. والإلحادُ -في حقيقته- مؤمنٌ بالدّماغ، كافِرٌ بالعَقْلِ، و«مُحَيْونٌ» للإنسانِ، كافِرٌ بتكريمه، ومُنْحازٌ لآليّته، كافِرٌ بِحُرِّيَّتِهِ..

***

لا يوجد عذابٌ يلقاه الملحِدُ، أَشَدَّ من سؤالِ معنى الحياة، عندما يَطْرُقُه في خَلْوَته بنفسِه، أو يُوقِظُه من نَوْمَته؛ لِيَجْلِدَهُ بِسَوْطِ الحَيْرةِ وصَرْخةِ الفِطْرةِ المُخْبِرةِ أنّ هذا الكونَ لا يُمكن أن يكون صَنِيْعةَ العَبَثِ..

***

هل يستطيع الملحد أن يعيش في كونٍ لا يُدِينُ الرَّذِيلةَ، ويرى النَّهْبَ والفَتْكَ والخديعة أفعالًا عفويّةً لكائنات أَصْلُها غابِيٌّ مُتَوَحِّشٌ؟!

إنّ الملحدَ عاجزٌ أن يساويَ بين الفضيلةِ والرّذيلةِ؛ حتّى لو أَلَّفَ في العَدَميّةِ الأخلاقيةِ والنسبيّةِ القيميّةِ المطوّلات.. إنّه أَسِيْرُ قَلْبِهِ الآدَمِيِّ الحَيِّ ببقيّة الخيرِ التي فيه.

***

كثيرًا ما يقول الملحد إنّه يَفِرُّ من عالَم اللّامعنى إلى معاني الجَمَالِ في الفنّ لِيُحقّق معنًى لحياتِه الخاصّة.. ولكنّ عالَم الملحدِ بريءٌ من الجَمَالِ؛ فإنّ ما تَسْتَمْلِحُهُ العَيْنُ مَحْضُ وَهْمٍ لا حقيقةَ له في الواقعِ الموضوعيّ للكون..

***

خلاصة هذا الكتاب هي أنّ الإلحادَ لا يرتقي إلى أن يكونَ خَطَأً.. إنّه دون ذلك؛ إنّه شيءٌ مستحيلٌ غيرُ قابلٍ للتصوُّرِ، و«مستحيل»؛ لأنه لا يُمكن أن يُعاش.. فكيف يوجد إذنْ عندها مُلْحِدٌ صادِقٌ في إلحادِهِ؟!

***

لستُ أَطْلُبُ من القارئ الملحد -بعدما سبق من حديثٍ في هذا الكتاب- أن يؤمنَ بالله أو بالإسلام إذا وجد نفسَه تأبى ذلك، وإنّما سأطلبُ منه أن يَهَبَنِي وَجْهًا صادِقًا.. وجهًا يَصْدُق في التعبير عن نبضات قَلْبِ ملحدٍ لم يخالِطْهُ شيءٌ من الإيمان بمعنى الوجود، وحتميّةِ المأساة الوجوديّة.. وَجْهًا تعلُوه الصُّفْرةُ، ويَغْشاهُ القَلَقُ، ويأكلُه الرُّعْبُ من ضَيْعةِ العُمُرِ وخَيْبَةِ المَسْعَى.. وجهًا يُدرك أنّ حياة الإنسان -إن كان الإلحاد حقًّا- مُفَرَّغَةٌ من القيمة، ومُتّجهةٌ إلى الخراب؛ إذ إنّ كلَّ جهد، وصبرٍ، وأملٍ، ورجاء، حَماقةٌ كَحَمَاقةِ مَنْ يَطْلُبُ من العَطِشِ رِيًّا..

أَقْنِعْنِيْ أَنَّكَ تُدْرِكُ ما أنت عليه؛ حتى يكون اعتراضي عليك علميًّا صِرفًا؛ فإنّي لم أر مُلْحِدًا -إلى يومي هذا- يُبدي في ملامح وَجْهِه حقيقةَ الإلحاد، إلّا من سَمِعْتُ عن خَبَرِ انْتِحارِهم؛ فقد أَدْرَكُوا أنَّ إزهاقَ النَّفْسِ فرارًا من عذاباتِ الدُّنيا المَجَّانِيّة أَصْدقُ وفاءٍ لِلعَدَمِيَّةِ..!

المراجع

العربية

1. ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1416هـ/ 1995م.
2. ابن عاشور، التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م
3. ابن العربي، أحكام القرآن، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ/ 2003م.
4. بدوي، عبد الرحمن، نيتشه، الكويت: وكالة المطبوعات، 1975م.
5. عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، دستور العلماء، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، تعريب: حسن هاني فحص، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م.
6. القرافي، العقد المنظوم في الخصوص والعموم، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، 2001.
7. المسيري، عبد الوهاب، إشكالية التحيز، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1417هـ/ 1996م
8. المسيري، عبد الوهاب، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، بيروت: دار الفكر، 1431هـ/ 2010م.

الكتب الإنجليزية

- Baum, *What is Thought?,* Cambridge, Mass.; London: MIT, 2006.
- Brooks, Rodney, *Flesh and Machines*: *How Robots Will Change Us,* New York: Pantheon, 2002.
- Butt, Kyle, *A Christian's Guide to Refuting Modern Atheism,* Montgomery, AL: Apologetics Press, Inc., 2010.
- Camus, Albert, *The Myth of Sisyphus,* ed. Justin O'Brien, New York: Vintage, 1983.
- Carroll, Sean, *The Big Picture,* London: Oneworld Publications, 2016.
- Collins, Phillip Darrell, *The Ascendancy of the Scientific Dictatorship,* Charleston: BookSurge, 2006.
- Crick, Francis, *Astonishing Hypothesis*: *The Scientific Search for the Soul,* New York: Simon and Schuster, 1995.
- Darwin, Charles, *Autobiographies,* London: Penguin, 2002.
- Darwin, Charles, *On the Origin of Species,* Ontario: Broadview Press, 2003.
- Darwin, Charles, *The Descent of Man,* London: John Murray, 1888.
- Darwin, Charles, *The Life and Letters of Charles Darwin,* London: John Murray, 1888.
- Dawkins, Richard, *Climbing Mount Improbable,* New York: W. W. Norton & Company, 1997.
- Dawkins, Richard, *Outgrowing God,* New York: Random House, 2019.
- Dawkins, Richard, *River out of Eden,* New York: Basic Books, 2008.
- Dawkins, Richard, *The Blind Watchmaker,* New York: W. W. Norton and Company, 1986.
- Dawkins, Richard, *The God Delusion,* New York: Houghton Mifflin Harcourt, 2008.

- Dawkins, Richard, *Unweaving the Rainbow: Science, Delusion and the Appetite for Wonder,* New York: Houghton Mifflin, 2010.
- Dowbiggin, Ian, *A Merciful End*: *The Euthanasia Movement in Modern America,* Oxford: Oxford University Press, 2003.
- Ehrman, Bart, *God's Problem*: *How the Bible Fails to Answer our Most Important Question—Why We Suffer,* New York: HarperOne, 2008.
- Etcoff, Nancy, *Survival of the Prettiest*: *The Science of Beauty,* New York: Anchor, 2000.
- Farley, Edward, *Faith and Beauty,* Sydney: Ashgate, 2001.
- Frankl, Viktor E., *Man's Search for Meaning,* Boston: Beacon Press, 2015.
- Frankl, Viktor E., *The Doctor and the Soul*: *From Psychotherapy to Logotherapy* New York: Vintage Books, 1986.
- Gordon, Bruce L., Dembski, William A., *The Nature of Nature*: *Examining the Role of Naturalism in Science,* Intercollegiate Studies Institute. Kindle Edition.
- Gray, John, *Straw Dogs* London: Granta Books, 2002.
- Haldane, J.B.S., *Possible Worlds,* NJ: Transaction Publishers, 2009.
- Harari, Yuval Noah. *Sapiens*: *A Brief History of Humankind,* London, Vintage Books, 2014.
- Harris, Sam, *The Moral Landscape*: *How Science Can Determine Human Values,* New York: Simon and Schuster, 2011.
- Hawking, Stephen, *The Grand Design,* New York: Random House Publishing Group, 2010.
- Hillman, James, *The Soul's Code,* New York, Random House, 1996
- Hume, David, *On the Standard of Taste*.
- Huxley, Julian, *Man in the Modern World,* New York: New American Library, 1944.
- Jaspers, Karl, *Nietzsche*: *An Introduction to the Understanding of His Philosophical Activity,* London: JHU Press, 1997.

- Kemp N. D. A., *Merciful Release*: *The History of the British Euthanasia Movement,* Manchester: Manchester Univ. Press, 2002.
- Kohn, David, ed. *The Darwinian Heritage,* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985.
- Lewis, C. S., *The Weight of Glory,* New York: Zondervan, 2001
- Lewis, C.S., *Miracles,* London: HarperOne, 2009.
- Locke, John, *Locke*: *Political Writings,* ed. David Wootton, Cambridge: Hackett Publishing, 2003.
- Mackie, J.L., *The Miracle of Theism,* Oxford: Oxford University Press, 1982.
- Mackie, John Leslie, *Ethics*: *Inventing Right and Wrong,* London: Penguin, 1991.
- McDowell, Josh, Williams, Thomas, *In Search of Certainty,* Illinois: Tyndale House Publishers, Inc., 2003.
- Mele, Alfred, *Free*: *Why science hasn't disproved free will,* New York: Oxford University Press, 2015.
- Messerly, John G., *The Meaning of Life*: *Religious, Philosophical, Transhumanist, and Scientific Perspectives,* Darwin & Hume Publishers, 2013.
- Nagel, Thomas, *The Last Word,* Oxford: Oxford University Press, 2009
- Nash, Ronald H., *Life's Ultimate Questions*: *An Introduction to Philosophy,* Zondervan Academic, 2013.
- Nichols, Terence L., *The Sacred Cosmos,* Oregon: Wipf and Stock Publishers, 2009.
- Nielsen, Kai, *Atheism and Philosophy,* New York: Prometheus, 2005.
- Nietzsche, Friedrich, *The Gay Science,* tr. Josefine Nauckhoff, Cambridge: University Press, 2001.
- Nietzsche, Friedrich, *The Will to Power,* Tr. Anthony M. Ludovici, New York: Courier Dover Publications, 2019.
- O'Hear, Anthony, *Beyond Evolution,* New York: Clarendon Press, 2002.

- Plantinga, Alvin, *Where the Conflict Really Lies*: *Science, Religion, and Naturalism,* OUP, 2011.
- Poplin, Mary, *Is Reality Secular?,* Downers Grove, IL: InterVarsity, 2014.
- Rachels, James, *Created from Animals*: *The moral implications of darwinism,* Oxford; New York: Oxford University Press, 1990.
- Ratzinger, Joseph, *Faith and Culture,* Chicago: Franciscan Herald Press, 1971.
- Zacharias, Ravi, *The Real Face of Atheism,* MI: Baker Books, 2004.
- Razinsky, Freud, *Psychoanalysis and Death,* Cambridge: Cambridge University Press, 2012.
- Rosenberg, Alexander, *The Atheist's Guide to Reality*: *enjoying life without illusions,* New York: W.W. Norton, 2011.
- Sartre, Jean-Paul, Benny Lévy, *Hope Now*: *The 1980 Interviews,* University of Chicago Press, 1996.
- Sartre, Jean-Paul, *Existentialism is a Humanism,* New Haven, Conn.: Yale University Press, 2007.
- Sartre, Jean-Paul, *Notebooks for an Ethics,* University of Chicago Press, 1992.
- Seachris, Joshua W., ed. *Exploring the Meaning of Life*: *An Anthology and Guide,* Johanneshov: MTM, 2015.
- Schaeffer, Francis, *He Is There and He Is Not Silent,* Illinois: Tyndale House Publishers, Inc., 2013.
- Simpson, G. G., *The Meaning of Evolution*: *A study of the history of life and of its significance for man,* New Haven, CT: Yale University Press, 1967.
- Singer, I. B., *The Séance and Other Stories,* New York: Farrar, Straus and Giroux, 1968.
- Singer, Peter, *Practical Ethics,* Cambridge: Cambridge University Press, 1993.
- Slingerland, Edward, *What Science Offers the Humanities*: *Integrating Body and Culture,* Cambridge: Cambridge University Press 2008.
- Smilansky, Saul, *Free Will and Illusion,* Oxford: Oxford Press, 2000.
- Spencer, Herbert, *The study of sociology,* London: Williams and Norgate, 1874.

- Stenger, Victor J., *God: The Failed Hypothesis,* Prometheus Books, 2008.
- Stewart-Williams, Steve, *Darwin, God and the Meaning of Life: How Evolutionary Theory Undermines Everything You Think You Know,* Cambridge: Cambridge University Press, 2010.
- Weikart, Richard, *From Darwin to Hitler, Evolutionary Ethics, Eugenics, and Racism in Germany,* New York: Palgrave Macmillan, 2006.
- Weinberg, Steven, *Dreams of a Final Theory,* London: Vintage Digital, 2010.
- Williams, Peter S., *C. S. Lewis vs the New Atheists,* London: Paternoster, 2013.
- Wilson, E. O., *Sociobiology: The new synthesis,* Cambridge, MA: Belknap Press, 1975.

المقالات الإنجليزية

- Anderson, James, ‘a book review of The Atheist’s Guide to Reality: Enjoying Life Without Illusions by Alex Rosenberg’, in *Christian Research Journal* volume 36, number 03 (2013).
- Nozick, R. ‘About mammals and people,’ *New York Times Book Review,* 1983. 11.
- Singer, Peter, ‘Sanctity of Life or Quality of Life?’, *Pediatrics* July 1983, 72 (1).
- Rorty, Richard, ‘Untruth and Consequences,’ *The New Republic,* July 31, 1995.
- Overbye, Dennis, ‘Free Will: Now You Have It, Now You Don’t.’ *The New York Times*. January 2, 2007.
- Vohs, Kathleen. Jonathan Schooler, ‘The Value of Believing in Free Will.’ *Psychological Science*. Volume 19—Number 1. 2008.
- Gould, Stephen, ‘The Meaning of Life,’ *Life Magazine,* December, 1988.
- Gillespie, John H., ‘Sartre and God: A Spiritual Odyssey?’ Part 2, *Sartre Studies International,* Vol. 20, No. 1 (2014).
- Townes, Charles H., ‘Logic and Uncertainties in Science and Religion’, Pontifical Academy of Sciences, *Scripta Varia* 99 (2001).

- Dawkins, Richard, ‘The Atheist Evangelist,’ *ByFaith,* 18 December 1st, 2007.
- Daigle, Christine, ‘Sartre and Nietzsche’, *Sartre Studies International,* Vol. 10, No. 2 (2004).
- Overbye, ‘Dennis, The Most Seductive Equation in Science: Beauty Equals Truth,’ *The New York Times,* March 26, 2002.
- Dirac, Paul, ‘The Evolution of the Physicist’s Picture of Nature’, *Scientific American,* Vol. 208, No. 5 (May 1963).
- Wigner, E., ‘The Unreasonable Effectiveness of Mathematics in the Natural Sciences,’ *Communications in Pure and Applied Mathematics,* vol. 13, No. I (February 1960).

الفرنسية

- Sartre, Jean-Paul, *L’Existentialisme est un humanism,* Paris, Nagel, 1947.
- Sartre, Jean-Paul, *L’Etre et le néant Essai d’ontologie phénoménologique,* Paris: Gallimard, 1943.
- Beauvoir, Simone de, *La Cérémonie des Adieux,* Paris: Gallimard, 1981.
- Poincaré, Henri, *Science et Méthode,* Paris: Flammarion, 1947.



وصية المرحوم

السيد سليمان السيد علي الرفاعي

غفر الله له ولوالديه ولذريته